القائمة الطويلة لجائزة المان بوكر الدولية 2018

جيني إيربينبيك

وطن محمول

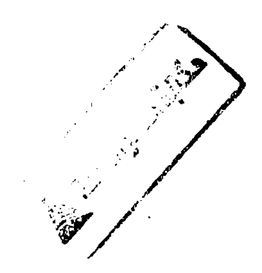
ترجمة: صلاح هلال



جيني إيربينبيك

وطن محمول





ترجمة: صلاح هلال



صلاح هلال/ أستاذ مساعد للأدب الألماني الحديث في جامعة عين شمس؛ مترجم حُر ومترجم فوري ومراجع. حاصل على الإجازة الدولية لتدريس اللغة الألمانية من معهد جوته وجامعة ميونخ. كما درس الأدب الألماني القديم والحديث والنقد الأدبي والترجمة والعلوم الإسلامية في جامعة بون بألمانيا. حائز على جائزة معرض إكسبو الدولي Expo 2000 للترجمة الأدبية.
ترجم كتب عديد من الكُتاب والأدباء الألمان إلى العربية مثل راينر ماريا ريلكه، كورت شفيترس، ماكس فيبر، أرنو جايجر، بيتر شوسوف، نافيد كرماني، وغيرهم.

....

وطن محمول

الطبعة الأولى 2018

رقم الإيـــــداع: 2018/21473

الترقيم الدولي: 978-977-821-035-4

الناشر
محمد البعلي

اخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

Original title: Gehen, ging, gegangen
© 2015 Albrecht Knaus Verlag,
a division of Verlagsgruppe Random House GmbH, München, Germany.

"The translation of this work was supported by the Goethe-Institut, Which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs, within its programme Litrix.de"







دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

وطن محمول

إهداء لفولفجانج

لفرانتس

لأصدقائي.

«خلق الربُّ الكتلة، والشيطانُ السطح».

(فولفجانج باولي)

«حتى وإن أزعجتني حشرة بشدة فإني أتردد كثيرًا قبل أن أقتلها؛ لا أعرف إن كان ذلك من باب الشفقة، لا أعتقد، لا، ربما يكون اعتيادي على سياقات معينة، ومحاولةً مني للاندراج داخل سياقات موجودة، مجرد عملية توافق».

(هاينر مولر)

«في النهاية، لن نتذكر كلمات أعدائنا، بل صمت أصدقائنا».

(مارتن لوثر كينج)

1

ربما تكون أمامه أعوام عديدة أخرى، وربما بضعة أعوام فقط، ولكن على أي حال لم يعُد ريتشارد مضطرًا الآن للاستيقاظ في موعد محدد كي يظهر بالمعهد في الصباح، ببساطة أصبح لديه الآنوقت وحسب، وقت كي يرتحل، كما يقولون؛ وقت لقراءة الكتب، بروست، دوستويفسكي؛ وقت لسماع الموسيقى، لا يدري كم استغرقه الأمر حتى اعتاد على أن يكون لديه وقت، إلا أن عقله ما زال يعمل، كما كان يفعل دائمًا، ماذا يفعل الآن بعقله؟ وبالأفكار التي ما زالت تدور في رأسه؟ لقد حقق النجاح بالفعل، وماذا بعد هذا الذي يسمونه نجاحًا؟، لقد طُبِعَت كتبه، كما دُعِيَ لحضور مؤتمرات، وشهدت محاضراته حتى آخر عهدها حضورًا جيدًا، كان الطُلاب يقرؤون كتبه، ويضعون العلامات على بعض المواضع فيها، ثم يحفظونها عن ظهر قلب للامتحانات، أين هم الطُلاب الآن؟ بعضهم حصل على وظيفة مُعيدٍ في جامعة من الجامعات، اثنان أو ثلاثة منهم أصبحوا الآن أساتذة، أما البعض الآخر فلم يسمع عنه شيئًا منذ زمن طويل، أحدهم يحافظ على تواصل ودودٍ معه، وقليلون يتواصلون معه من حين لآخر.

هكذا إذن، يمكنه من موضع مكتبه أن يرى البُحيرة.

أعد ريتشارد لنفسه القهوة، ذهب بالفنجان في يده إلى الحديقة ونظر إذا كانت حيوانات الخلد قد كوّنت تلالًا جديدة؟

كانت البحيرة هناك ساكنة، مثلما كانت طوال هذا الصيف، وكان ريتشارد ينتظر، ولكنه لم يكن يعرف على وجه التحديد ماذا ينتظر، وأصبح الوقت-فجأة- له طبيعة مختلفة تمامًا عن الوقت الذي يعرفه، ثم فكر في أنه -بطبيعة الحال- لن يستطيع التوقف عن التفكير، فالتفكير أصبح هو ذاته، أو لعل التفكير قد تحول إلى الآلة التي يخضع هو لها، فحتى إن أصبح وحيدًا مع رأسه، فإنه لن يستطيع التوقف عن التفكير، وإن لم يعبأ أحد بهذا، أو كما يقولون، حتى وإن لم يكن هناك ديكٌ يصيح طالبًا إياه، فإنه سيظل يفكر.

وتخيل - للحظة - كيف يقوم ديكٌ بتصفح أطروحته عن «مفهوم العالم في أعمال لوكريتيوس» بمنقاره.

ثم عاد إلى المنزل.

فكر ما إذا كان الجو حارًّا لارتداء السترة، ولكن هل يحتاج أساسًا لسترة وهو يتسكع وحده في بيته؟

عندما نمَا إلى علمه - قبل أعوام مصادفةً - أن حبيبته كانت تخونه، لم يساعده شيء على تخطي إحساسه بخيبة الأمل سوى تحويل خيبة الأمل إلى عمل، لذا ظل تصرف تلك الحبيبة لأشهر طوال موضوعًا لأبحاثه، كتب تقريبًا مائة صفحة لسبر غور كل ما

أدى إلى تلك الخيانة، وأيضًا الطريقة التي قامت من خلالها تلك الشابة بتنفيذ خيانتها، لم يؤدِ عمله في ما يتعلق بتلك العلاقة إلى أي نتيجة طيبة، إذ تركته الحبيبة بصورة نهائية بعد ذلك بفترة قصيرة، ولكن على أي حال استطاع بتلك الطريقة أن يتخطى الأشهر الأولى بعد اكتشاف الخيانة، التي كانت حالته فيها بائسة حقًا، كان أوفيد بالفعل يعلم أن أفضل علاج للحب هو العمل، ولكن الآن لم يعد الوقت الذي يملأه حبٌ لا جدوى منه، هو الذي يعذبه، بل الوقت في حد ذاته، يجب أن يمر، ولكن يجب أيضًا ألا ينتهي، مر بخياله للحظة صورة ديك ملون غاضب يقوم بمنقاره وبمخالبه بتمزيق كتاب يحمل عنوان: «مقال عن الانتظار».

ربما تكون سترة من صوف محبوك أكثر مناسبة لوضعه هذا من السترة الرسمية، وستكون مريحة أكثر على أي حال، كما أنه لن يضطر إلى حلاقة لحيته؛ لأنه لم يعد يختلط بالناس كل يوم، في الحقيقة ولا حتى كل صباح، إذًا فليدع ما يريد أن ينمو ينمو، المهم ألا يكون هناك مزيد من المقاومة، أم أن هذه بداية الموت بالفعل؟ النمو بداية الموت؟ لا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، كما دار بخلده.

لم يجدوا الرجل القابع هناك في قاع البحيرة حتى الآن، لم يكن انتحارًا، بل غرق الرجل وهو يسبح، ومنذ ذلك اليوم في شهر يونيو والبحيرة هناك ساكنة، يومًا بعد يوم، ساكنة في يونيو، ساكنة في يوليو، والآن سيحل قريبًا الخريف وما زالت ساكنة،

لا زورقَ تجديفٍ، ولا صخبَ أطفالٍ، ولا صيادين، إذا حدث هذا الصيف أن قام شخص بالقفز رأسيًا في الماء من على المنط في منطقة السباحة العامة فلن يكون إلا غريبًا لا يعرف شيئًا عن الحادث الذي وقع، وربما سيتحدث إلى واحدة من العالمات بالمكان وهو يجفف جسده وهي تصطحب كلبها في نزهة، أو يتحدث إلى قائد دراجة ينزل عن دراجته ليسأله: ألم تسمع بالأمر؟! لم يقل ريتشارد شيئًا عن الحادث لشخص لا يعرف عنه أي شيء، ولماذا عساه كان يفعل؟ لماذا يُفسد على شخص يريد قضاء يوم جميل يومه؟! يمر المتنزهون بجوار سور بيته فرحين كما جاؤوا، ويمرون عليه في طريق عودتهم وهم كذلك، ولكنه كان حريصًا على أن يرى البحيرة وهو جالس إلى مكتبه.

في اليوم الذي وقع فيه الحادث كان ريتشارد في المدينة، كان لا يزال في المعهد، رغم أنه كان يوم أحد، وكان وقتها ما زال بحوزته المفتاح الرئيس، الذي سلّمه بعد ذلك، وكان ذلك اليوم من أيام الآحاد التي حاول فيها إفراغ محتويات مكتبه شيئًا فشيئًا؛ الأدراج، ثم الخزانات، وفي الثانية إلا الربع -الوقت الذي كان فيه بصدد أخذ الكتب من على الأرفف والأرض والأريكة والكرسي ذي الذراعين والطاولة الصغيرة لوضعها في كراتين- كان يضع في كل كرتونه عشرين أو خمسة وعشرين كتابًا بالأسفل وفوقها الأشياء الأخف: مخطوطات، خطابات، دبابيس ورقية، ملفات، قصاصات من صحف قديمة؛ أقلام رصاص، أقلام جاف، مَماحٍ، وميزان خطابات، يُقال إن زورقيّ تجديف كانا بالقرب من الرجل

ولكن لم يعتقد أحد راكبيهما أن حادثًا يقع في تلك اللحظة؛ وعندما رأوا الرجل يُلوح ظنوها دعابة، بل وجدَّفوا مبتعدين، كما سمع، ولكن لا أحد يعرف من كان راكبو الزورقين، يقال إنهم كانوا مجموعة من الشباب، بل شبابًا أقوياء كان من الممكن أن يساعدوه، ولكن لا أحد يعرف مَن تحديدًا، أو لعلهم خافوا من أن يجذبهم معه إلى الأسفل، من يدري؟

عرضت سكرتيرته أن تساعده في حزم أمتعته، ولكنه قال: «شكرًا جزيلًا»، لكن بدا له بشكل ما أن الجميع -ومنهم أو ربما على رأسهم، الذين يحبونه- كان يريد بشدة إبعاده من أمامهم في أسرع وقت ممكن؛ لذلك فضَّل أن يحزم أمتعته وحده، في يوميِّ السبت والأحد، عندما يعم المعهد السكون التام، ولاحظ أنه يحتاج إلى وقت طويل حتى يُخرِج الأشياء التي كان بعضها موضوعًا على الأرفف أو في الأدراج ولم ينظر فيها منذ سنوات، وحتى يقرر هل سيكون مصيرها ذلك الجِوال الأزرق الخاص بالقمامة؟ أم واحدة من الكراتين التي كان يريد أخذها معه إلى البيت؟ وكان يبدأ بصورة عشوائية في تصفح هذه المخطوطة أو تلك، ثم يظل واقفًا في منتصف الغرفة يقرأ فيها لمدة نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة؛ رسالة علمية لطالب عن «الأغنية الحادية عشرة من ملحمة الأوديسة»، أو رسالة طالبة -وقع في حبها قليلًا ذات يوم- عن «مستويات المعنى في التحولات لأوفيد».

وفي أحد الأيام، في بداية شهر أغسطس أقاموا له حفلًا وألقى

البعض خطبًا بمناسبة تقاعده، اغرورقت عينا السكرتيرة وأعين البعض وعيناه أيضًا، ولكن لم يبكِ أحد منهم فعلًا، ولا حتى هو، سيتقدم بنا السن جميعًا يومًا ما، وكبُر سنه بالفعل، في الأعوام الخوالي كان هو من يقوم عادة بإلقاء خُطب الوداع، وكان كثيرًا هو من يقوم بالتنسيق مع السكرتيرة حول كمية الطعام والنبيذ، وإذا كانوا سيحضرون الشمبانيا أم عصير البرتقال أم الماء؟ واليوم فعل ذلك شخص آخر، كل شيء سيسير حتى دونه، ولكن الفضل في ذلك يعود له أيضًا، نما إلى سمعه في الأشهر الأخيرة مرّات متعددة كيف أن خليفته يتسم بالجدارة، وكم كان اختياره موفقًا! وقد شارك هو بنفسه في ذلك الاختيار، وكان يمتدح هو الآخر ذلك الشاب كلما جاء ذكره، وكأنه يتطلع لمجيئه، وكان ينطق اسم ذلك الشخص، الذي سيحل اسمه مكان اسمه قريبًا في مُقدمة خطابات المعهد - دون تردد - بداية من الخريف سيتولى خليفته تدريس محاضراته، وسيلتزم بخطط التدريس التي وضعها، قبل أن يُصبح متقاعدًا بفترة قصيرة للعمل بها في غير وجوده.

كان على الراحل أن يُجهز لرحيله، وكان ذلك أمرًا معتادًا، إلا أنه الآن فقط أدرك فعلًا أنه لم يفهم حقًا من قبل ما يعنيه التقاعد، كما لم يفهمه حتى بعد ذلك، وبنفس القدر لم يكن قادرًا على فهم أن وداعه بالنسبة للآخرين كان مجرد جزء من يوم، في حين كان بالنسبة له في الواقع نهاية، عندما كان أحدٌ يخبره في الأشهر الماضية كم هي خسارة لا يمكن تصورها أنه سيذهب، كان يجد

صعوبة في إظهار التأثر المتوقع؛ لأن شكوى من يُظهر صدمته لرحيله كانت لا تعني سوى أن ذلك الشخص قد تقبّل منذ زمن تلك الحقيقة الحزينة التي يصعب تصورها، وهي أنه سيرحل، بكل أسف! على أنها حقيقة لا يمكن تغييرها.

تبقى من أطباق الطعام الخفيف التي قُدمت في المعهد بمناسبة تقاعده فضلًا عن البقدونس بعض شطائر سمك السلمون، ربما لأن البعض يخاف من تناول السمك عندما يكون الجو حارًا هكذا، كان البحر، الذي يقبع الآن أمامه، يعرف، هكذا ظن، أكثر منه، رغم أن وظيفته التفكير، أو كانت وظيفته التفكير؟ لا فارق بالنسبة للبحر إذا كان الذي سيتحلل بداخله سمكة أم إنسان.

بدأت بعد يوم من حفل وداعه فترة إغلاق المعهد الصيفية، كان البعض يخطط للسفر إلى هنا أو هناك، وكان هو الوحيد الذي لم يُخطط للقيام برحلة؛ لأن إفراغ أحشاء مكتبه التي تراكمت عبر السنين كان في آخر مرحلة.

وبعد أسبوعين كانت الأرفف مربوطة بحبل ومسنودة على الجدار، والكراتين التي وضع فيها أشياءه مرصوصةبعضها فوق بعض خلف الباب، أما قطع الأثاث التي أراد نقلها إلى البيت فشكلت كومةً تعيق الحركة في وسط الغرفة، وكان يستند إلى تلك الكومة مكنسة شعيراتُها مضغوطة، وفوق مسند النافذة كان يوجد مقص بجوار ظرف خطاب مترب، وفي أحد الأركان أربعة أكياس ونصف من القمامة، في حين كان الشريط اللاصق

موضوعًا على الأرض، ومن الجدران كانتتبرز بعض المسامير، التي لم تعد هناك أي صور معلقة عليها، وكان مفتاح المعهد هو آخر ما قام بتسليمه.

والآن وجب عليه أن يجد الأماكن المناسبة في البيت للأثاث الذي أحضره، وعليه أن يفتح الكراتين ويدمج كل ما فيها في جسد بيته، القدم إلى القدم، الدم إلى الدم، حتى تلتصق بعضها ببعض، عزائم مرزبورج السحرية، نعم، نعم، حتى ذلك الذي يُسمى ثقافة وكل ما يعرف وما تعلم أصبح الآن ملكيته الخاصة وحسب، منذ الأمس كل شيء موضوع في القبو وينتظر، ولكن كيف يجب أن يبدو اليوم الذي سيكون مناسبًا للبدء في إفراغ محتويات الكراتين؟ بالتأكيد ليس كاليوم، ربما غدًا؟ أو بعد ذلك، أي يوم لا يكون لديه فيه ما يفعله، ولكن السؤال بالأحرى: هل يُجدي تفريغ محتويات الكراتين؟ ربما سيكون مجديًا لو كان له أطفال، أو على الأقل أولاد إخوة وأخوات، ولكن الآن كل ما كانت زوجته تسميه قديمًا وكراكيب لم يعد موجودًا إلا لمتعته الشخصية، وعندما لن يكون هو موجودًا، فلن يُصبح لمتعة أي أحد، بالتأكيد سيأخذ تاجر كتب قديمة ربما كل كتبه، وربما وُجِدت من بينها الطبعة الأولى من كتاب أو نسخة وقّع عليها مؤلفها طريقها لأحد عشاق الكتب، ربما يكون شخصٌ يشبهه، شخص يستطيع، وهو ما زال على قيد الحياة، أن يُراكم الكراكيب، دواليك.. دواليك، ولكن بقية الأشياء؟ كل ما يُكوِّنُ نظامًا حوله وله معنى ما دام هو يسير خلاله، وتعرف يده طريقها إليه، ويتذكر هذا أو ذاك؛ كل ذلك

سيتفكك ويضيع، عندما لا يصبح موجودًا، يمكنه أن يكتب يومًا عن ذلك، عن الجاذبية التي تربط الأشياء غير الحية بالكيانات الحية في عالم واحد، هل هو شمس؟ يجب أن ينتبه كي لا يفقد صوابه عندما يجلس وحيدًا أيامًا طوالًا دون أن يتحدث مع أحد.

ولكن رغم ذلك، خزانة المزارعين التي فُقد أحد شرائطها لن تظل -بكل تأكيد- بعد موته في البيت ذاته الذي سيضم الفناجين التي يشرب فيها قهوته التركية كل مساء، والمقعد ذا الذراعين الذي يجلس فيه وهو يشاهد التلفاز، ستقوم أيادٍ أخرى بتحريكه كل مساء غير تلك الأيادي التي ستفتح أدراج مكتبه، وهاتفه لن يكون في حوزة الشخص ذاته الذي سيكون له السكين الحاد الذي يقطع به دائمًا البصل، أو الذي سيملك ماكينة حلاقته من بعده، كثير مما يُقدره وما زال يعمل أو على الأقل يعجبه سوف يُلقى في القمامة، ولكن ستظل هناك علاقة خفيّة تربط مثلًا كومة القمامة التي سينتهي إليها المنبه القديم خاصته، مع البيت الذي ستنجح مجموعة الأطباق التي تزينها صورة بصلة في كسب مكان فيه، وستكمن تلك العلاقة في أن كليهما كانا يومًا ملكه؛ ولكن بعد شطب اسمه من سجل الأحياء لن يعرف أحدٌ بتلك العلاقة، أم أن مثل تلك العلاقة تظل عبر الأزمان بنفس درجة الموضوعية؟ وإذا كانت الإجابة نعم، فما هي وحدة القياس التي يمكن قياسها بها؟ إذا كانت فعلًا المعنى الذي منحها هو نفسه إياه والذي حوّل كل شيء في بيته، من فرشاة الأسنان وصولًا للصليب الجوطي المُعلق على الجدار، إلى كونٍ، فإن السؤال الجوهري التالي

سيطرح نفسه: "هل للمعنى كُتلة؟".

يجب أن ينتبه ريتشارد فعلًا كي لا يفقد صوابه، ربما سيكون من الأفضل له أن يجدوا أخيرًا جثمان الرجل، يُقال إن الغريق كان يرتدي نظارة غطس، ربما يكون ذلك مضحكًا، ولكنه لم يرَ هذا الصيف أي شخص ممن يعرفون ذلك الأمر يضحك على ذلك، مؤخرًا في حفل القرية، الذي أقيم رغم الحادث ولكن دون رقص، سمع رئيس اتحاد الصيد يقول مرارًا وتكرارًا: بنظارة غطس! بنظارة غطس! وكأن هذا الجزء من القصة أصعب ما يمكن تحمُّله في موضوع موت السَبّاح، وفي الحقيقة لم يُعطَ أيٌ من الرجال الآخرين الذين كانوا يقفون بأكواب الجعة في أيديهم أي رد فعل لمدة طويلة، بل ظلوا مُحدقين في الزبد الذي يعلوا أكوابهم وهم يهزون رؤوسهم.

هو أيضًا سيظل حتى النهاية يفعل ما يُمتعه، حتى ينزل إلى قبره رافعًا رأسه، التأمُّل، التفكير، وعندما يصبح عقله يومًا غير قادر على مواكبة ذلك، فلن يكون له عقلٌ يُدرك ما ينقصه، ربما سيستمر الأمر بعض الوقت حتى يطفو الجسد على السطح -كما يقولون- تقريبًا ثلاثة أشهر، ويمكن ـ أيضًا - أن يظل مختفيًا -كما يقولون أيضًا- ربما يكون قد تعلق بين الطحالب، أو غطس للأبد في الطمي في قاع البحيرة الذي يحكي البعض أن سُمْكَهُ أمتارٌ، فقد كانت عميقة، يصل عمقها لثمانية عشرة مترًا، من الأعلى جميل ولكنه في الحقيقة حُفرة كبيرة، كل

واحد من السكان- حتى هو - أصبح من وقتها ينظر بشيء من التردد إلى البوص الذي ينمو على الشاطئ، وبشيء من التردد إلى سطح البحيرة، الذي يكون في الأيام التي يسكن فيها الريح شديد اللمعان، يمكنه أن يرى البحيرة من عند مكتبه، كان جميلًا تمامًا كما في فصول الصيف الأخرى، ولكن بالنسبة لهذا الصيف لم يكن ذلك كل شيء، فالبحيرة أصبحت ملك ذلك الميت، حتى يجدوه ويخرجوه منها، فصل صيف بطوله، وقد اقترب الخريف، والبحيرة ملك رجل ميت.

***

2

في يوم خميس في نهاية شهر أغسطس تجمّع عشرة رجال أمام دار البلدية الحمراء في برلين، قيل إنهم قرروا الإضراب عن الطعام، وبعد ثلاثة أيام قرروا الإضراب عن الشراب، كانت بشرتهم سوداء، وكانوا يتحدثون الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، وغيرها من اللغات التي لا يفهمها أحد في البلدة، ماذا أراد هؤلاء الرجال؟ يريدون العمل، وكسب عيشهم من العمل، والبقاء في ألمانيا، سألتهم الشرطة من أنتم؟ فكانوا يرفضون الإجابة، فكان الآخرون يقولون لهم: "يجب أن تقولوا، وإلا فلن نعرف إذا كان القانون يسري عليكم ويمكنكم البقاء والعمل هنا، أم لا"، فكان الرجال يجيبون: "لن نقول من نحن"، فيرد الآخرون: "لو كنتم مكاننا فهل كنتم ستستقبلون ضيفًا لا تعرفونه"؛ فكان الرجال يصمتون، ليقول الآخرون: "يجب أن نتأكد من أنكم فعلًا في أزمة"، كان الرجال يصمتون، فيقول الآخرون: "ربما تكونون مجرمين، يجب أن نتأكد"، كان الرجال يصمتون، أو ربما استغلاليون، كان الرجال يصمتون، فقال الآخرون: "نحن أنفسنا ليس لدينا ما يكفينا، توجد قواعد هنا، ويجب عليكم الالتزام بها إذا كنتم ترغبون في البقاء"، وأخيرًا قالوا: "لن تتمكنوا من ابتزازنا"، ولكن الرجال أصحاب البشرة السوداء لم يقولوا مَن

هم، لم يكونوا يأكلون، لم يكونوا يشربون، ولم يقولوا من هم، إنهم هناك وحسب، تَوحَّد صمت الرجال، الذين فضلوا الموت على قول من هم، مع انتظار الآخرين لإجابة على كل الأسئلة في صمتٍ كبير وسط ميدان ألكسندر في برلين، لم تكن هناك علاقة بين هذا الصمت وبين حقيقة أن ميدان ألكسندر كانت ترتفع فيه بشدة الضوضاء الآتية من حركة المرور في الطريق ومن أعمال الحفر الخاصة بمحطة مترو الأنفاق الجديدة.

ولكن لماذا لم يتمكن ريتشارد، الذي يمر بعد الظهيرة على أولئك الناس السود والبيض الجالسين والواقفين، من سماع ذلك الصمت؟

فكر في مدينة جيشوف، حكى له صديقه، عالِمُ الآثار، عن ما وجدوه في أثناء أعمال الحفر في ميدان ألكسندر ودعاه لزيارة الحفريات، أصبح لديه الآن وقت، كما أنه لن يستطيع على أي حال السباحة في البحيرة، بسبب الرجل، حكى له صاحبه أنه كانت توجد يومًا سراديب طويلة حول دار البلدية الحمراء؛ قاعات تحت الأرض كان يُقام فيها سوق في العصور الوسطى، حين كان الناس ينتظرون مداولة أو موعد أو حكم، كانوا يتسوقون، وهذا لا يختلف من حيث المبدأ عن ما يحدث اليوم، سمك، جبن، نبيذ، كل شيء يحتاج إلى البرودة حتى يظل صالحًا كان يُتداول في تلك السراديب، كما في جيشوف.

كان ريتشارد -أيام دراسته- يجلس أحيانًا بين المحاضرات

على حافة نافورة "نبتون"، كان يُشمر رجلي بنطاله ويضع قدميه في الماء، وكتابٌ موضوع في حجره، وقد كانت تلك الأقبية موجودة في الأعماق في ذلك الوقت ـ أيضًا - لا يفصلها عن قدميه سوى بضعة أمتار، دون أن يعرف عنها شيئًا.

قبل بضع سنوات، عندما كانت زوجته على قيد الحياة، زارا في إحدى العطلات مدينة جيشوف البولندية الصغيرة، التي بُني تحت كل مكان فيها نفقٌ في العصور الوسطى، وقد نمت تلك السراديب تحت الأرض وكأنها مدينة ثانية تخفى عن النظرة العابرة، وكانت وكأنها صورة منعكسة في المرآة للبيوت الظاهرة فوق الأرض، وكان لكل بيت من خلال قبو خاص مدخلٌ يوصل إلى ذلك السوق العام الذي لم تكن تُضيئه سوى المشاعل، وعندما كانت تدور حربٌ في الأعلى كان سكان المدينة الصغيرة يتحصنون بالأسفل، وأصبح يفعل ذلك من بعدهم اليهود إبّان الفاشية، ولم يسبق أحدٌ النازيين إلى فكرة ضخ الدخان في تلك الممرات.

جيشوف..

أما الأقبية عند دار البلدية الحمراء فقد ظلت خافية حتى على النازيين، لم يُغرقوا سوى أنفاق المترو في برلين في آخر أيام الحرب، ربما كي يغرقوا شعبهم، الذي لجأ إليها ليحتمي من قصف الحلفاء.

"عليَّ وعلى أعدائي!"

سألت امرأة تحمل ميكروفونًا في يدها ووراءها عملاق يحمل كاميرا على كتفه: "هل فقد أحد الرجال الوعي؟"، فنفى أحد رجال الشرطة، هل يتم تغذيتهم صناعيًا؟ فقال الشرطي: "حتى الآن لا، كما ترين"؛"هل تم نقل أحدهم إلى المستشفى؟"، فرَدَّ رجل آخر يرتدي الزي الرسمي: "أعتقد واحدٌ بالأمس، ولكن قبل فترة خدمتي"؛"هل يمكنك أن تخبرني إلى أي مستشفى؟"؛"لا، غير مسموح لنا بذلك"؛"ولكني هكذا لن أحصل على قصة، أنت تفهم بالتأكيد، إذا لم يحدث شيئًا مهمًا فلن أستطيع كتابة قصة عنه"؛"نعم، نعم، أفهم"؛"ولن يقبل أحد مني المقال"، فقال شرطي آخر: "ربما يحدث اليوم شيءٌ مختلف، ربما في المساء"، المرأة: "لدي على الأكثر ساعة، يوجد موعد نهائي للمونتاج"، فقال صاحب الزي الرسمي وهو يبتسم بضيق: "أفهم".

عندما مر ريتشارد وهو في طريق عودته إلى مبنى المحطة بعد ساعتين لم ينظر إلى مبنى البلدية، بل نظر إلى اليسار ناحية النوافير، رأى الأحواض المتراصة على شكل درجات سلم، تؤدي باتجاه الأمام إلى قاعدة برج التلفاز، تم بناؤها أيام الشيوعية، تفيض بالماء صيفًا بعد صيف، مغامرة للأطفال السعداء وهم يسيرون على حوافها محاولين الحفاظ على توازنهم، وحولهم الأمهات والآباء ضاحكون فخورون بهم، وأطفال وأهلهم ينظرون بين الحين والحين إلى كُرة البرج الفضية، ويستمتعون بالشعور بالدوار: "سيقع! سيقع علينا!"، قال الأب لأطفاله: "خمسة وستون وثلاثمائة مترًا حتى أعلى قمته، عدد أيام سنة كاملة في أمتار"؛

وقالت الأم للأطفال الذين يقطر منهم الماء: "لا، لن يقع، يبدو فقط هكذا"، حكى الأب للأولاد قائلًا: "فقط إن كنتم تريدون سماع قصة عامل البناء الذي سقط وهو يبني قمة البرج، فقد سقط، ولكن لأن البرج عالٍ جدًّا هكذا فقد استمر سقوط عامل البناء مدة طويلة حتى أن سكان البيوت المجاورة تمكنوا من إحضار مراتب بسرعة -بينما كان يسقط- كومة كبيرة من المراتب، في حين كان يسقط ويسقط ويسقط، وقد انتهت الكومة بالضبط عندما وصل العامل إلى أسفل بعد سقوطه الطويل، فهبط بنعومة عليها مثل الأميرة وحبة البازلاء في الحدوتة، ثم وقف على قدميه دون أي إصابات تمامًا"، أسعدت معجزة إنقاذ العامل الأطفال، لكنهم أرادوا الرجوع إلى اللعب، عند نوافير ميدان ألكسندر في برلين كانت تبدو الإنسانية-صيفًا بعد صيف- آمنة وسعيدة، تمامًا كما كان الوعد العام بالنسبة للمستقبل بأن ذلك الزمن البعيد سيكون سعيدًا تمامًا، وكان يُسمى الشيوعية، التي من المفترض أن تعم الناس جميعًا يومًا ما، عن طريق تقدم منتظم على شكل درجات السلم، وصولًا إلى قمم مفعمة بالحيوية يكاد لا يصدقها العقل، بعد مائة، مائتين، أو على الأكثر ثلاثمائة سنة.

ولكن على خلاف التوقعات انتهى زمن الذي أعطى الأمر ببناء تلك النوافير - الدولة الشعبية - فجأة بعد أربعين سنة، ومع تلك الدولة انتهى ذلك المستقبل المرتبط بها، ولم يبقَ سوى الألعاب المائية، التي بُنيت على شكل مُدرج، تفور بالمياه، وما زالت تفور صيفًا بعد صيف إلى قمم مفعمة بالحيوية يكاد لا

يصدقها العقل، وما زال الأطفال المغامرون السعداء يمشون عبرها محاولين الحفاظ على توازنهم، تتابعهم نظرات الإعجاب من آبائهم وأمهاتهم وهم يضحكون فخورين بهم، ما الذي تحكيه هذه الصورة في الحقيقة ولا تذكره القصة؟ ما الذي يدعو له الناس السعداء اليوم؟ هل توقف الزمن؟ هل بقي ما يمكننا تمنيه؟

تجمع حول الرجال - الذين يفضلون الموت على الإفشاء بسر من يكونون - عددٌ من المتعاطفين، جلست فتاة صغيرة بجوار أحد السود على الأرض جلسة القرفصاء، وتحدثت إليه بهدوء، وكانت تومئ برأسها بين الحين والحين، ولفت لنفسها سيجارة في تلك الأثناء، ودار حديث بين شاب وشرطي، قال الشاب: «إنهم لا يسكنون هنا»، فقال الشرطي:»إن ذلك ليس مسموحًا لهم أيضًا»، فرد الشاب: «نعم، وهذا هو السبب»، كان بعض الرجال السود راقدً وبعضهم متكئًا على الأرض؛ وبعضهم فرش كيس النوم تحته، وبعضهم غطاء، وآخرون لم يفصلهم عن الأرض شيء، وضعوا طاولة معسكرات لتسند إليها لافتة، كانت اللافتة التي وضعوها من الكرتون، وكانت كبيرة ومدهونة باللون الأبيض وعليها بحروف سوداء باللغة الإنجليزية: «سنصبح مرئيين»، وكتب أحدٌ الترجمة الألمانية تحتها باللون الأخضر، ربما الشاب أو الفتاة، لو نظر الآن الرجال السود إلى ريتشارد فلن يروا منه إلا ظهره؛ رجل يتجه في خط مستقيم إلى مبنى المحطة، يرتدي سترة، رغم حرارة الجو، والآن اختفى بين آخرين بعضهم متعجل ويعرف وجهته جيدًا، وآخرون منهم يتسكعون وحسب، وفي

أيديهم خارطة المدينة، يرغبون في تفقُّد ميدان ألكس، مركز ذلك الجزء من برلين الذي كان يُسمى لفترة طويلة القِسم الروسي، وحتى اليوم يقول كثير من الناس - مازحين - القسم الشرقي، وفي خلفية هذا الزحام وفوقه بمقدار طابق كان بإمكان الرجال الصامتين رؤية نوافذ مركز اللياقة البدنية الموجود مباشرة عند قاعدة البرج تحت مظلة أمامية مطوية بطريقة غريبة، ومن خلف النوافذ أشخاص على دراجات، وأشخاص يجرون، وكان الرجال السود ينظرون إلى هؤلاء الأشخاص وهم يجرون أو يسرعون بدراجاتهم في اتجاه النوافذ العملاقة ساعةً بعد ساعة، وكأنهم يهرعون بأسرع ما يمكنهم ليصلوا إلى هناك عند مبنى البلدية، إليهم، إلى أصحاب البشرة السوداء، أو ربما إلى الشرطة، ليعلنوا تضامنهم مع هذا أو ذاك، وكأنهم -إن لزم الأمر- سيحطمون النوافذ في طريقهم إلى هناك، ويطيرون أو يقفزون الجزءَ المتبقي، ولكن من المعروف أن الدراجات ومشّايات الجري مثبتة في الأرض، وأن الأشخاص الذين يمارسون الرياضة هناك يتحركون في أماكنهم، وليس إلى الأمام، يمكن الانطلاق من أن هؤلاء المتدربين يشاهدون من مكانهم ما يحدث في الميدان، ولكنهم بالتأكيد بعيدون جدًا بحيث لا يمكنهم مثلًا قراءة المكتوب على اللافتة.

***

3

حَضَّرَ ريتشارد لنفسه العشاء؛ خبزًا بالجبن ولانشون من لحم الخنزير ومعه سلاطة، كان يوجد اليوم تخفيض في سعر الجبن في السوبر ماركت الذي كان يسمى قديمًا كاوفهاله؛ لأن تاريخ صلاحيته سينتهي قريبًا، ليس مضطرًا للتوفير، فمعاش تقاعده يكفي، ولكن لماذا عليه أن يدفع أكثر من الضروري، قطّع البصل لتجهيز السلاطة، وكان قد تعلم مؤخرًا من كتاب طهي كيف يُمسك بالبصل كي لا ينزلق وهو يقطعه، يوجد لكل شيء شكل مثالي، سواء للأمور الحياتية البسيطة أو للعمل والفن، وكان يفكر في أن الإنسان يسعى أساسًا طوال حياته ليبلغ هذا الشكل؛ وحين يبلغه في بعض أموره لا تلبس الأرض أن تمسحه من على وجهها، على أي حال فقد كان بالفعل تخطى منذ فترة المرحلة التي كان يحاول إثبات شيء للآخرين بمساعدة ما يحققه، فاليوم لم يعد هناك آخرون، لن تراه زوجته، ولن تهتم حبيبته كثيرًا بفن تقطيع البصل، فقط هو من يسعد الآن عندما ينجح في شيء أو يفهم شيئًا، وقد كان سعيدًا، ولم يعُد لسعادته هدفًا تتبعه، كان ذلك أول مزايا الحياة وحيدًا: أصبحت كل خيلاء عبئًا، والميزة الثانية: لم يعد هناك من يُفسد النظام، صنع مكعبات من خبز قديم وحمرها للسلاطة، أما أكياس الشاي فقد كان يخرجها من الإبريق ويلف

الخيط المثبت بها حولها وحول الملعقة ويعصرها مرة أخرى بقوة، وفي الشتاء تنحني الأزهار التي تنمو أعلى الأشجار حتى تغطيها الأرض، وهكذا، إن السعادة بما هو في مكانه الصحيح، بما لم يضِع، ما يتم التعامل معه بالطريقة المناسبة ولا يتم إهداره، السعادة بما ينجح دون أن يعيق نجاح شيء آخر، كانت في الحقيقة، حسب رأيه، سعادة بنظام لم يقم هو بوضعه، وإنما توجّب عليه أن يجده، نظام خارجٌ عنه، ولذلك يربطه بكل ما ينمو أو يطير أو يحوم، ورغم أن ذلك الارتباط يُبعده عن بعض الناس، إلا أن ذلك لم يكن يزعجه.

عندما بدأت حبيبته في السخرية منه وزاد غضبها من تحذيراته، لم يستطع التوقف عن هذا التصرف أو ذاك، إذا كان ذلك التصرف في نظره صحيحًا تمامًا، كان متوافقًا مع زوجته، على الأقل في هذا الأمر، تقريبًا بشكل دائم، كانت زوجته، الفتاة الألمانية، قد أصابتها طائرات ألمانية تطير على ارتفاع منخفض في نهاية الحرب في رجليها وهي تحاول الهرب من الدبابات الروسية، ولولا أن أخاها أخرجها وقتها من الطريق، لما كتبت لها النجاة، كل ما لا نراه بوضوح يُصبح قاتلًا، هذا ما تعلمته زوجته وهي ابنة ثلاث سنوات، أما هو فقد كان رضيعًا عندما تم تهجير عائلته من شليزين إلى ألمانيا، وكاد أن ينفصل عن أمه في خضم بداية النزوح، لولا أن أحد الجنود الروس قد وضعه في يد أمه في عربة القطار مرورًا فوق رؤوس كثير من المرتحلين الآخرين على رصيف القطار المكتظ، حكت له أمه تلك القصة مرارًا وتكرارًا

حتى كاد يعتقد أنها من بين ذكرياته هو، ويلات الحرب، كما كانت تسميها، ربما كان والده أحد المتسببين في ويلات الحرب حين كان جنديًا على الجبهة في النرويج وروسيا، يا تُرى كم طفل فصله أبوه عن أمه هناك، حين كان ذلك الأب نفسه تقريبًا ما زال طفلًا؟ أو لعله أوصله لعائلته؟ ولم يجد ذلك العائد من الحرب عائلته، ويرى ابنه لأول مرة في حياته، بعد تهجيرهم إلى برلين، إلا بعد عامين، واستمرت نداءات البحث عن مفقودين، والتي كان يطلقها الصليب الأحمر عبر المذياع لسنوات، ولكن أباه كان قد عاد بالفعل منذ فترة طويلة إلى بيته، وكان يجلس على الأريكة بجوار الأم وأمامه قطعة من كعكة عسل النحل وفنجان من حبيبات القهوة الحقيقية، وأصبح الطفل الذي كاد أن يضيع في خضم ويلات الحرب تلميذًا في المدرسة منذ فترة طويلة، ولم تُتح للطفل بعد الحرب فرصةً لطرح الأسئلة على أبيه، فقد كانت أمه تهز رأسها وتنهاه وهي تشير إليه قائلةً: «دع أباك يستريح!»، وكان أبوه يلتزم الصمت، يا تُرى كيف كان الرضيع سيصبح اليوم لو كان القطار قد أقلع دقيقتين مُبكرًا؟ وماذا كانت ستصبح الفتاة التي تزوجها ريتشارد بعد ذلك، لو لم يكن أخوها قد سحبها من الطريق؟ الأمر الوحيد المؤكد هو أنه ما كان للزفاف أن يتم بين طفل يتيم وفتاة ميتة، يُحكى أن أرشميدس قال وهو يرسم بأصبعه أشكالًا هندسية في الرمال، للجندي الروماني: «لا تُزعج دوائري»، وبعدها قتله الجندي بطعنة، كان ريتشارد وزوجته متفقان دائمًا في أن الأمور الواضحة لا تكون بالضرورة بديهية،

وربما كانت لذلك تفهم أكثر من حبيبته الصغيرة ما الذي كان يدور بخلده عندما كان يبحث في كل ما يقابله عما هو صحيحٌ فعلًا، وكانت تشرب الخمر أيضًا، ولكن هذه قصة أخرى.

جلس إلى المائدة وشغّل التلفاز؛ لأنهم يقدمون في نشرة المساء أخبارًا من المدينة والمنطقة: سرقة بنك، إضراب العاملين في المطار عن العمل، ارتفاع أسعار البنزين مُجددًا، تجمُّع عشرة رجال في ميدان ألكسندر، من الواضح أنهم من اللاجئين، وبدؤوا إضرابًا عن الطعام، أحد المضربين عن الطعام أُصيب بإغماء ونُقل إلى المستشفى، في ميدان ألكسندر؟ وعرضوا مشهدًا لرجل ينام على حمّالة ويُنقل إلى سيارة إسعاف، هناك حيث كان ريتشارد اليوم؟ صحفية شابة تتحدث في الميكروفون، في الخلفية بعض الأشخاص، منهم من يستند ومنهم من ينام على الأرض، طاولة معسكرات تستند إليها لافتة من الكرتون، مكتوب عليها باللغة الإنجليزية: «سنصبح مرئيين»، وتحتها بخط صغير وباللون الأخضر نفس الكلمات باللغة الألمانية، ولكن لماذا لم يرَ المُظاهرة؟ وضع على قطعة الخبز الأولى شرائح الجُبن، وعلى الثانية اللانشون، كان يخجل أحيانًا من أنه يتناول طعام العشاء وهو يشاهد في التلفاز أشخاصًا ماتوا رميًا بالرصاص، أو جثث ضحايا زلزال أو سقوط طائرات، هنا حذاء شخص راح ضحية عملية انتحارية، وهناك جثث ضحايا وباء بعد أن وضعوها في أكياس ورصوها بعضها بجوار بعض في قبر جماعيّ، ظل حتى اليوم يشعر بالخجل، ويستمر في الأكل، كما كان يفعل دائمًا،

لقد فهم منذ طفولته معنى الأزمة، ولكن لا داعي لأن يدفعه اليوم شخصٌ يائس قرر الإضراب عن الطعام إلى أن يموت هو أيضًا جوعًا، هذا ما كان يُحدث به نفسه، وإن فعل فلن ينفع ذلك -أيضًا- الشخص المُضرِبَ عن الطعام، ولو كان حال ذلك اليائس جيدًا كحاله لجلس هو الآخر وتناول طعام العشاء، حتى بعد أن تقدم في السن كان مشغولًا بمحاولة التخلص من الميراث البروتستانتي الذي ورثه عن أمه والذي تمثّل في الحالة الدائمة من الندم، ولكنها هي أيضًا لم تعرف شيئًا عن معسكرات الاعتقال، هكذا كانت تدَّعي، ما الذي كان موجودًا قبل مجيء لوثر مكان الروح، التي يسكنها منذ عصره تأنيب الضمير؟ منذ قدم أطروحاته الخمسة والتسعين تُعد تلك الحالة التي تُشبه الصمم ربما نوعًا من أنواع الدفاع عن الذات وحسب، أغمد شوكته في صحن السلاطة الممتلئ، وقال لنفسه وهو يمضغ الطعام، إنه لن يكون من الأمور العقلانية أن يتوقف عن الأكل في يوم من الأيام فعلًا بسبب تضامنه مع أحد الفقراء أو اليائسين في هذا العالم، وما استطاع عند إذ الخروج من قفص القرار الحُر، حبيسًا في رفاهة القدرة على الاختيار سيكون امتناعه عن الطعام ليس بأقل شهوانية من الشرَهِ للطعام، أعجبه مذاق البصل الموجود في السلاطة، بصل طازج، وما زال الرجال يرفضون ذكر أسمائهم، كما قالت تلك الشابة، بدت مهمومة بسبب الرجال المضربين عن الطعام، كانت مهمومة بطريقة مُقنعة، هل أصبحت نغمة الصوت التي تُعبر عن الشعور بالهَمِّ مادة إجبارية يدرسها ويُختَبَر فيها

الصحفيون الآن؟ وهل كانت صورة الرجل فوق سرير الإسعاف فعلًا من ميدان ألكسندر؟ في العصور الوسطى كانوا يسمون المراجع العالمية «Summa“ أي الجامعة، وكانت تبدو في تلك الكتب خارطة مدينة مدريد تمامًا مثل خارطة نورينبرج أو باريس، وكانت الخريطة تعبر فقط عن أن ما يحمل اسمًا فيها فهو مدينة، والوضع لم يختلف اليوم تقريبًا عما كان عليه كثيرًا، ألم يرَ بالفعل مرّات كثيرة لا عدًّ لها شكل إنسان نائم على سرير الإسعاف ويتم نقله في نشرات الأخبار عن مختلف أنحاء العالم وبسبب مختلف الكوارث؟ ولكن لماذا توجد أهمية أساسًا في أن تشارك الصور التي تمر أمامنا في معشار ثانية نفس المكان والزمان مع الصدمة التي يسببها الخبر الذي تظهر معه؟ هل يمكن للصورة أن تكون دليلًا؟ وهل هذه هي وظيفتها؟ ما هي الحكاية التي تقوم عليها الصور العشوائية اليوم؟ أم أن الأمر لم يعد يتعلق بأي حكاية؟ لقد غرق اليوم فقط ستة أشخاص في أماكن متفرقة حول برلين في حوادث سباحة، حسب قول مذيع الأخبار الآن في نهاية النشرة، رقم قياسي حزين، هكذا وصفه قبل أن ينتقل بالمشاهدين إلى النشرة الجوية، ستة رجال مثل الرجل الذي ما زال قابعًا في قعر البحيرة، ”سنُصبِح مرئيين“، لماذا لم يرَ ريتشارد الرجال في ميدان ألكسندر؟

***

4

قام في الليل لِيَبُول ولم يستطع النوم مُجددًا، وهو الأمر الذي تكرر أحيانًا في الأشهر الماضية، ثم رقد في الظلام وراقب أفكاره وهي تنطلق هنا وهناك، فكر في الرجل الراقد أسفل البحيرة، في قعرها تمامًا، حيث تكون البحيرة باردة حتى في الصيف، فكر في الشابة التي كانت ترتدي التنورة شديدة القِصر، قديمًا، عندما كان يستطيع النوم طِوال الليل دون انقطاع، كان الليل يمر وكأنه استراحة، ولكن حاليًا -ومنذ فترة طويلة- لم يعد الأمر كذلك، كل شيء يستمر دائمًا ولا يتوقف حتى في الظلام.

في اليوم التالي جزّ العشب، ثم تناول حساء بازلاء على الغداء، ثم غسل العلبة، وأعد لنفسه القهوة، تناول قرصًا للصداع، أو "قِردًا للصعاص"، كما كان يسميه قديمًا عندما كان يمزح هو وحبيبته باستبدال مواضع حروف الكلمات، أو بقولها كما تُكتب خطأ؛ فمثلًا كلمة قديم كانت تتحول إلى "دقيم"، وقصير إلى "صقير"، وهكذا، لماذا لم يرَ الرجال؟ سنصبح مرئيين، تمامًا.

أخذ من على الرف الترجمة النثرية "للأوديسة" وقرأ الفصل المُفضل لديه - الفصل الحادي عشر - وبعدها ذهب إلى متجر المدينة وأخذ سكين جز العُشب لشحذها.

وفي المساء جهز لنفسه قِطع الخبز المحشو ومعها سلاطة، اتصل بصديقه بيتر، عالمِ الآثار، وحكى له كيف أن حفّارًا في أثناء عمليات الحفر كان يَحمل فجأة تمثالًا حديثًا على جرّافته، قال له إنه من المعرض النازي "الفن المنحط"، تصوَّر! ربما يكون أحد مكاتب "غرفة ثقافة الرايخ" قد هُدمت في أثناء حرب القنابل، ويمكن القول بأن خزانة الهدايا قد سقطت إلى العصور الوسطى، قال ريتشارد إن ذلك أمر لا يصدقه عقل، وقال صاحبه إن الأرض مليئة بالمعجزات، فكر ريتشارد -ولكنه لم يقل ذلك- في أن الأرض بالأحرى مثل مستودع القمامة، حيث تسقط الأزمان المختلفة في الظلام، ويمتلئ الفم بالتراب، طبقات بعضها فوق بعض، دون أن تصبح مثمرة، والتقدم يكمن دائمًا وحصرًا في كون أولئك الذين يمشون على الأرض لا يعرفون شيئًا عن ذلك كله.

أمطرت في اليوم التالي؛ لذلك بقي في البيت، وقام أخيرًا بترتيب كومة الصُحف القديمة.

ثم قام بعمل بعض التحويلات المالية هاتفيًا، وبعدها كتب قائمة مشتريات لما بعد ذلك:

1 كيلو بصل.

2 × خس.

خبز أبيض.

خبز أسود.

جبن الزبدة.

سجق.

3 × حساء (البازلاء أو العدس).

معكرونة.

طماطم.

براغي مقاس 16.

2 طلاء قوارب.

خُطّاف.

رقد عشرين دقيقة بعد الغداء، كان الغطاء الذي يتغطى به من وبر الجمال الأصلي، وكانت زوجته قد أهدته إياه قبل سنوات في عيد الميلاد المجيد.

وكي يبدأ بإخراج محتويات الكراتين الموضوعة في القبو فضّل انتظار يومٍ أكثر إشراقًا.

كانت الطالبة التي احتفظ برسالتها عن "مستويات المعنى في التحولات لأوفيد" تُخبئ وجهها خلف يديها وتنام في محاضراته

أحيانًا، ولكن رغم ذلك كانت الرسالة التي كتبتها جيدة.

كانت الأمطار خفيفة بعد الظهيرة؛ لذا ركب سيارته وذهب إلى السوبر ماركت الذي كان اسمه قديمًا كاوفهاله، غدًا الأحد وبالتالي يجب ألا ينسى شيئًا، ثم متجر المدينة لشراء بقية الأشياء، كان متجر المدينة يعبق برائحة السماد وألواح الخشب والطلاء، كانت توجد هناك ديدان للصيد ـ أيضًا - ونظارات غطس وبيض طازج من القرية.

نظارات غطس!

مساءً، في نشرة أخبار المدينة والمنطقة، عرضوا خبرًا قصيرًا: "تم ترحيل اللاجئين المضربين عن الطعام من ميدان ألكسندر، انتهى الإضراب".

فكر في أن ذلك خسارة، فقد أعجبته فكرة أن تُصبح مرئيًا عن طريق ألا تقول علنًا من أنت.

سمى أوديسيوس نفسه "لا أحد" كي يهرب من كهف سَيْكلوب، من الذي فقأ عينك؟

وهكذا كان العمالقة الآخرون يطرحون على سيكلوب أسئلتهم من خارج الكهف وهو يصرخ فيهم: "لا أحد!".

"من الذي يضربك؟". ـ "لا أحد!"

تعلّق أوديسيوس، الذي كان العملاق يصرخ باسمه "لا أحد"،

ببطن ماعزٍ، وهرب على هذا الحال دون أن يراه أحد من كهف العملاق آكلَ لحوم البشر.

ربما تكون اللافتة التي كُتب عليها "سنصبح مرئيين" مُلقاة الآن في سلة قمامة، وإذا كانت أكبر من أن تدخل في سلة القمامة فلعلها مُلقاة على الأرض وقد بللتها الأمطار.

***

5

في الأسبوعين التاليين كلّف ريتشارد شخصًا بتركيب باب جديد للحظيرة وكلف آخر بإصلاح مدخنة المدفئة، وزرع زهورعيد الفصح في أماكن أخرى، وقام بطلاء المجاديف بطلاء القوارب، وردّ على الخطابات التي تركها طوال الصيف تنتظر، وذهب مرة للعلاج الطبيعي وثلاث مرات إلى السينما، وفي الصباح كان يقرأ كعادته الصحيفة في أثناء تناول الإفطار، كان يشرب شاي "إيرلي جراي" باللبن والسكر في الصباح، ويأكل معه خبزًا بالعسل وآخر بالجبن، وأحيانًا كان يتناول معه قطعة خيار، وفي أيام الأحد فقط كان يتناول بيضة، أصبح لديه الآن كل يوم الراحة التي لم تكُن تتوافر قديمًا إلا أيام الأحد، الجديد هو أنه أصبح بإمكانه الجلوس لتناول الشاي في الفترة التي يرغب فيها، حتى أنه أصبح يقرأ الأخبار بدقة،والتي كان قبل ذلك يمر عليها مرور الكرام، كان يود معرفة المكان الذي نُقِل إليه رجال ألكس العشرة، ولكنه لم يجد عنهم شيئًا في الصحف، قرأ أن 64 من 329 لاجئًا من القادمين على ظهر قارب قد غرقوا أمام جزيرة لامبيدوسا الإيطالية، ومنهم أشخاص من غانا وسيراليون والنيجر، وقرأ أن رجلًا من بوركينا فاسو سقط من طائرة على ارتفاع 3000 مترًا من مكان عجلات الطائرة حيث كان يختبئ فوق مكان ما في نيجيريا، وقرأ عن

مدرسة احتلها أفارقة سود منذ أشهر في كرويتسبيرج، وقرأ عن ميدان أورانين الذي يعيش فيه لاجئون في خيام منذ عام تقريبًا، ولكن أين تقع في الحقيقة بوركينا فاسو؟ حتى نائب الرئيس الأمريكي تحدث مؤخرًا عن إفريقيا على أنها بلد واحد، في حين أن أحد المقالات عن تلك الزلة قد ذكر أنه توجد في إفريقيا 54 دولة، أربعة وخمسون؟ لولا أنه قرأ ذلك لما عرف هو الآخر تلك المعلومة، ما هي عاصمة غانا؟ أو عاصمة سيراليون؟ أو عاصمة النيجر؟ كان بعض طلابه يعجزون في بداية عامهم الدراسي الأول عن قراءة أول أربعة أسطر من "الأوديسه" بالإغريقية، لم يكن ذلك أمرًا وارد الحدوث في أيام دراسته، قام وأحضر الأطلس الخاص به، عاصمة غانا هي أكرا، وعاصمة سيراليون فريتاون، وعاصمة النيجر نيامي، هل سمع بأسماء تلك المدن من قبل؟ تقع بوركينا فاسو غرب النيجر، والنيجر؟ كان يوجد في السبعينيات في قسم اللغة الألمانية وآدابها، في الردهة ذاتها في الجامعة، أي بعد غرفته بعدة غُرف، كثير من الطلاب من موزمبيق وأنجولا، كانوا يدرسون الهندسة الميكانيكية والزراعة، ولكنَّ زملاءه كانوا يقدمون لهم دروسًا في اللغة الألمانية، ولكن نهاية الاشتراكية هنا توقف التعاون مع تلك الدول الإفريقية التي كانت حليفة، هل اشترى وقتها كتاب "الأدب النيجيري" بسبب هؤلاء الطلاب؟ لم يعد يعرف ذلك، ولكنه على أي حال يعرف جيدًا مكانه في رف الكتب، عندما كان يسأله زواره إذا كان قد قرأ كل الكتب الموجودة في أرفف كتبه؟ كان دائمًا يقول "الكتب تنتظر"، عاصمة

موزمبيق مابوتو، وعاصمة أنجولا لواندا، أغلق الأطلس مرة أخرى وذهب إلى الغرفة الأخرى وتوجه إلى الرف الذي يحمل كتاب الزنوج، لا يقول أحدٌ اليوم "زنوج"، ولكن قديمًا كانوا يطبعون مثل هذه الكلمة عنوانًا على غُلاف كتاب، متى كان في الحقيقة ذلك الـ"قديمًا"؟ في طفولته - في فترة ما بعد الحرب - كان على أمه أن تقرأ له دائمًا من كتاب "منطاد هاتشي براتشي" الذي وجدته في حقيبة بين أطلال برلين:

"أسرع فإن الماء قد فتَر...

هكذا تنادي المرأة آكلة البشر...

أمسكيه بسرعة، في لمح البصر...

هكذا ينادي الطفل آكل البشر".

كان يعجبه جدًا الطفل آكل لحوم البشر في الصور، وقد شبك شعره بعظام من طعامه الأخير، ولكن على ما يبدو أن أمه قد أعطت الكتاب بعد ذلك لأحد ما، وعندما بحث عنه بعد أن كبُر في المكتبات قيل له إن الكتاب موجود ولكن في طبعة جديدة "صحيحة سياسيًا" فقط، أي فيها إفريقيا دون آكلي لحوم بشر، وأن النسخة الأصلية إن وجِدت فستكون نسخة أثرية باهظة الثمن، حتى هنا لم ينجح المنع إلا في جعل الممنوع مرغوبًا جدًا، التأثيرات غير مباشرة، على نحو غير مباشر، هكذا فكر، كما كان يفكر كثيرًا في الأعوام الأخيرة في مناسبات مختلفة، ولكن كتاب

”أدب الزنوج“ كان في مكانه على الرف، حيث كان يقف دائمًا وينتظره، نعم، كان عنوان الكتاب من عام 1951، تصفح الكتاب وقرأ بعض الأسطر: ”الأرض كروية وتحيط بها المستنقعات من كل مكان، ومن ورائها أرض أشباح الأدغال، وتحت الأرض لا يوجد سوى أرض، ولا أحد يعرف ما وراء ذلك“.

***

6

عندما وجد ريتشارد - أخيرًا - المدرسة في منطقة كرويتسبيرج في برلين، كانت الشمس توشك على المغيب، لم توجد إضاءة خارجية في المكان الذي كان قديمًا فناءً للمدرسة، حتى أنه لم يكد يفرق بين الأشكال السوداء التي رآها هناك وبين هواء الليل، كان الدَرَج تفوح منه رائحة كريهة، كانت الجدران مرشوشة بالألوان، لمح في الطابق الأول-عبرَ باب مفتوح- حمامَ الرجال، دخل ليرى كيف يبدو حمام الرجال هنا: من أربع دورات مياه كانت ثلاث مغلقة بشريط لاصق أبيض وأحمر اللون، على الجانب الآخر كان كل شيء فارغًا، ربما كانت هناك أدشاش في ما سبق، تم فك المواسير ولم يبقَ سوى البلاط، كانت الرائحة نتنة بفظاعة، خرج مرة أخرى، لم يوجد أحد هناك، لا أحد أسود، لا أحد أبيض، لم يوجد سوى ورقة صغيرة على الجدار مكتوب عليها بخط اليد: "القاعة"، وسهم يشير إلى أعلى، ثم سمع أصواتًا تأتي من أعلى، ربما يكون الجميع الآن في الاجتماع، فقد تأخر بعض الشيء لأنه ضل الطريق بعد خروجه من المترو وتوجهه إلى المدرسة، إذ لم يكن يعرف الأماكن جيدًا في غرب برلين حتى الآن، كان قد قرأ في الصحيفة أن: حكومة برلين تدعو المواطنين واللاجئين إلى مشاورات حول الوضع في قاعة مدرسة كرويتسبيرج المحتلة،

ولكن ماذا يفعل هنا في حين أنه ليس من السكان ولا من اللاجئين؟ هل منحه سقوط جدار برلين بعض الحرية كي يذهب إلى أماكن يخاف منها؟

كانت القاعة ممتلئة بالناس، بعضهم يقف وبعضهم يجلس على الأرض أو على مقاعد وطاولات، كانت مراتب اللاجئين مركونة في جانب القاعة، وكان بعض الخيام منصوبًا وسط القاعة ومثبتًا في باركيه الأرضية المُتعرج، أين هنا الخارج؟ وأين الداخل؟ حتى ذلك المكان الذي كان في السابق مسرح القاعة، كانت تعلوه المراتب، الواحدة ملتصقة بالأخرى، وستار المسرح مُدلًى بين الأعمدة الكورنثية البيضاء، وكان مرفوعًا بحيث كان يكشف أماكن النوم والأغطية وفرش الأسرة والحقائب والأحذية، ألا يرقد هنا وهناك شخص تحت الأغطية وينام؟ لم يكن ريتشارد متأكدًا من ذلك، أو كما قال فاوست: أواه!

دخل حين كان كل واحد يذكر اسمه في دوره، ويقول من هو، ولِمَ هو موجود هناك، وكانت تتم ترجمة كل ذلك مرتين، جلس ريتشارد في حياته في اجتماعات كثيرة، لكنه لم يكن يومًا في مثل هذا الاجتماع.

"اسمي، أنا مِن، وأنا هنا كي".

.My name is, I come from, I'm here because

.Je m'appelle, je suis de, je suis ici

نحو 70 شخصًا قالوا من هم، "هأنذا قد استبحرت بسعي محموم في دراسة الفلسفة والقانون والطب وفي دراسة اللاهوت أيضاً، وا أسفاه!"، كان السقف مغطى بالجص وتتدلى منه ثريًا، وعلى الجدران خشب داكن، قبل وقت ليس بالبعيد كان هذا المكان مدرسة ثانوية.

من مالي، إثيوبيا، السنغال، من برلين.

From Mali, Ethiopia, Senegal، From Berlin.

De Mali, Éthiopie, Sénégal، De Berlin.

كان بعض السترات والتيشرتات مُعلقًا على مفارق النوافذ، ليجف، ربما؟ أين عسى المرء أن يغسل ملابسه في مدرسة سابقة؟ قبل وقت - ليس بالبعيد - كانت خشبة المسرح شاهدة على إلقاء الخطب وعزف البيانو، وكانوا يرحبون بالتلاميذ الجدد عليها، ويكرمون أفضل الحاصلين على شهادة الثانوية، كما كانت تعرض عليها المسرحيات، وعندها كانوا يزيحون الستار إلى الجانب، كان يمكن رؤية فاوست جالسًا إلى مكتبه، وأرى أننا لا نستطيع أن نعرف شيئًا! حقًا - حتى الآن - في أثناء الاجتماع كان بعض الأشخاص يرقد تحت الأغطية.

من نيجيريا، من غانا، من صربيا، من برلين.

From Niger، From Ghana، From Serbia، From .Berlin

.De Niger، De Ghana، De Serbie، De Berlin

هل سيتم طرده لأنه ليس من السكان؟ إنه لا يريد ذِكر مَن يكون؛ أو لماذا هو موجود هنا، وخاصةً لأنه نفسه لا يعرف. من بين الحاضرين ذوي البشرة البيضاء كان يوجد سكان من كرويتسبيرج وأعضاء في جمعيات إغاثة اللاجئين، وعُمال إغاثة في الكوارث وأعضاء مبادرة يرغبون في تحويل المدرسة إلى مؤسسة ثقافية، ويوجد موظفون من إدارة الحي وأعضاء من خدمة الشباب، كما كانت هناك صحفية، ولكنها اضطرت للذهاب مرة أخرى لأن الاجتماع مُقرر أن يكون مغلقًا بالنسبة للجمهور العام. كان يعيش بعض الأشخاص ذوي البشرة السوداء في المدرسة منذ ثمانية أشهر، وآخرون منذ شهرين فقط، كان اللاجئون هنا يذكرون أسماءهم، ويقولون من أين أتوا، وذلك على خلاف أولئك في ميدان ألكسندر، إلا أن ذلك لم يبدُ الحل للمشكلة، عاصمة غانا هي إكرا، وعاصمة سيراليون هي فري تاون، وعاصمة النيجر نيامي، لا، ريتشارد لا يرغب في ذكر اسمه.

في اللحظة التي فكر فيها في ذلك أتى من ناحية الدَرج صوت فرقعة يصم الآذان، صوت يشبه الانفجار الذي يطمس كل الأفكار

ولا يدع مجالًا إلا للغريزة، غريزة عامل الإغاثة في الكوارث كانت تخبره: „نحن في الطابق الثاني"، أما الرجل الغاني فقد كان يعرف: „المدخل إلى الدرج الآخر مغلق"، الساكن قال في نفسه: „رغم أني أبيض اللون"، وسألت الساكنة نفسها: „ماذا سيحدث لطفلي من بعدي؟"، وكثير من السود قالوا في أنفسهم: „إذَن فقد أتيت إلى هنا فقط لأموت"، وعرف ريتشارد: „لقد آن الأوان".

ولكن بعد ذلك خفض من سدوا آذانهم بأيديهم - ومنهم ريتشارد - أيديهم مرة أخرى، وعادوا ليتنفسوا وبدؤوا يفكرون ويفكرون، ويفكرون – أيضًا - في أنها كان من الممكن ببساطة أن تكون قنبلة.

ولكن تحديدًا في تلك اللحظة التي كان الجميع يحاول فيها طرد الخوف، الذي شعر به أو بالأحرى الذي استحوذ عليه، من أفكاره، فجأة انطفأ الضوء، للحظة أصبح كل من في ذلك المكان سودًا، جاء صوت بعض الحاضرين بتساؤلاتهم الهامسة: „ماذا الآن؟ ما الذي يحدث؟"، وشخص آخر قال فزعًا: „يا للهول!"، ثم عاد الضوء مرة أخرى.

وكأن ما حدث في تلك الدقيقتين من الأمور غير المتوقعة لم يكن كافيًا، إذ لم تمضِ على عودة الضوء لحظات إلا وبدأ أحد الأفارقة فجأة في الصراخ والتلويح هنا وهناك، ثم أخذ يقذف بوسادة عبر المكان ثم بأحد الأغطية أيضًا، ما هذا؟ ماذا أصابه؟ هل يعاني صدمة عصبية؟ لا، هكذا قالوا، بل على ما يبدو قد

سُرق اللابتوب الخاص به من تحت الوسادة، إما في أثناء الانفجار أو حين حل الظلام بعد ذلك، لماذا يمتلك لاجئ „لابتوب" أساسًا؟! هكذا كان الساكن يفكر في تلك اللحظة، إنه بالتأكيد أحد الرجال الذين يتاجرون بالمخدرات في المرفأ الذي على الناصية، هكذا فكرت الساكنة، لا تصلح فكرة الملكية الخاصة، عندما يكون لكل شخص غطاء ووسادة فقط، هكذا فكر ريتشارد، الذي جاء من ضاحية بالمدينة إلى هذا المكان لأسباب لم تكن واضحة حتى بالنسبة له شخصيًا، مر ريتشارد بجوار الرجل الذي كان يصرخ ومن حوله ممن كانوا يحاولون تهدئته، ترك الضجيج والغرفة، التي لم يبدأ الاجتماع فيها فعلًا، وتوجه إلى بيت الدرج الذي كان ضباب الألعاب النارية التي انفجرت ما زال موجودًا فيه، والتي كان شخص برليني مستفز قد ألقاها في إشارة ضد إدارة الحي، أو ألقاها شاب أسود لا يُحسن سوى إفزاع الآخرين بألعاب نارية، أو أحد الفاشيين الجدد الذين يكرهون اللاجئين والمتعاطفين معهم، أو شيطان أسود صغير أراد سرقة لابتوب شيطان أسود فقير آخر في أثناء لحظة الهلع.

هبط ريتشارد الدرج، وهو يكاد لا يراه من شدة الدخان، ثم مرّ بحمام الرجال الذي كان مضاءً ولكنه فارغًا إلى الأسفل، لو لم يكن يهبط ببطء خشية السقوط لظن أحدهم أنه يهرب.

***

7

ما أجمل رائحة أوراق الشجر المتساقطة في الخريف، أوراق الشجر الرطبة التي تنضغط داخل الأرض وتظل ملتصقة بكعوب الأحذية، فتح بوابة الحديقة واستنشق الهواء المظلم، هكذا كان ريتشارد يفعل منذ عشرين عامًا كلما عاد إلى البيت في المساء، مر عشرون خريفًا على تلك الحديقة، وهكذا كانت دائمًا الرائحة، وهكذا كان يفتح بوابة الحديقة ويغلقها خلفه، كان الزمن هناك مثل البلد الكبير الذي يمكن للمرء أن يعود إليه فصلًا بعد فصل من فصول السنة، كان يعرف المكان هناك جيدًا، لم يقم مثل معظم الجيران بتركيب كاشف حركة بين الأشجار ليضيء له عندما يمر بين أغصان الأشجار إلى بيته، كان البدر يلمع أحيانًا، إلا أن الأمر لم يكن يزعجه عندما يكون الظلام دامسًا، كما كان في تلك الليلة، عندها كانت خطواته تخص الغابة أكثر مما تخصه هو ذاته، وكان يستعيض عن الرؤية بالانتباه، الظلام، حتى الظلام المُروَّض، كان يجعل للحظات طويلة من شخص مثله حيوانًا عُرضة للخطر، ثم خطر بباله مجددًا ذلك الرجل الذي يتقاذفه الماء في سكون في قاع البحيرة.

هل كان جبانًا، هناك، في كرويتسبيرج؟ ربما، كان يبدو له في

الحديقة دائمًا أن ما يربطه بشدة مع المكان هو ذلك الشعور بالخوف الذي يحدق به، هنا في الحديقة لم يتملكه أبدًا خوفٌ من الخوف، أما في المدينة فكان الأمر مختلفًا، كان أصدقاؤه يسخرون من رفضه الذهاب بالسيارة إلى مركز المدينة، ولكنه لم يعد يعرف الأماكن هناك منذ سقوط جدار برلين، ومنذ سقوط الجدار تضاعف حجم المدينة وتغيرت كثيرًا، حتى أنه أصبح كثيرًا لا يعرف في أي تقاطع يقف، كان يعرف الحفر التي أحدثتها القنابل، بالأنقاض، وبعد ذلك دون أنقاض، وبعد ذلك بفترة كان مكانها ربما متجر مقانق هنا أو متجر أشجار الصنوبر، وفي أحيان كثيرة كان المكان يظل خاليًا، ولكن في السنوات الأخيرة مُلئت الحفر بالبيوت مرة أخرى، كما بُنيت النواصي الحادة، ولم تعد جدران الحماية موجودة، قبل بناء جدار برلين كان يقف ريتشارد - وهو طفل - في محطة جزوندبرونن في برلين الغربية ليبيع التوت الأزرق الذي كان يجمعه بنفسه، ليشتري أول كرة ملونة خاصة به، لم توجد كرات ملونة سوى في الغرب، عندما رأى المحطة لأول مرة بعد سقوط الجدار كان العُشب يرتفع على القضبان المؤدية ناحية الشرق، وعلى أرصفة المحطة أشجار التامول تتأرجح مع الريح، لو كان المصمم المعماري للمدينة لترك المكان على حاله ليذكر بالمدينة المقسمة وكعلامة على فناء كل ما يبنيه الإنسان، أو ربما لأن وجود غابة صغيرة من أشجار التامول على رصيف محطة قطارات يبدو جميلًا.

أخذ ريتشارد كأسًا من الويسكي وشغَّل التلفاز، كانت توجد

برامج حوارية كثيرة، وفيلم رعاة بقر قديم، وبرامج إخبارية، وفيلم تدور أحداثه في المراعي المرتفعة الخضراء، وأفلام حيوانات، وبرامج ألغاز، وأفلام الحركة، وخيال علمي، وأفلام بوليسية، ترك التلفاز دون صوت وذهب إلى طاولة مكتبه، في حين كانت محققة جنائية تحاول فتح باب قبو خلف ظهره كان ينظر في بعض أوراقه الموضوعة على الطاولة، فواتير تأمين، عقود هواتف، فاتورة ورشة تصليح السيارات، لم يرد ذكر اسمه في الاجتماع قُبيل ذلك، ولكن لماذا لا؟ اجتماع يضم سبعين شخصًا يُعرِّف كل واحد نفسه للآخرين، إنسانٌ لإنسانٍ، بدا له ذلك غريبًا، حتى وهو جالس إلى طاولته كان يهز رأسه متعجبًا، في حين كانت المحققة الجنائية تتحدث مع قزمة خلف ظهره، وهي تجثو على ركبتيها على الأرض وتبكي، بدا له أنه لو كان ذكر اسمه لكان ذلك بمثابة اعتراف، على الأقل اعتراف بأنه كان هناك، لم يرد مساعدة أحد، فهو لا يسكن بالقرب من المدرسة، كما أنه لا يعمل في حكومة المدينة، كان فقط يريد مشاهدة ما يحدث وأن يشاهد في هدوء، لم يكن ينتمي لأي مجموعة، واهتمامه كان خاصًا به وحده، ملكية خاصة، وكان إن صح التعبير اهتمامًا باردًا تمامًا، ولو لم تكن اهتماماته باردة طوال حياته العملية ما كان ليفهم كل ما فهم، ربما تعلقت محاولة التعرف على الموجودين في المدرسة بحالة الحرب التي كانت المدرسة تعيشها، ولكن ما أهمية اسم من الأسماء؟ من يريد أن يكذب يمكنه دائمًا الكذب، يجب أن يعرف المرء أكثر من الاسم بكثير وإلا فلا جدوى من كل

ذلك، وقف ريتشارد وذهب إلى الأريكة وهو يحتسي آخر رشفة من الويسكي وجلس برهة أمام التلفاز الصامت، كان شاب يمسك عجوزًا من تلابيبه ويدفعه نحو الجدار، وكان كلاهما يصرخ، ثم تركه الشاب، ذهب الآخر وظل الشاب يصرخ فيه وهو يبتعد، انتقل المشهد إلى مكتب المحققة، جدران زجاجية، ستائر معلقة، فناجين قهوة، أوراق وهكذا.

***

8

شاي إيرل جراي على الإفطار؛ باللبن والسكر؛ ومعه خبز بالعسل وخبز بالجبن، في المذياع „تنويعات جولدبيرج" لباخ، ألقى ريتشارد محاضرة قبل سنوات عن „اللغة بوصفها نسقًا رمزيًا"، الكلمات بوصفها رموزًا للأشياء، اللغة بوصفها بشرَة، ورغم ذلك بقيت الكلمات مجرد كلمات، ولم تكن يومًا الشيء نفسه، كان يجب أن يعرف المرء أكثر من الاسم بكثير وإلا فلا جدوى من كل ذلك، ما الذي يجعل السطح في الحقيقة سطحًا؟ ما الذي يفصله عما تحته، وعن الهواء؟

كان وهو صغير يزيل طبقة القشدة التي بدت كالبشرة من فوق اللبن الساخن، تلك البشرة التي كان يشمئز منها، في حين كانت قبل قليل لبنًا، مما يتم صنع الاسم؟ من أصوات؟ أو حتى ليس منها إذا كان مكتوبًا فقط؟ ربما لذلك كان يحب سماع باخ؛ لأنه لا توجد قشرة خارجية عنده، وإنما حكايات كثيرة متقاطعة في كل لحظة، ومن كل تلك التقاطعات يُخلق الشيء الذي يسمى عند باخ „موسيقى"، كل لحظة بمثابة قطع في اللحم، قطع في الشيء ذاته، انتوى حجز شراء تذكرة لحفل موسيقى عيد الميلاد في الكاتدرائية، لأول مرة بعد وفاة زوجته، رفع صحن الطعام الذي

أكل فيه، وألقى بالفضلات في القمامة، ثم أخذ المعطف، ولبس حذاءه البُنِّي الأكثر راحة لقدميه، يقولون لا تلبس البُنِّي أبدًا في المدينة، ولكنه لم يهتم لذلك، إذا وقعت وأنت تقفز بالفرس فعليك أن تركب مرة ثانية على الفور وإلا تسرب الخوف إلى عظامك للأبد، كما يقولون.

شعر بالأمس وهو في المدرسة المحتلة، بالخوف، إذَن فليطفئ الموقد والضوء ويأخذ مفاتيحه والبطاقة الشهرية لركوب المواصلات.

على أي حال، الذهاب إلى ميدان أورانين في النهار أسهل من زيارة مدرسة هجرتها كل الأرواح الطيبة، بعد سقوط جدار برلين بفترة قصيرة ذهب ريتشارد لأول مرة إلى كرويتسبيرج بصحبة زوجته، كانا يقومان في ذلك الوقت كل يوم أحد بنزهة في أحد الأحياء الغربية، كانا يقرآن في المساء الذي يسبقه في دليل المدينة ويتنزهان في صباح يوم الأحد، كان اللاجئون الهوجونوتيون المستوطنين الأصليين في الشوارع حول ميدان أورانين، حين كانت هنا ضاحية المدينة وفيها حدائق كثيرة كما يقولون، ثم قام ليني في القرن قبل الماضي بتصميم الميدان، كانت مازالت توجد هناك قناة، وكان الميدان شاطئها، والشارع الموجود حاليًا كان جسرًا، فيما بعد أرى ريتشارد حبيبته الميدان وشرح لها من يكون ليني، وكانت توجد ـ أيضًا - مكتبة على الناصية مباشرة، وسينما ومقهى جميل.

والآن يبدو الميدان وكأنه منطقة عمل، ساحة تمتلئ بالخيام والأكواخ والمآوي المصنوعة من الأغطية: بيضاء وزرقاء وخضراء، جلس على أريكة ونظر حوله وأخذ يسمع ما يُقال، لا أحد يسأله هنا عن اسمه، ماذا يرى؟ ماذا يسمع؟ رأى لافتات ولوحات مكتوبة عليها شعارات بخط اليد، رأى رجالًا سودًا ومتعاطفين بيضًا، كان السود يرتدون سراويل مغسولة حديثًا وسترات ملونة وقمصان مخططة وبلوفرات زاهية عليها كتابة ملونة، ولكن أين يمكن للمرء أن يغسل فيميدان مُحتل؟! أحدهم كان ينتعل حذاءً رياضيًا ذهبي اللون، هل هذا هيرميس؟ كان المتعاطفون ذوي بشرة بيضاء، وفي المقابل كانت ملابسهم سوداء وبالية، سراويل، تي شيرتات، بلوفرات، كان المتعاطفونشبابًا، وبشرتهم شاحبة، شعورهم ملونة بالحِنَّاء، ولايؤمنون بالعالم المثالي، وإنما يرغبون في أنيتغير كل شيء، ولذلك يضعون الحلقان في شفاههم وآذانهم أو أنوفهم؛ في حين كان اللاجئون يرغبون أولًا في الولوج إلى ذلك العالم الذي بدا في أعينهم مثاليًا بما يكفي، هنا في الميدان يتقاطع نوعا الرغبات والأماني، لكن المراقب الصامت يشك في عظم حجم ذلك التقاطع.

قبل أن ينتقل ريتشارد للعيش مع زوجته في الريف كانت لهما شقة في المدينة، تبتعد مائتي متر- بحساب المسار الجوي المباشر - من غرب برلين، وكانا يعيشان فيها في هدوء كالذي عاشا فيه بعد ذلك في الريف، ولكن جدار برلين جعل من شارعهما حارةً سدًا، لذا كان يلهو فيه الأطفال بأحذية التزلج، عندما بدؤوا

عام 1990 في إزالة الجدار شيئًا فشيئًا كان يقف مع فتح كل معبر جديد كثير من سكان برلين الغربية متأثرين ليرحبوا بإخوانهم وأخواتهم من الشرق، وفي أحد الأيام في التاسعة والنصف صباحًا رحبوا به والدموع تملأ عيونهم، ذلك الرجل القادم من برلين الشرقية، الذي سكن مصادفة ذلك الشارع، الذي كان مقسمًا لمدة تسع وعشرين سنة وهو في طريقه نحو الحرية، ولكنه شخصيًا لم يكن في ذلك الصباح في طريقه نحو الحرية تماما، وإنما إلى الجامعةوتحديدًا مع فتح هذا الجزء من الجدار أراد الوصول إلى المترو في موعده، حيث كان المترو على الجانب الغربي من الشارع، أخذ يشق طريقه في عجلة ودون اكتراث وسط جموع المتأثرين وهو يدفعهم بكوعه، وسمع أحد المُحَررين الذي خاب أمله فيه وهو يشتمه، ولكن ريتشارد استمر في طريقه وكانت المرة الأولى التي يصل فيها إلى الجامعة في أقل من عشرين دقيقة، كانت تلك الأريكة في المتنزه حتى قبل عام مضى مجرد أريكة عادية في متنزه يقع في كرويتسبيرج، كان المتنزهون يجلسون هنا ليجددوا طاقتهم ويستريحوا، أما القناة، التي كانت موجودة في عهد ليني، فقد قامت إدارة المدينة بردمها في عشرينيات القرن الماضي لما ينبعث منها من رائحة كريهة، هل ما زال الماء يسري بين حبات الرمل في الأعماق؟لم يعد الآن أحد يجلس هناك ليستريح، والسبب الذي دعا ريتشارد إلى ألا ينهض ليغادر على الفور هو أنه لم يأتِ ليستريح، الأمر البديهي في أن تجلس على أريكة في متنزه لم يعد بديهيًا بسبب

الأناس السود الذين يعسكرون في المساحة الخضراء خلف الأرائك، وسكان برلين الذين كانوا يعرفون في عهد ليني كيف يجب على المرء الجالس على إحدى أرائك المتنزه أن يتصرف، لم يعودوا يعرفون ذلك الآن: لم يعد هناك عجوز تطعم الحمام، ولا أم تؤرجح عربة الأطفال برفق هنا وهناك، لا يوجد طالب يقرأ، ولا ثلاثة من شاربي الخمر يعقدون اجتماعهم الصباحي هنا، ولا موظف يتناول طعام غدائه، ولا حبيبان يمسكان بأيادي بعضهما بعضًا، „تحوُّل المقعد" لعل هذا يكون عنوانًا جيدًا لمقال، ظل ريتشارد جالسًا، رغم ذلك، وكلما ظهرت „رغم ذلك" فإن خبرته كانت تقول له إن الأمر سيصبح شائقا، „ميلاد الرّغم ذلك" لعله عنوان جيد أيضًا.

الشخص الوحيد أبيض البشرة الذي بدا أنه يسكن الميدان ـ أيضًا - مثله مثل اللاجئين كانت امرأة نحيلة في منتصف الأربعينات، توضح لأحد الأتراك أين يمكن أن يوزع الخبز المفرود الذي يرغب في التبرع به، وبعدها بقليل تسلمت دراجة من رجل ملتح وأعطتها لأحد اللاجئين، وأخذ كلاهما ينظر للاجئ وهو ينطلِق سعيدًا بالدراجة، ثم قالت للرجل الملتحي إن اللاجئ لديه ـ أيضًا - رصاصة عالقة في الرئة، فأومأ برأسه، فقالت: „ليبيا"، فأومأ برأسه، ثم سكتا للحظة، وبعدها قال الرجل: „إذن سأعود مجددًا"، وأقبلت امرأة تحمل ميكروفونًا في يدها على المرأة النحيفة، فأخبرتها المرأة النحيفة أنها لا تجري أي حوارات صحفية حاليًا: „ولكن الأهم أن يقوم سكان برلين... ربما تعرفين

بالمفاوضات الجارية الآن حول مكان إقامة شتوي، لذلك فأنا.."، وفكر ريتشارد هل يبدو ربما كأحد المتسكعين، وهل يزعج السيدتين وجوده على بعد عدة أمتار وهو يجلس ويصغي لما تقولان؟، „وربما تعرفين أن العرض الذي قدمته حكومة برلين هو: 18 يورو لكل شخص في الليلة"، „نعم سمعت به".

ثم قالت المرأة النحيفة: „والرجل الوحيد الذي وافق على إعطاء بيت للرجال يطلب الآن ضعف المبلغ، ليتك تكتبين: أنه توجد هنا جرذان وأربعة دورات مياه فقط، وأحيانا تمر ثلاثة أيام دون وجبة طعام ساخنة؛ وتكتبين: في الشتاء الماضي سقطت الخيام بالفعل بسبب الثلج المتراكم فوقها، عندها أعدك أن الوحيد الذي سيسعده قراءة مقالك هو ذلك المستثمر".

فقالت الشابة: „حقًا! أفهم الآن.."، ثم أنزلتْ الميكروفون.

وفكر ريتشارد-كما كان يفكر كثيرًا في السنوات الماضية- في أن آثار ما يفعله المرء لا يمكن إغفالها تقريبًا دائمًا، وعادة ما تكون تمامًا عكس ما كان يريد المرء تحقيقه في الأصل، وكون هذا ما يجري هنا ـ أيضًا - فربما يعود، حسب ما رأى ريتشارد، إلى أن مشكلة حكومة الولاية مع اللاجئين هنا هي في المقام الأول مشكلة حدود، ولأن-بصياغة رياضيةـ العلامات تنقلب دائمًا عند الحدود، ولذلك فكر ريتشارد في أنه لا عجب إذن من أن كلمة „يعمل" ليست بأقل قرابة من كلمة „يبيع" منها بكلمة „يفعل".

ودون أن تشغل الميكروفون، ببساطة كإنسانة، سألت الشابة المرأة النحيفة: „ماذا يفعل الرجال هنا طوال اليوم ما دام غير مسموح لهم بالعمل؟".

فأجابتها المرأة النحيفة: „لا شيء"، ثم أضافت وهي تتحول عنها: „عندما يصبح اللاشيء سيئًا جدًا ننظم مظاهرة".

فقالت الشابة: „أفهم"، وأومأت برأسها للمرأة النحيفة وهي ترحل عنها.

ثم أمسكت بالميكروفون، وظهرها إليه، وهي تقف مباشرة أمام أريكته، دون أن تلاحظ أنه كان لديها مشاهد صامت طوال الوقت، وفي ذلك الوقت توجهت المرأة النحيفة إلى الخيمة المفتوحة التي تبدو أنها المطبخ، وفي طريقها رفعت حاملًا كان قد سقط وأحدث ثقبًا في إحدى الخيام.

شاهد ريتشارد رجلًا أسود يتوجه إلى آخر ويصافحه، ومجموعة من خمسة رجال يقفون معًا ويتحدثون وأحدهم يتحدث في الهاتف، ورأى الرجل الذي أُهدِيَتْ إليه الدراجة وهو يدور عليها حول الميدان، وينطلق بها أحيانًا فوق الطريق المغطى بالحصى في منحنيات بطريقة تشبه المغامرات مخترقًا المسافات بين الرجال الآخرين، ورأى ثلاثة رجال يجلسون في إحدى الخيام المفتوحة حول طاولة فوقها كرتونة مكتوب عليها:"تبرعات"، ورأى رجلًا كبيرًا في السن يجلس وحيدًاعلى مسند إحدى الأرائك،

وكانت إحدى عينيه مصابة، ورأى رجلًا ذا وشم أزرق على وجهه وهو يربت على كتف آخر ويرحل، ورأى أحد الرجال يتحدث مع إحدى المتعاطفات، ورأى رجلا آخر يجلس على أريكة في خيمة قد رُفع عنها الغطاء وفي يده هاتف ينقر على أزراره، ولم يرَ من الرجل الراقد على الأريكة المجاورة له إلا قدميه، ورأى رجلين يتناقشان بلغة لا يعرفها، وعندما ارتفع صوت أحدهما وضرب الآخر في صدره حتى أنه ترنح إلى الخلف اضطر قائد الدراجة أن يسير في نصف دائرة حولهما، ورأى المرأة النحيفة تتحدث إلى رجل يحمل وعاء في يده، ورأى المنزل الرائع الذي يقف عند تقاطع الطريق ويمثل الخلفية لكل ذلك، يمكن أن يكون ذلك المنزل قد شُيد في الوقت الذي كانت تجري فيه قناة المياه في نفس المكان الذي يجلس هو فيه الآن، وبدا وكأنه متجر قديم، ولكن اليوم يوجد مصرف في الطابق الأرضي منه، عندما كانت القناة تجري هنا كانت لدى ألمانيا مستعمرات، حتى قبل عشرين سنة كان يمكن أن تقرأ عبارة: „سِلع من المستعمرات"، مكتوبة بخط متعرج على بعض الواجهات في شرق برلين، كان ذلك قبل أن يبدأ الغرب في عملية التجديد، سِلع من المستعمرات وآثار إطلاق الرصاص من الحرب العالمية الثانية على نفس الواجهة، وربما -أيضًا- لافتة من الكرتون متبقية من العهد الشيوعي في نافذة عرض مُتربة في بيت تم إخلاؤه للتجديد مكتوب عليها: „فاكهة خضروات وبطاطس للطعام"، على نموذج الكرة الأرضية الذي يقف في غرفة مكتبه، مازال يوجد شرق إفريقيا الألماني،

ولكن الكرتون الذي يغطي الكرة الأرضية في مكتبه قد انكشف بعض الشيء فوق موضع خندق ماريانا، ولكن الكرة الأرضية مازالت تبدو رغم ذلك جميلة، لم يكن ريتشارد يعرف اسم شرق إفريقيا الألماني اليوم، هل كان يوجد في ذلك الوقت وفي ذلك المتجر - عندما كان هناك قناة تجري حيث يجلس ريتشارد الآن - عبيد للبيع ؟ ولعل الخدم السود كانوا يُحمَلون لمعاصري ليني الفحم إلى الطابق الرابع؟ عندما تصور ذلك ابتسم ساخرًا، ولكن عندما يجلس رجل كبير في السن وحده على أريكة في متنزه، ويبتسم هكذا، فقد يبدو ذلك بالنسبة للآخرين مريبًا، ولكن ماذا كان ينتظر؟ هل كان يعتقد فعلًا أنه بعد مرور عام كامل على إقامة هؤلاء الرجال لخيامهم في هذا الميدان يمكن تحديدًا اليوم، ذلك اليوم العادي الذي أتى فيه من إحدى ضواحي المدينة إلى هناك، أن يحدث شيء غير متوقع؟ لم يحدث شيء، وعندما بدأ بعد ساعتين ونصف يرتجف من البرد قام وعاد إلى البيت.

كان عادة عندما يبدأ مشروعًا ما لا يعرف ما يدفعه وكأن أفكاره لها حياة مستقلة وإرادتها الخاصة وكانت تنتظر فقط أن تدور بخلده أخيرًا، وكأن هناك تحقيق يجب أن يجريه قبل أن ترد بخاطره، وكأن الطريق، عبر ما عرف ورأى أنه قد حدث له وواجهه، كان في الحقيقة دائمًا موجودًا، وينتظر أن يسير فيه عندما يكون قد أصبح مهيئًا لذلك، وربما كان الأمر كذلك لأن المرء لم يكن أبدًا ليجد إلا ما هو موجود بالفعل؛ لأن كل شيء كان دائمًا موجودًا، وبعد الظهيرة قام لأول مرة بإزالة أوراق الأشجار

المتساقطة، وفي المساء قالوا في الأخبار إن المسألة أصبحت فقط مسألة وقت حتى يتم إيجاد حل للوضع غير المحتمل للاجئين في ميدان أورانين، سمع ريتشادر مثل تلك الجمل كثيرًا من قبل فيما يتعلق بكل الأوضاع غير المحتملة الممكنة، حتى فيما يتعلق بتحول أوراق الشجر مجددًا إلى طين، أو بالغريق الذي إما ألقته الأمواج إلى مكان ما أو تحلل جسده في البحيرة، كل ذلك من حيث المبدأ مسألة وقت، ولكن ما معنى ذلك؟ لم يكن يعرف حتى الآن ما إذا كان الوقت موجودًا كي يضع طبقات وطرقًا مختلفة بعضها فوق بعض؟، أم العكس تمامًا، كي يفصلها بعضها عن بعض؟، ولكن لعل مذيع الأخبار يعرف ذلك؟ غضب ريتشارد دون أن يعرف لماذا، بعد ذلك عندما دخل فراشه تذكر مقولة المرأة النحيفة: „عندما يصبح اللاشيء سيئًا جدًّا ننظم مظاهرة”. ـ وفجأة عرف لماذا جلس اليوم ساعتين في ميدان أورانين، كان يعرف بالفعل منذ سمع في أغسطس بالمضربين عن الطعام، أولئك الذين يرفضون ذكر أسمائهم، وعرف ذلك ـ أيضًا - بالأمس عندما دخل فناء المدرسة المظلم، ولكن الآن وفي تلك اللحظة تحديدًا، أصبح يعرف فعلًا، ربما يكون أفضل من يمكنه الحديث معهم عما هو الوقت أولئك الذين سقطوا من داخل أنفسهم، أو ربما الذين حُبسوا بداخلها، كان بجواره على النصف الثاني المُغطى من السرير، حيث كانت زوجته تنام دائمًا، كانت بعض البلوفرات والسراويل والقمصان، التي ارتداها في الأيام الماضية ولم يحملها إلى أماكنها، لا تزال قابعة.

***

9

استغل ريتشارد الأسبوعين التاليين في قراءة بعض الكتب عن الموضوع وفي إعداد أسئلة الاستبيان التي يريد طرحها على اللاجئين في أثناء الأحاديث التي ينتوي إجراءها معهم، كان يبدأ العمل بعد الإفطار، ويتناول الغداء في الواحدة، ثم ينام ساعة، ثم يعود ليجلس إلى طاولة مكتبه أو يقرأ حتى المساء في الثامنة أو التاسعة، كان من المهم أن يطرح الأسئلة الصحيحة، والأسئلة الصحيحة ليست بالضرورة تلك التي يتفوه بها المرء.

لاستكشاف ذلك الانتقال من حياة يومية ممتلئة بالأحداث وواضحة إلى حياة اللاجئ اليومية المفتوحة في كل الاتجاهات، التي تعصف بها الريح بنفس الدرجة دائمًا، كان عليه أن يعرف ماذا كان في البدء؟ وماذا كان في الوسط؟ وما هو عليه الأمر الآن؟ لعل ذلك الانتقال يكون واضحًا هنا، حيث تُتاخم حدود حياة إنسان حدود حياة أخرى لنفس الإنسان، والذي هو إن دققنا النظر لا شيء في حد ذاته.

أين نشأتَ؟ ما هي لغة الأم الخاصة بك؟ ما هو الدين الذي تعتنقه؟ كم عدد الأفراد الذين كانت عائلتك تتكون منهم؟ كيف

كان شكل الشقة أو المنزل الذي نشأت فيه؟ كيف تعرف والديك بعضهما علىبعض؟ هل كان لديكم تلفاز؟ أين كنت تنام؟ ما كان طعامك؟ أين كان مكان الاختباء المفضل في طفولتك؟ هل ذهبت إلى المدرسة؟ ما هي الملابس التي كنت ترتديها؟ هل كانت لديكم حيوانات منزلية؟ هل تعلمت مهنة؟ هل لديك أسرة خاصة بك؟ متى غادرت الوطن؟ ولماذا؟ هل مازلتَ على اتصال بعائلتك؟ ما هدف رحيلك؟ كيف كان الوداع؟ ماذا أخذت معك عندما رحلت؟ كيف كنت تتصور أوربا؟ ما المختلف؟ كيف تقضي أيامك؟ ما أكثر ما تفتقد؟ ماذا تتمنى لنفسك؟ إذا كان لديك أطفال سينشؤون هنا فماذا ستحكي لهم عن الوطن؟ هل يمكنك تصور أن تعيش حتى تكبر هنا؟ أين تحب أن يدفنوك؟

10

وفي أحد الأيام التي كان ريتشارد يقضيها بين طاولة مكتبه وبين مقعد القراءة تمت إزالة الخيام والأكواخ في ميدان أورانين، وقاموا بتوزيع اللاجئين على مؤسسات خيرية مختلفة في المدينة وعلى حوافها، بعد أن أعلنت تلك المؤسسات استعدادها لاستقبال اللاجئين؛ لأن درجة الحرارة أصبحت تهبط في بعض الليالي إلى ما دون العشرة درجات تحت الصفر، ولكن ريتشارد لم يلاحظ شيئًا من ذلك لانشغاله في ذلك اليوم باستيلاء التاجر لوديريتس على الأراضي الواقعة على الساحل الجنوب غربي لإفريقيا، تزوج السيد لوديريتس بعد إفلاسه الأول في المكسيك زيجة غير مكلفة، ثم تواصل مع رجل كان يقوم بالتبشير في ساحل إفريقيا الغربي، وقد أشار عليه ذلك الرجل بشراء قطعتي أرض، إحداهما بمائة جنيه إسترليني ومائتي بندقية، والأخرى بخمسمائة جنيه وستين بندقية، وقد حسب مساحتهما بالأميال الألمانية المربعة التي كانت أطول من الأميال الإنجليزية التي كان يحسب بها زعيم القبيلة هناك، كان من الجيد مدّ حزام يصل إلى المحيط الهندي، ولكن الرايخ الألماني لم يرغب في البداية في حماية سور حديقة لوديريتس، ولكن عندما احتل البريطانيون بعض الموانئ هناك؛

لهم رأوا أن ذلك يسير بسهولة، أرسل بيسمارك سفينتين ذاتا مدرات حربية، ومنذ ذلك الحين أصبحت قطعتا الأرض الخاصتان بالتاجر لوديريتس تسميان:"مستعمرة"، وأصبحتا تحت حماية الدولة، ظل ريتشارد يهز رأسه مستاء من طريقة التصرف الألمانية تلك حتى وهو يتناول طعام العشاء، هل هزُّ الرأس إشارة لشيء ما؟ ولكن لمن عندما لا يكون هناك أحد سواه؟ يجلس فوق حجر ويطيح برأسه، سيذهب غدًا -ولأول مرة - إلى اللاجئين ومعه استبيان.

حضر في اليوم التالي في الوقت المناسب إلى الميدان الذي أغلقته الشرطة وأحاطت به كي يشاهد كيف يزيح بلدوزر ما تبقى من ألواح الخشب والأكواخ والمراتب وألواح الكرتون ويحملها فوق سيارة نقل لتحملها بعيدًا، لم يبقَ سوى امرأة إفريقية تجلس فوق شجرة هناك، فقد كانت على ما بدا ترفض مغادرة الميدان، إلا أن المجموعة المكلفة بإخلاء المكان وكذلك الشرطة لم يكترثوا لا بالشجرة ولا بتلك السيدة، دون ذلك لم يكن هناك أحد من اللاجئين، وعندما ظهرت الأرض مجددًا بعد إزالة ما عليها من خيام وأكواخ ظهرت الأنفاق التي كانت تستخدمها الجرذان التي كانت على ما يبدو تستفيد من الأطعمة التي يخزنها اللاجئون دون حماية كافية، فكر ريتشارد في مدينة جيشوف، شرح له أحد رجال الشرطة أن اللاجئين قد ساعدوا بأنفسهم في إزالة الأكواخ، فقد كان ذلك جزءًا من الاتفاق مع حكومة ولاية برلين، أي اتفاق؟ ولكن للأسف لم يكن بمقدور الشرطي أن يخبره، وأين اللاجئون

الآن؟ تم توزيعهم على ثلاث مؤسسات، واكتشف ريتشارد أن إحداها كان في إحدى الضواحي بالقرب من منزل ريتشارد، كان يعرف ذلك البناء المُشيد من الطوب الأحمر، ذا النوافذ المتربة الذي يمتلكه بيت المسنين ويقف خاليًا منذ سنتين.

وفي طريقه إلى البيت كان الصوت الذي ينطلق إلكترونيًّا يحذر عند كل محطة من الفجوة بين عربة المترو وبين الرصيف، كالمعتاد، وكالمعتاد كان ريتشارد يفكر دائمًا في أنهم لا يقومون بذلك من باب الاهتمام، بل كي تضطر شركة التأمين لدفع تعويض فعلًا إذا مات أحد الركاب.

إذن فالأفارقة يسكنون الآن في بيت المسنين، ولمَ لا، طالما هناك مبنى خاوٍ؛ ثم نزل من المترو وتوجه إلى البيت.

***

11

في اليوم التالي كان يوجد احتفال صاخب بيوم الوحدة الألمانية في اتحاد الصيادين، وكان ريتشارد يفتح أخيرًا الكراتين التي أحضرها من المعهد والتي كانت لا تزال في القبو مغلقة، وبدأ في توزيع الكتب، واحتاج لذلك اليوم التالي والذي بعده، وفي عطلة نهاية الأسبوع قام بتقطيع الكراتين إلى أجزاء ووضع ألواح الكرتون -بعد ذلك في ليلة عيد ميلاد جمهوريتنا، يوم العيد في أكتوبر سابقًا- في صندوق القمامة الأزرق المخصص للورق، وفي يوم الإثنين خرج بسيارته ليتسوّق ثم عاد إلى بيته، منذ سنوات كان يتساءل كلما مر ببيت المسنين إذا كان هذا سيكون المكان الذي سيقضي فيه فترة ليلة حياته، كما يقولون؟ ولكن كلمة „ليلة حياته" لم تكن موجودة أصلًا، ولأنه لم يجد مكانًا في البرادة للسلاطة فقد وضعها على البلاط البارد في الغرفة الأمامية.

وأخيرًا في صباح يوم الثلاثاء أخذ معطفه ولبس حذاءه البني، أكثر أحذيته راحة، وأطفأ الموقد والضوء، وأخذ المفتاح، كانت المسافة عشرين دقيقة سيرًا على الأقدام.

وفي مدخل بيت المسنين قال لموظفة الاستقبال إنه يرغب في الحديث إلى اللاجئين، فسألته من أين يأتي؟ فقال: „من البيت"، فأخبرته بأنها لا تعني ذلك، بل من أي مؤسسة؟ فقال لها إنه لم يأتِ من أي مؤسسة وإنما من اهتمام شخصي.

- „هل ترغب في التبرع بشيء؟".

- „لا".

فقالت له: „إن ذلك الأمر ليس بهذه البساطة".

كان بإمكانه الرؤية عبر لوح زجاجي غرفة الإفطار في مقر إقامة الكبار، كما أصبحوا اليوم يسمون بيت المسنين، كان كبار السن يجلسون كل أربعة حول طاولة، تطوِّقُ أعناق بعضهم المرايل، وآخرون يجلسون في كراسي متحركة.

أنا أستاذ في جامعة هومبولد، قسم علم اللغات القديمة، كرر ريتشارد هذه الجملة كثيرًا في حياته، وقد أصبح الآن أستاذًا متفرغًا، لكن كان عليه أولًا أن يعتاد على ذلك، كان ريتشارد قد حصل على ألقابه العلمية في الشرق، وقد تم الاعتراف بها في الغرب، إلا أن معاشه التقاعدي كان مثله مثل كل من كانوا أساتذة في العهد الشرقي أقل مما يحصل عليه أساتذة الغرب، العهد الشرقي، كلمة مركبة مثيرة للاهتمام: أن تتم تسمية الزمن تبعًا للاتجاه الجغرافي، والآن أصبح الغرب هو كل وقت وكل اتجاه سواء في المدينة أو الدولة.

- „رغم ذلك تحتاج إلى موعد مسبق".

فسألها: „مع اللاجئين؟".

- „لا، أولًا مع مدير النُزُل".

كان يسعده دائمًا أن يرى كيف يولد سؤال جديد، ظهور اللاجئين هنا في الضاحية يُعد حدثًا، وفكر في أن النظام يولد من الخوف، من الغموض والحذر، ذهب ليتنزه في متنزه القصر طوال الساعة والنصف التي كان عليه قضاؤها وهو ينتظر، أوراق أشجار تسبح فوق جدول المياه، وبين الأوراق بجع وبط.

استقبله مدير النُزل في مكتبه وقال: „ماذا تريد تحديدًا

من الرجال؟".

- „أعمل على مشروع بحثي".

فقال: „إذن الأمر كذلك!"، وشكره على بطاقة التعارف التي مد الأستاذ المتفرغ يده بها عبر الطاولة.

ذكر المدير اتفاقية دبلن الثانية، وتحدث عن الترحيل واحتجاز الترحيل وقانون تنظيم اللجوء، وسأل زائره ما إذا كان يعرف ما تعنيه كلمة „لقب الإقامة"؟

„لقب؟" لم يكن الأستاذ يذكر لقبه تقريبًا إلا كي يضفي

[illegible] [illegible] أمر يريده، تمامًا كما فعل قبلها وهو يتحدث إلى „موظفة الاستقبال، ودبلن؟ سافر مرة مع زوجته لممارسة رياضة التجول في الغابات هناك، وكان ذلك بعد سقوط الجدار بأربع أو خمس سنوات، نباتات الخلنج، أغنام، وكثير من الأمطار، وعند الإفطار جلس معهما - إلى نفس الطاولة - عدد من مواطني جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وكانوا مثلهم يبحثون عن العزلة وعما يألفون ولم يعد موجودًا في وطنهم، شيء يشبه جانب السور الذي يقل فيه هبوب الريح.

ثم قال المدير جملًا كثيرة، كانت تشبه تقريبًا: „يسكن الرجال لدينا بصورة مؤقتة فقط، الغرف لا تفي بشروط حل طويل المدى، في الحقيقة كان يجب أن يكون المكان هنا منطقة عمل، كان من المفترض أن يعاد بناء المبنى، عدد المطابخ أقل من المطلوب، كما لا تكفي الحمامات للجميع، فضلًا عن أن شغل الغرف ليس مثاليًا، بكل ما فيها من مراتب".

فقال الزائر: „ليس هذا ما يعنيني".

- „فقط كي تفهمني جيدًا، لقد قبلنا لأنه لم يعلن أحد آخر عن استعداده".

فقال الزائر: „أنا لست صحفيًّا".

- „نعم، بالتأكيد".

ثم سكت الاثنان لبرهة.

- „هل أراد الرجال مغادرة ميدان أورانين؟".

- „هذا سؤال صعب".

- „أفهم".

وبعد لحظات قصيرة أخرى لم يقل فيها أحد شيئًا، أومأ المدير برأسه وقال: „إذن فلنبدأ".

12

كان المبنى المقام من الطوب الأحمر، حيث يسكن اللاجئون، مغلقًا، من الداخل، فتح لهما الباب رجل يرتدي زيًّا رسميًّا أزرق اللون، وكان رجل آخر يرتدي -أيضًا- زيًا رسميًا يجلس في الغرفة الأمامية وراء طاولة مكتب قديمة.

قال المدير: "سيحتاج رجال الأمن الاطلاع على بطاقة التحقيق الشخصي في كل مرة تدخل فيها إلى المبنى".

- "حسنًا".

يتعلق الأمر بالحماية من الحرائق، يجب أن نعرف في كل وقت عدد الأشخاص المتواجدين في المبنى.

فكر ريتشارد في أن كلمة "حسنًا" تعني بالروسيةWsjo w porjadkje، ولكنه أومأ برأسه فقط ومد يده بتحقيق شخصيته للرجل، كانت المادة المصنوع منها القشرة الخشبية التي تغطي الطاولة تُسمى قديمًا سبيرلاكارت، وربما تكون الطاولة قد جاءت من مكتب التضامن الشعبي أو من مكتب إدارة الدائرة لحزب الوحدة الاشتراكي الألماني.

أصبح مسموحًا لهما المرور بصاحب الزي الرسمي والاتجاه ناحية اليمين إلى الردهة التي تؤدي إلى الدَرج، مرًّا بغرفة بابها مخلوع من مكانه وكانت فيها طاولة بلياردو وبعض الكراسي ذات الأذرع، وثلاثة شباب سود البشرة يجلسون عليها وفي يد كل منهم عصا بلياردو، ولكنهم لم يكونوا يلعبون ولا يتكلمون، ولم ير ريتشارد على الطاولة أية كرات.

ضوء مصباح نيون، ألواح زجاج مصنفر، ويحيط بالدرج سور أخضر من الجبس، وزينة يدوية مصنوعة يدويًا، وكان اللون مقشرًا في بعض المواضع.

كان الطابق الأول خاليًا لعدم وجود مياه، كما أوضح له المدير. وفي الطابق الثاني اتجها إلى ردهة جهة اليمين، فيها أبواب على الجانبين، وعلى الارتفاع الذي يمكن للكراسي المتحركة أن تصطدم فيه بالجدار كان يوجد لوح خشبي مثبت بين الأبواب.

- "هل الرجال موجودون في تلك الساعة هناك؟".
- "دائمًا يوجد أحدهم".

على الأبواب كانت لا تزال أسماء كبار السن الذين سكنوا هنا في السابق، هل ماتوا بالفعل؟ أم تم نقلهم إلى مكان آخر؟

وأمر آخر: مسموح للرجال بمغادرة البيت، حسب قول المدير، ولكن من الأفضل الحديث معهم هنا.

- ”هذا يناسبني أيضًا“.
- ”أود فقط أن أعلم أي لغات يتكلمون؟“.
- ”الإنجليزية والروسية، ولكن لا يسير الأمر هكذا هنا“، هز المدير رأسه وأضاف: ”والإيطالية أيضًا“.
- ”عظيم، فلنبدأ هنا“.

دق المدير أحد الأبواب وفتحه دون أن ينتظر الرد، تمامًا كما يفعل الطبيب أو الممرض في المستشفى، وتمامًا كما هو الحال في المستشفيات؛ رأى الزائر عددًا من الأسِرَّة وعليها أغطيتها؛ وكان على بعضها رجال راقدون، وكانت أسِرة أخرى خالية، وفي الخلفية كان يقف رجل مستندًا إلى الجدار وفي أذنيه سماعات يسمع من خلالها الموسيقى، وعلى المرتبة الموضوعة في الأمام على مقربة من التلفاز يجلس رجل ضخم وبجواره ثلاثة آخرون، أراد ريتشارد لو غادر المكان مرة أخرى، ولكن المدير كان بالفعل يقدمه لهم: ”أستاذ جامعي، حوارات من أجل مشروع، بعض الأسئلة“، كان التلفاز يعرض برنامجًا عن صيد الأسماك، أسماك في شباك ورجال بملابس برتقالية اللون مضادة للبلل، قوارب وسط العاصفة وكثير من الماء، هل يعرف الرجال هنا أساس ما يعنيه: أستاذ جامعي؟ رأى ريتشارد حقائب سفر تحت الأسرة، وأزواجًا من الأحذية مرصوصة تحت النافذة، بعض الراقدين كانوا ملتحفين بالأغطية في سكون دون حركة وكأنهم مومياوات، أومأ له الرجل الضخم الجالس على السرير أمام التلفاز وقال: لا توجد

مشكلة No problem.

فقال المدير: „إذن أترككما الآن وحدكما.."، ثم ودعهما.

كان الرجل يرتدي تي شيرت أحمر عليه كتابة غير واضحة بعرض جسمه، فكر ريتشارد في أن هذا الرجل الضخم دليل على أن حال اللاجئين ليس سيئًا بالدرجة، أومأ الرجل له برأسه ثم رتب ألواح السرير ودعاه للجلوس، في الحقيقة يجب ألا يجلس المرء بسروال الشارع على سرير مفروش، ولكن لم تكن هناك كراسي، هل توجد كلمة سروال الشارع في قاموس الأخوين جريم؟ صيد الأسماك عمل صعب وخاصة في الشتاء، عرفه الرجل القوي، الذي يتخذ القرارات هنا على ما يبدو، بنفسه: اسمه رشيد، وهذا زعير، وهذا عبد السلام، والطويل اسمه إيتيمبا، وهو؟ اسمه ريتشارد، ويشكرهم على استعدادهم الحديث معه، ثم أخرج قائمة أسئلته.

بعد ذلك كان مدونًا في سجل ملاحظاته: شمال نيجيريا مسلم، وجانبه مسيحي، هرب المسيحيون من كادونا عندما تم تطبيق الشريعة، كادونا؟ اللغات هناك كانت اليوروبية والهوسية. - اليوربية؟ الهوسية؟ كان معظم المنتمين لشعب اليوروبا مسيحيين، كان رشيد من اليوروبا ولكنه كان مسلمًا، ولكن لم يكن كل من يتقنون الهوسية كذلك، تُستخدم لغة الهوسية وتُفهم في غانا والسودان والنيجر ومالي أيضًا، ومعظمهم يفهم العربية أيضًا، كان كل الرجال في تلك الغرفة من نيجيريا، ولكن من مناطق

مختلفة، أتى رشيد من الشمال، وليس من الساحل مثل عبدالسلام على سبيل المثال، نيجيريا لديها ساحل؟ ولد زعير بالقرب من أبوجا، أبوجا؟ العاصمة، كانت توجد - أيضًا - غرفة غانا، غرفة الزنوج، وهكذا، قال رشيد: „هكذا قسمنا الخيام -أيضًا- في ميدان أورانين، فهذا أفضل للتفاهم، أي أننا هنا في الغرفة 2017 نكون في نيجيريا، إن صح القول، نعم، إن صح القول"، أحد النائمين كان يصدر عنه الآن صوت شخير مرتفع جدًا، ولكن لم يكن أحد الباقين يضحك لذلك أو يلاحظه أساسًا، كان الرجل الضخم، رشيد، وزعير، الجالس بجواره، في نفس القارب، ما هي أنواعٍ النباتات في بلدهم؟ هل كانت لديهم حيوانات منزلية؟ هل تعَلّموا مهنة؟ عندما اقترب حرس السواحل الإيطالي لالتقاط اللاجئين هرعوا جميعًا إلى أحد جانبي القارب لذلك انقلب، انفتح الباب ونظر رجل أسود إلى الداخل، وقال شيئًا بلغة لم يفهمها الزائر، ربما بالهوسية، وتلقى ردًا، ثم رحل مرة أخرى، هل زرتم المدرسة؟ رشيد لا يستطيع السباحة، أمسك بأحد الأسلاك وظل هكذا فوق سطح الماء، زعير أيضًا لا يتقن السباحة، لذلك تسلق الجانب المرتفع عن المياه عندما انقلب القارب وأنقذوه من هناك، ماذا كان مكان الاختباء المفضل لهم في طفولتهم؟ ولكن 550 من 800 قد غرقوا، كان التلفاز يعرض الآن أسماكًا فوق خط تشغيل وأيدي نساء في قفازات مطاطية تمتد إليها لتحولها عن طريق سكاكين كبيرة إلى سمك مخلي، في هامبورج التقى رشيد وزعير مرة أخرى، وتعرفا بعضهما على بعض فورًا، الرجل النائم

كان ما زال يشخر، كانوا على نفس القارب؛ غرق 550 من 800، فقد رشيد اهتمامه بمعرفة طريقة تصنيع الأسماك، ولذلك قال: „هل يتذكر أحدكم أغنية؟”، أغنية؟ لا، هذا لا يتذكر، وذاك لا يتذكر، والآخر لا يتذكر، ولكن عبد السلام يتذكر، رفع رأسه قليلًا لأول مرة، وكان لم ينطق بكلمة حتى تلك اللحظة، ربما كان خجلًا لأنه أحول، ثم خفضوا صوت التلفاز تلبية لطلب ريتشارد ، نظر عبد السلام لأسفل مرة أخرى، إلى يديه، وبدأ يغني.

يعرف كل الناس تلك الأغنية في نيجيريا، „مهرجان أيو” على جزيرة لاجوس، لاجوس؟ وضع إيتيمبا، الطويل، شاشة هاتفه المكسورة أمام ريتشارد ليريه صورة: قبعات بيضاء، وملابس بيضاء تصل إلى الأرض، لحى بيضاء، وشبكات أمام الوجوه، هكذا تقوم الأشباح بتشييع ملكهم الذي مات إلى مثواه الأخير، كان بعضهم يقفز هنا وهناك، وينحني في الصورة إلى قرابة نصف المتر من الأرض، وكأنه جاء من الهواء ويريد الآن الهبوط على الأرض، كانت الأشباح تعلن يوم الأحد بالقبعات السوداء عن موكب يوم الأحد التالي، ويوم الإثنين بالقبعات الحمراء، والثلاثاء بالقبعات الصفراء، والأربعاء بالخضراء، والخميس بالبنفسجية.

سأل ريتشارد: „وماذا تفعلون إذن طوال اليوم هنا؟”، وكان ما زال ينظر إلى الشاشة المكسورة ويهز رأسه، وشعر ريتشارد بسعادة لأنه طرح سؤاله بالإنجليزية التي لا تُميز بين صيغة „حضرتك” وبين صيغة „أنت” في المخاطبة، وذلك على خلاف

الألمانية، ربما يكون يخاطب الرجال فعلا بـ"حضرتك" ولكن خلف ستار الكلمة الإنجليزية You يفكر في سرِّه بالطريقة الألمانية ويقول «أنت»، ولكن لماذا؟ إنه لم يخاطب حتى طلابه أبدًا بـ»أنت»، وأخيرًا قال رشيد، الرجل الضخم: «نريد أن نعمل ولكننا لا نحصل على تصريح عمل»، فقال زعير: «هذا صعب، صعب جدًا»، ثم قال الرجل الطويل، إيتيمبا: «كل يوم يشبه الآخر تمامًا»، قال عبد السلام وهو ينظر إلى أسفل: «نفكر ونفكر لأننا لا نعرف ماذا سيحدث»، أراد ريتشارد فعلًا أن يقدم لهم إجابة، ولكنه لم يجد، وبعد مُضي أقل من ساعة على إنصاته لهم كان ريتشارد يشعر بإرهاق أكبر مما كان يشعر به بعد إلقاء محاضراته في الجامعة، عندما يسقط عالَم كامل على رأس المرء وهو لا يعرف عنه شيئًا فأين عساه أن يبدأ في تصنيفه وترتيبه؟ قال لهم إن عليه أن يغادر ولكنه سيعود مجددًا، وأن لديه الوقت كي يستمع إلى كل شيء في هدوء.

بعد أن أغلق الباب خلفه، استدار لينظر إلى رقم الغرفة، كان على بابها الأخضر رقم 2017، ثالث غرفة من اليسار، وبعده توجد ستة أو سبعة أبواب خضراء أخرى؛ وإلى اليمين نفس الشيء، وفي النهاية، حيث تتجه الردهة إلى اليمين كانت توجد نافذة تطل على جدار ملصق عليه ورق حائط بني اللون، وعلى حافة النافذة ثلاثة أزواج من الأحذية الموضوعة بانتظام، في تلك اللحظة فقط التفت إلى أن المصباح النيون الذي يضيء الردهة يومض.

13

عندما حضر ريتشارد في اليوم التالي شرح له موظف الأمن أن أحد المشرفين سيحضر في الحال ليصطحبه إلى أعلى، إذ لا يُسمح له بدخول المبنى وحده، حسنًا: Wsjo w porjadkje، مكث اللاجئون عامًا ونصفًا في وسط المدينة، وكان بإمكان الجميع التحدث إليهم، حتى هو، حتى قبل عدة أسابيع، عندما كان يجلس على أريكة المتنزه، ولكن بدءًا من اللحظة التي وقعوا فيها على اتفاق أصبح لزامًا على المرء أن يدير شؤونهم، الهندسة البيروقراطية، كان ريتشارد قد قرأ هذا المصطلح قبل أيام في كتاب أحد المؤرخين عن تأثيرات الاستعمار، تم خنق المُستعمَرين عن طريق البيروقراطية، وهذه طريقة ماكرة للحيلولة بينهم وبين العمل السياسي، أم أن الهدف كان حماية الألمان الأخيار من الألمان الأشرار؟ حماية شعب الشعراء من أن يصبح اسمه مجددًا: شعب القتلة؟ قرأ ريتشارد تعليقًا على الإنترنت لم يذكر صاحبه اسمه تعليقًا على مقال في إحدى الصحف عندما كان الميدان مُحتلًا من قِبل الأفارقة يقول فيه: يمكن أن يسقط ببساطة أحد مواقد غاز البروبان الموجودة في الخيام في ميدان أورانين، فهل قامت الحكومة بتأمين الأفارقة؟ أم بتأمين نفسها؟ إذا كان آخر

ما سبق هو الهدف فإن تسكين اللاجئين في مكان أفضل لم يكن سوى قناع، وماذا وراءه؟ ما هو الفعل الحقيقي وراء ما حدث؟ من يخادع من؟ كان يمكن أن يكون ريتشارد، أو أي شخص آخر، هو صاحب موقد طهي الطعام؟ بالتأكيد لم يعرف الأفارقة تمامًا من كان هتلر، ولكن: إذا تغلبوا الآن على ألمانيا يكون هتلر قد خسر الحرب فعلًا.

كانت المشرفة التي جاءت لتصطحبه إلى أعلى سيدة جميلة ومتقدمة في السن، مرًّا بحجرة البلياردو التي كانت فارغة هذه المرة، ثم الدرج والسور الأخضر المصنوع من الجبس، والضوء الخافت، والضوء الذي يومض في الردهة، والأبواب خضراء اللون، دقت المشرفة باب الغرفة رقم 2017، وبنفس الطريقة دون أن تنتظر رد فعلت كما فعل المدير عند زيارة ريتشارد الأولى، في الغرفة 2017 كان يرقد هذه المرة -أيضًا- بعض الأشخاص في أسرتهم، ربما كان من بينهم رشيد، زعير، إيتيمبا وعبد السلام، لم يكن ريتشارد قادرًا على التعرف عليهم من مكانه، على أي حال كان التلفاز مطفئًا ولم يلتفت أحد للباب المفتوح.

أغلقت المرأة الباب مرة أخرى وانتقلت إلى الغرفة 2018، حاولت فتح الباب ولكنه كان مغلقًا بالمفتاح.

طرقت باب الغرفة 2019 وفتحته، إلى اليسار كان يوجد فراش يجلس عليه رجل ويكتب، أليس هذا الرجل الذي رآه ريتشارد في

ميدان أورانين على الدراجة؟ شاب له ضفائر شديدة التجعيد، عندما سألته المشرفة إذا كانت لديه رغبة في الحديث مع "البروفيسور" ألقى برأسه إلى الخلف قليلًا تعبيرًا عن الموافقة، وكأنه حصان عنيد، وضع الورقة التي امتلأت بالكلمات الألمانية بجانبه على السرير، وفوق رأسه كانت لوحة معلقة إلى الجدار تعرض قائمة بالأفعال غير القاعدية: ذهب، يذهب، ذهابًا، فقط عندما سحب ريتشارد الكرسي الوحيد في الغرفة ليجلس عليه لاحظ أن هناك أشخاصًا يرقدون في السريرين الآخرين تحت أغطيتهم وينامون، عندما لاحظت المشرفة تردده قالت: "لا ضير"، ثم أومأت برأسها وخرجت، لا ضير إذن، شعر ريتشارد للحظة بالصدمة من أن هؤلاء الشباب يبدون هنا فجأة كالكهول، الانتظار والنوم، وجبات طعام، ما دامت النقود تكفي لها، عدا ذلك الانتظار والنوم.

- "من أي البلاد أنت؟".

مجددًا واجهته مشكلة المخاطبة بـ"أنت"، ربما تكون سِنُّهُ السبب في ذلك، فحفيده يمكن أن يكون مكان ذلك الشاب، وكان الشاب يبدو تمامًا كما تصور دائمًا أبولو.

أجاب الشاب بالإيطالية: Del deserto، أي من الصحراء.

زار ريتشارد مع زوجته عددًا من دورات اللغة في توسكانا، كانت أولاها في العطلة الصيفية التي أعقبت بناء جدار برلين،

حُبًا في دانتي.

- „لماذا تعلمت الإيطالية؟".

درسناها لمدة سنة، في المعسكر. ـ ولكن الشاب قال كلمة معسكر بالألمانية.

- „في لامبيدوسا؟".

- „لا بعدها، في صقلية".

تذكر ريتشارد المعابد الإغريقية في أجريجنتو، وتذكر الرجل على الدراجة الذي خطف من زوجته حقيبة يدها، وكأنه في ديوراما تشمل 2500 سنة، كان ريتشارد في العصر العتيق وفي عهد الرأسمالية في الوقت ذاته، ثم كرر سؤاله: „من أي البلاد أنت؟"

- „من الصحراء".

تمنى ريتشارد لو كان يعرف مساحة الصحراء بدقة.

من الجزائر؟ السودان؟ النيجر؟ مصر؟

ولأول مرة فكر ريتشارد في أن الحدود التي وضعها الأوروبيون لا تعني الأفارقة في الحقيقة تمامًا، عندما بحث مؤخرًا عن العواصم رأى مجددًا تلك الخطوط المستقيمة في الأطلس، ولكن الآن فقط اتضح له مدى اعتباطية تلك الخطوط.

- „من الصحراء، حسنًا".

ابتسم الفتى بسبب ريتشارد وقال: „من النيجر".

إذن فهذه غرفة النيجر، ولكن أي الشعوب تعيش في النيجر؟ سأل ريتشارد:

- „هل أنت ـ أيضًا – من اليوروبا؟"

- „لا، من الطوارق".

ومجددًا كان عاجزًا عن المعرفة، طوارق؟ هذه ماركة سيارة، سمع مرة أن الرجال هناك يضعون شالًا أزرقا، وماذا أيضًا؟

- „الأب؟ الأم؟"

- „لا، لا يوجد والدان".

- „لا يوجد والدان؟!"

ألقى الشاب برأسه إلى الخلف، يمكن أن يعني ذلك نعم أو لا.

- „أليست لديك عائلة؟"

سكت الشاب، ولماذا يضطر أن يخبر رجلًا غريبًا أنه لا يعرف لماذا لم يكن لديه أبدًا والدان، يوجد في الصحراء مكان واسع، إذا عرف المرء كيف تتحرك الكثبان الرملية، فسيتمكن من التعرف على الرمال تحت الرمال مرة أخرى، وأنه لا يعرف إذا كان والداه ما زالا حيين، وقت ولادته كانت توجد معارك، ربما كانت أمه أو

أبوه أحد من دفنهم الجنود النيجيريون أحياءً تحت الرمال، أو قطعوهم إربًا، أو أحرقوا أحياءً، كان البعض هنا وهناك يحكي مثل تلك القصص، وربما خُطِف من والديه، على أي حال كان يعمل بالسخرة منذ وعى وجوده، كان يرعى الجمال، الحمير، الأغنام، منذ الصباح وحتى المساء، وهل عليه أن يُرِي غريبًا الندبات، التي خلفتها ضربات تلقاها مما تُسمى عائلة، في رأسه وذراعيه؟ أرادوا ضربه حتى الموت، لم يكن له أصدقاء إلا الحيوانات.

قال الشاب: „عندما تضطر الأم أو الأب للخروج إلى العمل يبقى المرء عند العمة".

فقال ريتشارد: „أفهم".

أحد النائمين تقلب على جنبه الآخر وشد حوله الغطاء أكثر.

- „ما اللغة التي كُنت تتحدثها في وطنك؟"
- „التماشقية".
- „هذه لغة الطوارق؟"
- „نعم".
- „أتفهم الهوسية أيضًا؟"
- „نعم".
- „والعربية؟".

- „نعم".

- „والفرنسية؟"

- „نعم".

- „وتتعلم الآن الألمانية؟"

- „نعم".

قال ريتشارد وهو يشير إلى الورقة فوق الغطاء بجوار الشاب: „أنت تستطيع الكتابة جيدًا، حروف ألمانية فقط".

أكان عليه أن يقول للغريب إن أبناء أصحاب القطعان كانوا يجلسون مع أمهاتهم أمام الخيام ويتعلمون كتابة التيفيناج، كتابة الطوارق، في حين كان عليه حلب النوق مجددًا قبل أن يحل الظلام؟ كان يرى حروف الكتابة منقوشة في الرمال قبل أن تكون الرياح قد محتها بحلول النهار التالي، كان يراها على السيوف وعلى رقع من الجلد وعلى الصخور وسط الصحراء: الصليب والدائرة والمثلث والنقاط، وراودته الرغبة في فهم معناها، رأى، يرى، رؤية، ولكنه كان عبدًا، كان بإمكانه قراءة النجوم وحسب، أخوات الليل السبعة، مُحارب الصحراء، الناقة الأم وصغيرها.

أم أن والديه قد نسياه، فقط هكذا؟

أم باعاه؟

في تلك اللحظة فقط لاحظ ريتشارد على كل وجنة من وجنتي الشاب أربعة خطوط محفورة في جلده، الواحد تحت الآخر.

- „ما هذه العلامة؟"

- „هذه علامة إحدى قبائل الطوارق".

- "حقًّا؟!"

استمر ريتشارد في طرح الأسئلة وتلقي الإجابات، ولكنه لم يزدد علمًا رغم ذلك.

- "كيف كنتم تسكنون؟"

أخذ الشاب هاتفه وبحث ثم عرض على ريتشارد أخيرًا صورة فيها كوخ كبير مستدير، سقفه يشبه القبة.

كان لدى أبولو هاتف مزود بخاصية الدخول على الإنترنت، شرح الشاب: يمكن لثلاثة رجال بناء مثل هذا الكوخ في يوم واحد، من البوص والسعف وجلد الحيوانات والحصير المضفر والعصي، وعندما يرحل المرء يهدم الكوخ الورق والبوص ورماد النار، كلها تختفي مرة أخرى سريعًا في الصحراء.

- "ولكن يأخذ المرء معه الجلد والحصير؟"

- "نعم، والعِصِيَّ أيضًا، فالأشجار نادرة هناك".

- "وأواني الطعام، ومستلزمات المعيشة، والملابس، وكل ما

يملكه المرء يأخذه معه؟"

- "نعم".

- "وكل ما يملكه المرء يمكن حمله على عدة جمال؟"

- "نعم".

احتاج ريتشارد وزوجته عندما غيَّرا منزلهما قبل عشرين عامًا لثمانين كرتونه للكتب وحدها، بغض النظر عن كراتين أواني الطعام، والمفروشات، والملابس، والأثاث، والسجاجيد، والصور، والمصابيح، والبيانو، والغسالة، والبرادة، امتلأت سيارة نقل حتى آخر سنتيمترٍ فيها بكل ما يملكان.

قال الشاب: "والمواد الغذائية طبعًا".

- "لأي مدة".

- "أحيانا لشهرين، وأحيانا لثلاثة، حسب الطريق".

- "شهران أو ثلاثة؟"

كرَّر الشاب: "نعم، نقوم بتحميل الجمال، نهدم الأكواخ، ونرحل".

ثم أشار بيده إشارة تعبر عن أن كل شيء يتركه المرء يصبح مسطحًا، وقال: "مثل في ميدان أورانين".

وفجأة أدرك الأستاذ المتقاعد، الذي سمع ذلك اليوم الكثير

لأول مرة وكأنه عاد طفلًا مرة أخرى، أن ميدان أورانين لم يكن مجرد الميدان الذي صممه مهندس تنسيق الحدائق الشهير ليني في القرن التاسع عشر، وليس مجرد الميدان الذي تخرج امرأة عجوز كلبها ليتنزه فيه، أو تُقبل فتاة على إحدى أرائكه حبيبها لأول مرة، كان الميدان بالنسبة لشاب نشأ وسط البدو وعاش فيه لعامين ونصف مجرد محطة على طريق طويل، مكانًا مؤقتًا يقوده إلى مكان مؤقت آخر، وعند هدم الأكواخ، الأمر الذي كان بالنسبة لوزارة الداخلية أمرًا سياسيًا بحتًا، كان ذلك الشاب يفكر في حياته في الصحراء.

تذكر ريتشارد عندما كان يعقد سمينار في جنوب النمسا، وذهب ليتنزه مع زميل من فيينا في مزارع الكروم وتوقف الزميل فجأة وأخذ نفسًا عميقًا وسأله إذا كان هو الآخر يشم تلك الرائحة: رياح السيروكو تأتي من إفريقيا وتعبر جبال الألب، وأحيانًا تجلب معها رمال الصحراء، وبالفعل كان يمكن رؤية الغبار الناعم أحمر اللون على الأوراق، الغبار القادم من إفريقيا، مسح ريتشارد يومها بأصبعه على إحدى الأوراق ولاحظ أن وِجهةَ نظرِه ومعاييره قد تغيرت بتلك الحركة البسيطة، وكانت تلك اللحظة تشبه ذلك الموقف، حيث تذكر كيف أن نظرة إنسان كانت مثل نظرة إنسان آخر، لا يوجد في النظرة مُحِّق وغير محق.

في تلك اللحظة انفتح الباب قليلًا وأطل وجه لم يكن ريتشارد يعرفه، اسمه عوض، وسمع أن هناك شخصًا يرغب في سماع

قصته، حكى أنه يسكن في الغرفة المجاورة، رقم 2020، صافح ريتشارد وأومأ برأسه ثم انصرف.

سأل ريتشارد الشاب: "والآن؟"

فقال: "لا شيء".

- "هل تحصلون على مال هنا؟"

فقال الشاب: "نعم، منذ أسبوعين، ولكن هذا ليس جيدًا، أُفضل أن أحصل على عمل".

- "عمل؟"

- "عمل".

شعر ريتشارد أن عليه أن يرحل، فتلك الأحاديث كانت ترهقه أكثر مما كان يعتقد.

قال ريتشارد إنه سيأتي مجددًا وكأنه يقولها لمريض لا يعرف إن كانت ستمر به الليلة وتُكتب له النجاة إلى الغد؟ أم أنه هو ذلك المريض؟ فسدَ، يفسدُ، فسادًا، كان الرجلان الراقدان ما زالا نائمين في سريريهما، ثم ودع الشاب الذي يشبه أبولو كما تخيله دائمًا.

في السوبر ماركت، الذي كان اسمه قديمًا كاوفهاله، توجد عند المدخل زجاجات المياه والمشروبات الغازية والجعة، وبعدها

الخبز، ثم الفاكهة والخضروات، الخيار والخس، في البرادة السجق والجبن، ثم الفجل الحار، معجون الأسنان، ورق مطبخ وجوارب، أعواد الثقاب على الرف قبل الخزينة بقليل، وبطاريات للمذياع الذي يضعه في الحمام، المجموع 32.90 يورو؛ انتظر من فضلك، معي فكة؛ هل علي أن أدفع ببطاقة الدفع؟، لا، لست مضطرًا لذلك، الفكة موجودة، عظيم، تمام، هذا هو عالمه، أصبح حاليًا العالم الذي يعرف موضع خطاه فيه، لم يتسوق أبدًا موادًا غذائية لشهرين أو ثلاثة أشهر دفعة واحدة، ولا حتى في أثناء أزمة أنفلونزا الطيور، كان يكتب دائمًا قائمة التسوق وهو في البيت وبترتيب الأرفف في السوبر ماركت، تمامًا كما كان يسير في أروقة المكان، حتى عندما سيرقد على فراش الموت سيظل يعرف تحديدًا في أي الأرفف كانت تقف زجاجات الجعة.

14

جمع ريتشارد يوم الخميس الأوراق الخاصة بالضرائب، هاتف شركة التأمين الصحي، وكلف ورشة السيارات بتركيب الإطارات الشتوية، ولم يذهب إلى النُزُل المبني بالطوب الأحمر إلا يوم الجمعة، تحقيق الشخصية، حسنًا: Wsjo w porjadkje، طاولة البلياردو الخضراء دون كُرات، وبجانبها ـ كما رأى من قبل - الرجال السود، أسود/ أخضر، لون فريق كرة قدم مدينة هانوفر، الذي يسمونه خطأ الحُمر، وكأن المنتخب الألماني يضم جناحًا شيوعيًا، اصطحبته السيدة العجوز صامتًا إلى أعلى، وتركته بناء على طلبه أمام الغرفة 2020.

باب أخضر مثل بقية الأبواب، طرق الباب وانتظر، ثم فتح له عوض.

- "كيف حالك؟ How are you؟".

- ,,ربما جيدًا"، وماذا عساه أن يقول؟

How are you?

عوض أيضًا بخير.

كلمات تُقال من باب الأدب بلغة ليست لغة هذا ولا ذاك.

فتح عوض الباب أكثر ليدعوه إلى الدخول، وأخبره بعد أن أغلق الباب وراءه بأنه يود أن يحكي له عن نفسه، لأن المرء إذا أراد أن يصل فعلًا فإن عليه ألا يخفي شيئًا.

سأل ريتشارد: „هل الأمر حقًّا كذلك؟"

فقال عوض: „بالطبع! ثم دعاه للجلوس على كرسي".

شكره ريتشارد، ثم جلس وهو يفكر في „لا أحد" أوديسيوس وفي الرجال الصامتين أمام مبنى البلدية الأحمر في الصيف، وفكر كيف كان يخفي عشيقته عن زوجته، وحياته اليومية مع زوجته عن عشيقته، هل وصل يومًا في حياته؟

وكانت إجابة عوض بـ"نعم" تتعلق فقط بكون عرضه صادقًا فعلًا؛ لأنه أخبره ـ أيضًا - بأنه قد حكى كل شيء بالفعل للطبيبة النفسية.

- „طبيبة نفسية؟".

وسأله عوض إذا كان يفضل أن يطلب الطبيبة النفسية أيضًا، لدقيقة فقط، فقد كانت معه بطاقتها وفيها رقم الهاتف؛ فقال ريتشارد: „لا داعي لذلك"؛ „لا، يمكن أن أطلبها"؛ „لا توجد مشكلة"؛ „إذن دقيقة واحدة، يجب أن تكون البطاقة في مكان ما

هنا"؛ بحث عوض عن بطاقة الطبيبة النفسية التي حكى لها كل شيء عن حياته، بحث أولًا فوق المنضدة، ثم على مسند النافذة، ثم على الرف، وبعد ذلك في الخزانة، وأخيرًا في حقيبته تحت السرير، أخبره ريتشارد أنه لا داعي لذلك فعلًا، لا توجد ضرورة لذلك، وكان ريتشارد يدور مع عوض حيث دار، أخبره أنه لو لم يجد البطاقة فيمكنهما الاتصال بها مرة أخرى، هذا يكفيه حقًّا، ولكن عوض لم يتوقف عن البحث عن البطاقة: „يجب أن تكون في مكان ما هنا، كانت معي قبل قليل، أين عساها أن تكون؟".

رأى ريتشارد ستارًا عليه مربعات زرقاء يغطي نصف النافذة، هل كان الستار من سابقيه في الغرفة ممن كانوا يحتاجون الرعاية؟

قال عوض: „حالًا، حالًا، الطبيبة النفسية تعرف كل شيء عني".
- في حين لم يكن ينوي ريتشارد الاتصال بالطبيبة النفسية تمامًا، لكنه لم يستطع قول ذلك للرجل الذي كان صبره ينفد أكثر وأكثر وهو يبحث المرة بعد المرة في الأرفف وفي حقيبة سفره وهو يرفع الأوراق الموضوعة على مسند النافذة للمرة الرابعة ويبحث حتى تحت أغطية الفراش وهو يفتح الخزانة ويغلقها بعد كل مرة يقلب فيها بصره في أرجاء الغرفة باحثًا.

كان يوجد كُتيب إرشادات استخدام غسالة الأطباق مُعلقًا على جدار المطبخ الجماعي في النُزُل، وكانت الأسِرَّة الثلاثة الأخرى

فارغة، والأغطية مُرتبة فوقها.

سأل ريتشارد: „أين الباقون؟".

فقال عوض: „يلعبون البلياردو"، وترك أخيرًا البحث وقد بدا عليه الإرهاق عندما استدار لينظر إلى زائره، واعتذر لأنه لم يستطع إيجاد البطاقة.

قال ريتشارد: „اسمي ريتشارد".

وُلد عوض في غانا، وماتت أمه عند الولادة، ذكَّر ذلك ريتشارد بقصيدة بلانشفلور، مثل أم تريستان، وأضاف عوض: „كان أول يوم في حياتي هو اليوم الذي فقدت فيه أمي".

- „والأب؟"

لم يُجب عوض.

حتى عامه السابع كان يعيش لدى جدته، نانا، في غانا.

هل الجدة على قيد الحياة؟ هل رآها بعد ذلك؟ هل ما زال يتذكر شكلها؟

لا، قال عوض إنه لا يتذكر، عندما بلغ السابعة أخذه أبوه إليه في ليبيا، تلك الجدة التي ماتت ابنتها عند أول ولادة، والتي تعلم حفيدها منها الكلام، والتي كانت تُحممه كل مساء قبل أن يخلد

إلى النوم وهي توقفه فوق لوح خشبي حتى لا تحرق الأرض الساخنة قدميه، تلك السيدة التي أصبحت الآن طاعنة في السن أو لعلها ماتت، تحاول أن تخرج من فضاء النسيان إلى عالم ما يمكن حكيه ولكنها تفشل في ذلك، فحفيدها يسميها نانا مثلما تُسمى كل الجدات في غانا، ولا تحظى -سوى ذلك- باسمٍ، لتبقى تحت ذلك السطح العازل فتغرق مُجددًا في صمت، كيف سيصبح حال الرجل في البحيرة عندما تتجمد البحيرة قريبًا؟

هل عاد مرة أخرى إلى غانا؟

لا، أبدًا.

كان أبوه يعمل سائقًا لدى شركة بترول في طرابلس، كان يسكن كلاهما في غرفة في بيت به ثماني غرف، وكان يأتيهم كثير من الزوار، عندما كان أبوه يعود من العمل كان يطهي الطعام للجميع؛ وكان يلعب معه كرة القدم، ويشتري له اللُعب، كما كان يعطيه مصروفًا ليس بالقليل، وكان يسافر معه في العطلة إلى مصر، وكانت رحلة الطائرة تستغرق ثلاثين دقيقة إلى القاهرة، قال عوض: „في الحقيقة أعرف القاهرة جيدًا"، فقد كان يسافر مع أبيه كثيرًا إلى هناك، كانت كلمة هناك تعني أيام ألمانيا الشرقية الجزء الغربي من ألمانيا إذا نظرنا إليها من جهة الشرق، كان الأب يُسدل الستائر على الجزء الجنوبي من البيت الذي تسطع عليه الشمس طوال اليوم ولا يرفعها إلا في المساء،

علم الأب ابنه كيف يجفف ظهره بعد الاستحمام باستخدام فوطة يشدها بزاوية مائلة على ظهره، علّمه أبوه الطهي، أهداه أبوه أول ماكينة حلاقة.

قال عوض: „أخبرني أبي مَن أكون".

ثم جلس عوض برهةً دون كلام وهو ينظر إلى لوح الخشب الصناعي الذي يغطي الطاولة، ربما كانت تلك الطاولة أيضا لمدة 25 سنة في مكتب التضامن الشعبي أو في بيت الصداقة الألماني الروسي، ولكن عوض لم يكن ليعرف ذلك، ولا ليعرف تمامًا ما هو مكتب التضامن الشعبي أو في بيت الصداقة الألماني الروسي.

- „وماذا بعد؟".
- „بدأتُ في العمل ميكانيكي سيارات، وكان لي أصدقاء، كانت حياة جيدة".
- „وماذا بعد؟".

في الخارج كانت سيارة نقل تسير إلى الخلف، وكان صوت صافرة التنبيه مسموعًا، صفير عالٍ متكرر، بلغة إشارات موريس فقد كان ذلك يعني صفرًا، في كل أسبوع من أسابيع السنة الفردية كان يتم جمع المخلفات البلاستيكية، أو لعلها كانت سيارة نقل الأثاث تحاول الانعطاف عند المدخل.

ثم أطلق أحدهم الرصاص على أبي فأرداه قتيلًا.

أراد ريتشارد أن يقول شيئًا ولكنه لم يجد الكلمات.

كانت توجد لافتة صفراء مثبتة في ساق الطاولة تحمل رقم جرد 87/360.

رأى ريتشارد أباه مرة أخرى بعد موته في المستشفى وقد ربطت الممرضات فك الميت إلى جمجمته بشريط من القماش، كي لا يبقى فمه مفتوحًا حتى آخر الأبدية، جعل ذلك الشريط أباه يبدو كالراهبة، حتى أن ريتشارد قد تعرف عليه بصعوبة.

جلس عوض منحنيًا إلى الأمام مسندًا ذراعيه وناظرًا بعمق أكبر إلى الطاولة، واستمر في الحديث.

اتصل بي أحد أصدقاء أبي وهو يصرخ: لقد كانوا عندنا في الشركة! ثم قال: „أبوك، ـ ثم سكت - فقلت له إني لا أفهم ما يعني، فصرخ فيَّ، وكان لم يفعل ذلك من قبل، فقد كان ودودًا جدًا معي، صرخ فيَّ وقال إن عليَّ أن أسرع إلى البيت وأغلق بابه جيدًا، ثم انقطع الاتصال فجأة، أسرعت إلى البيت، ولكني عندما وصلت وجدت الباب مخلوعًا من مكانه والنوافذ محطمة، كل شيء في البيت كان مبعثرًا، في الردهة والغرف والمطبخ، وشظايا الزجاج تملأ المكان، والأثاث مقلوبًا رأسًا على عقب، والتلفاز محطم، كل شيء، خرجت من إحدى النوافذ الخلفية وحاولت معاودة الاتصال بصديق أبي، حاولت وحاولت، ولكن المكالمة لم تتم، وحاولت ـ أيضًا - الاتصال بهاتف أبي.

لا شيء.

هكذا كانت النهاية.

وانتظرت في الشارع حتى حل الليل، أين كان عساي أن أذهب؟ كان ذلك نفس الشارع الذي كنت أسير فيه إلى مدرستي وبعدها إلى عملي، ثم جاءت دورية عسكرية، أجبروني على الصعود على ظهر سيارة نقل وأخذوني إلى معسكر في إحدى الثكنات، رأيت الموتى في الشوارع، بعضهم قُتل بالرصاص وبعضهم بالسكاكين، يومها رأيت الحرب، كان يوجد المئات من الأشخاص في الثكنة، معظمهم أفارقة سود، وبعض العرب أيضًا، من تونس والمغرب ومصر، ليسوا فقط رجالًا ولكن –أيضًا- نساء وأطفالًا ورُضعًا وعجائز، أُخذ منا كل شيء: المال والساعات والهواتف، وحتى الجوارب"، هكذا قال عوض ثم ضحك، ثم ضحك وضحك، وبعدها قال: „It's not easy ، إن الأمر ليس سهلا!"، وتوقف عن الضحك، ثم قال مجددًا: „إن الأمر ليس سهلا!"، ثم هز رأسه وقال: „إن الأمر ليس سهلا!"، وكأن قصته قد وصلت إلى نهايتها.

- „وماذا بعد؟"

قال عوض: „عندما اعترضتُ ضربوني بمؤخرة بندقية على رأسي، يمكنك أن ترى الندبة هنا حتى الآن"، فرق عوض شعره بيده ليري الأستاذ المتقاعد، الذي يتحدث إليه اليوم لأول مرة في حياته، ندبته، في بداية حديثه إلى ريتشارد كان قد قال له: „إذا

أراد المرء أن يصل فعلًا فإن عليه ألا يخفي شيئًا".

واساني أحدهم بقوله: „إذا حالفك الحظ فستُضرب فقط، وإن كان حظك عسِرا فستُرمى بالرصاص، ثم أخرجوا شرائح الهواتف منها وحطموها أمام أعيننا، ثم أخرجوا بطاقات الذاكرة ودمروها"، قال عوض: „دمروا الذاكرة، لم يتركوا لأحدنا شيئًا أكثر من التي شيرت والبنطال أو التنورة، أمضينا يومين في تلك الثكنة، في حين كانت القنابل الأوروبية تسقط على طرابلس، خفنا أن تصيبنا إحداها، فقد كنا في معسكر تابع للجيش، في اليوم الثالث أخذونا إلى الميناء ووضعونا في قارب؛ من منكم يستطيع قيادة مثل هذا الزورق؟ فأجاب اثنان أو ثلاثة من العرب، رفعوا علَم القذافي على قاربنا"، ثم قال عوض وهو يضحك: „علَم القذافي!".

هل كانوا إذن من رجال القذافي؟ أم من المتمردين؟

ـ لم نكن نعرف، فجميعهم كانوا يرتدون نفس الملابس العسكرية، فكيف يمكن للمرء أن يميزهم بعضهم عن بعض؟

لم يدرك ريتشارد قبل تلك اللحظة كيف يقوم عسكريون منفصلون عن الحكومة بالاستمرار في ارتداء الزي العسكري لبلدهم؟!

على أي حال لم يكن هناك من يقف إلى جانبنا، رغم أني كبرت

في ليبيا، وكانت ليبيا وطني.

أخذ عوض يومئ برأسه لبرهة دون أن يقول شيئًا.

- „وماذا بعد؟".

„ثم أطلقوا وابلًا من الرصاص في الهواء وقالوا لنا: من سيحاول السباحة عائدًا سنطلق عليه الرصاص، لم ندرِ إلى أين يتجه القارب، ربما إلى مالطا؟ ربما تونس؟ ثم اتضح لنا بعد ذلك: إلى إيطاليا، كنا نجلس متلاصقين، وكان يمكنك الوقوف حيث كنت تجلس لدقائق معدودة فقط، ثم تجلس مرة أخرى في نفس المكان، تبولت المرأة التي كانت تجلس خلفي وهي جالسة في مكانها، عندما أردت أن أسند يدي على أرضية القارب كان المكان كله مبتلًا، قضينا أربعة أيام في الطريق، لم يكن معنا سوى زجاجات مياه قليلة، أعطيناها للأطفال، وعندما اشتد بنا العطش، نحن الكبار، شربنا الماء المالح، إن الأمر ليس سهلًا يا ريتشارد، إن الأمر ليس سهلًا، أحدثنا بأسناننا ثقبًا في إحدى الزجاجات البلاستيكية الفارغة وربطناها ببعض أربطة أحذيتنا وأنزلناها لنحضر بها ماء من البحر، يحتاج المرء لشرب الماء، مات البعض، كانوا يجلسون ببساطة بيننا، ثم قالوا بصوت منخفض: رأسي، رأسي، ثم خفضوا رؤوسهم هكذا، وماتوا في اللحظة التالية، كنا نلقي الموتى في الماء".

فكر ريتشارد كم نظر كثيرًا من نافذة الطائرة البيضاوية إلى

بحر من البحار بالأسفل، وكيف أن الأمواج كانت تبدو من أعلى وكأنها لا تتحرك تمامًا والزبد الذي يعلوها كان يبدو كالصخور، في منتصف القرن الماضي كانت سواحل ليبيا لفترة قصيرة تابعة لإيطاليا، واليوم أصبحت ليبيا بلدًا آخر، وإيطاليا تبدو للاجئين الذين يغادرون ليبيا في قارب وكأنها نتوء صخري يحيط به كثير من الماء، إن رأوها أساسًا.

قال عوض: „تَدمر كل شيء: العائلة والأصدقاء والمكان الذي عاش فيه المرء والعمل والحياة اليومية".

ثم قال: „عندما يصبح المرء غريبًا لا يصبح لديه اختيار، لا يعرف المرء إلى أين، لا يعود يعرف أي شيء، لم أعد قادرًا على رؤية نفسي، ذلك الطفل الذي كنته، لم تعد لدي صورة لنفسي".

ثم قال: „مات أبي. وأنا؟ أنا لم أعد أعرف من أكون.

أن يصبح المرء غريبًا، عن نفسه وعن الآخرين، هكذا إذن يبدو الانتقال.

سأل عوض وهو ينظر إلى ريتشارد لأول مرة مجددًا: - „ما مغزى كل هذا؟".

أصبح ريتشارد هذه المرة الشخص المطلوب منه تقديم إجابة، ولكنه لم تكن لديه إجابة.

قال عوض: „أليس صحيحًا أن كل إنسان ناضج سواء كان رجلا أو امرأة، غنيًا أو فقيرًا، لديه عمل أم لا، يسكن في بيت أم مشردًا، دون فرق بينهم سيعيش سنوات عمره ثم يموت؟”.

فقال ريتشارد: „نعم، الأمر يسير بهذه الطريقة”.

ثم قال عوض بعض الأشياء وكأنه يريد أن يهوِّن على ريتشارد الصمت، ـ قضى ثلاثة أعوام وربعًا في معسكر في صقلية، مع عشرة أشخاص في غرفة، ثم اضطر للمغادرة ـ عندما يطردونك من البيت يجب عليك تدبير مكان للنوم، تصبح حرًا! بلا عمل، ولا تذكرة ولا طعام، ولا تستطيع استئجار مكان للعيش، Mi dispiace, poco lavoro، آسف، لا يوجد عمل، وفي نهاية اليوم تكون في الشارع كما في بدايته، وإذا كان والداك لم يربيانك جيدًا فستصبح لصًا، أما إذا كان لك والدان جيدان فستكافح من أجل النجاة، آسف، لا يوجد عمل، ولكن يا ريتشارد، ماذا سيأكل المرء؟

قرأ ريتشارد فوكو وبودريار وأيضًا هيجل ونيتشه، ولكنه لم يكن يعرف –أيضًا- ماذا سيأكل المرء إذا لم يكن معه مال ليشتري به طعامًا.

ولا يمكنك أن تستحم ولذلك تصبح رائحتك كريهة، دائمًا لا يوجد عمل: Sempre poco lavoro، هكذا كان الأمر معنا في الشارع، كنت أنام في محطة القطار، لم أعد أذكر كيف كنت

أقضي الأيام، ريتشارد، أنت تعتقد أني أنظر إليك، لكني لا أدري أين عقلي، I don’t know where my mind is.

فكر ريتشارد: يا لها من عبارة جميلة ولكن غير قابلة للترجمة، رغم ثراء اللغة الألمانية، يمكن أن تقول بالألمانية: أفكاري شاردة في مكان آخر؟ لا أدري أين ذهني؟ أو روحي؟ أو ببساطة: هذا في الحقيقة لست أنا تمامًا؟

ذات مرة ساعد عوض في أعمال المطبخ لثلاثة أيام، في التنظيف وغسل الأواني، وحصل في مقابل ذلك على 80 يورو، أخذ المال وذهب به إلى مكتب سياحة ليحجز تذكرة طائرة إلى ألمانيا، ولكن ماذا كان عليه أن يجيب عندما سألته السيدة في مكتب السياحة إذا كان يرغب في السفر إلى كولونيا أم إلى هامبورج أم إلى ميونخ أم إلى برلين؟ فقد كان لا يعرف كولونيا، ولا يعرف هامبورج، ولا يعرف ميونخ ولا برلين أيضًا، ـإلى ألمانيا وحسبـ نفذ صبر السيدة في مكتب السياحة، ولكنه لم يعر انتباهًا لذلك، إذ لم يكن عقله هناك his mind was not there، مرة أخرى تلك العبارة الجميلة غير القابلة للترجمة: كان غارقًا في الأفكار، كان غائبًا، لم يكن مدركًا، كان خارجًا عن كل شيء؟

حرب بعد حرب، كان الأطفال الألمان منذ عام 1613 يغنون تاركين خنفساء مايو تطير من فوق ظهور أيديهم إلى العالم الآخر:

طيري يا خنفساء مايو!

الأب في الحرب

والأم في بوميرانيا

وبوميرانيا احترقت

طيري يا خنفساء مايو!

حتى في تراجيديا جوته كانت إيفيجنيه، المهاجرة في تاورس، هناك وفي الوقت ذاته غائبة، تبحث بروحها عن بلد طفولتها، إذا نظرنا إلى ذلك من تلك الزاوية فسيكون من السخيف قياس الانتقال بوجود الأبدان، وإذا نظرنا لذلك من تلك الزاوية فسنجد فجأة بالنسبة للاجئ علاقة بين عدم قابلية أوربا للسُكنى مع عدم قابلية وعائه الخاص به والذي هو من دم ولحم للسُكنى، الذي هو مُخصص لكل إنسان كمسكن لروحه مدة حياته.

„إذن برلين".

جلس في الطائرة غير مُغتسل، وعند وصوله كان الجميع يتحدث تلك اللغة الجديدة الغريبة، ولم يعد يفهم شيئًا، كان قادرًا فقط على الإيماء برأسه، رأى أناسًا يركبون حافلة: هل تذهب إلى وسط المدينة؟ ثلاث محطات عند أليكس، قال له أحد الرجال إنه يوجد هناك مكان، فيه أفارقة مثلي، بالتأكيد سأتمكن هناك أخيرًا من الاستحمام، اشترى له الرجل تذكرة من الماكينة، ماكينة

تخرج منها تذكرة؟ ألمانيا جميلة beautiful! ثم رأى الخيام.

كنت أقف وحيدًا، ذهب الرجل بعيدًا، لم أنم في حياتي كلها في خيمة.

عليه أن ينام هناك؟

في خيمة؟

وقف وسط الخيام وبكى.

ثم سمع شخصًا يتحدث العربية، وبلهجة ليبية، حصل في ميدان أورانين على طعام، ومكان للنوم، اعتنى ميدان أورانين به، كما كان يفعل أبوه في ليبيا، لن ينسى أباه أبدًا، وسيظل فخورًا به، وكذلك لن ينسى ميدان أورانين، وسيظل فخورًا به.

هذا ما قاله عوض في نهاية الحديث، وبالفعل لم يكن هناك ما يمكن قوله أكثر من ذلك.

15

متى قرأ ريتشارد جوتفريد فون شتراسبورج؟ قبل أن يقف في ذلك الوقت في الفناء الخلفي في الحر القائظ ينتظر نزول زوجته؟ أم في أحد الأعوام التي تلت ذلك؟ على أي حال كان بعد موت زوجته يتذكر أحيانًا تلك السطور عن الحب بين بلانشفلور وريفالين:

كان هي وكانت هو/ كان لها وكانت له، كانت بلانشفلور تحب ريفالين، والد تريستان، لدرجة أنها بعد موته في المعركة أنجبت طفله ثم عانت آلام قلب مميتة، ما الاسم الذي يجب أن يحمله الطفل؟ سكت المرشال طويلًا، كما تحكي الملحمة، فكر مليًا، استقبلوه في حزن وولد في حزن، إذن: "تريستان"، أي "الحزن"، كان يصعب على ريتشارد تذكر أسماء الأفارقة، لذلك غير اسم عوض إلى تريستان وهو يكتب ملاحظاته في المساء، واسم الشاب الذي قابله قبل أمس إلى أبولو، كي يستطيع التعرف عليهما بعد ذلك.

وعند تناول الإفطار في اليوم التالي دارت برأسه أسئلة كثيرة، لماذا يحرم رجال من الحق في العمل في بلد يرى أن حتى دخول

الجنة مرهون بالعمل؟ لماذا لا يسألهم أحد هنا عن قصتهم، ويتم بناء على ذلك الاعتناء بهم بوصفهم ضحايا حرب؟ وأمضى اليوم في دراسة اتفاقية دبلن الثانية، وفقط عندما حل المساء واضطر لإضاءة المصباح الموضوع على مكتبه فهم أن هذا القانون ينظم فقط الاختصاصات، لا تتعلق تلك الاتفاقية بتحديد ما إذا كان هؤلاء الرجال ضحايا حرب.

المسؤول عن محتوى قصتهم هي فقط الدولة التي يطؤون فيها لأول مرة الأراضي الأوروبية، هناك فقط يُسمح لهم التقدم بطلب لجوء، وليس في أي مكان آخر، أما كيفية تعامل تلك الدول معهم، فلها قواعد مختلفة تنظمها.

كانت للنمسا وسويسرا تلك الحدود المرغوبة عندما كانت رحى الحرب تدور في البلقان، ولكن لأن بعض الأمور تسير في إفريقيا على غير المتوقع فقد اضطرت إيطاليا واليونان إلى استقبال أكبر عدد من اللاجئين، فلو وقعت مثلًا حرب بين ألاسكا وأيسلاند واضطر سكان أيسلاند للهروب فربما تكون النرويج والسويد هما الدولتين اللتين يجب أن تصدرا للأشخاص الذين لا يستطيعون العودة إلى ديارهم جوازات سفر وتوفرا لهم فرص عمل وإمكانية الإقامة، وربما لا.

فهم ريتشارد التالي: بموجب اتفاقية دبلن الثانية اشترت كل دولة أوروبية، من تلك التي لا تملك سواحل على البحر المتوسط،

الحق في ألا تضطر إلى الاستماع إلى اللاجئين الذين يأتون عبر البحر المتوسط.

وبالتالي يمكن اعتبار ما يُسمى بمحتال اللجوء هو ذلك الشخص الذي يحكي قصة حقيقية في المكان الذي لا يكون المرء مضطرًا فيه للاستماع إليه، ولا حتى للتفاعل معه، وقد كتبوا أنه بنظام بصمات الأصابع الجديد سيتم التخلص كليةً من مواقف سوء الفهم، والتي تتعلق بتحديد من يندرج تحت مجموعة مَن يجب الاستماع إليهم ومن ينتمي للمجموعة الأخرى.

وتذكر ما قاله تريستان بالأمس، إنه لا يستطيع أن يخرج صور الموتى في شوارع طرابلس من رأسه، عندما يصبح المرء غريبًا لا يكون له اختيار، فكر ريتشارد في أن المشكلة تكمن في أن القصص التي يعيشها المرء تنطوي على ثِقَل التوازن مثل صابورة السفن، التي لا يمكن التخلص منها، في حين يمكن لمن يختارون من بينها أن يختاروا أيها يُبقون وأيها يُلقون، في الطريق من غرفة تريستان إلى الأسفل قابل السيدة العجوز على الدرج المغطى بالجير الأخضر وسألها عن سبب ذهاب عوض إلى طبيبة نفسية، فقالت إنه تنتابه نوبات بكاء، أحيانًا لساعات طِوال، ولم يعرف أحدهم ما عليه فعله حيال ذلك.

في حين كان ريتشارد يجلس إلى طاولة مكتبه ويقرأ، ولا يظهر في انعكاس صورته على لوح زجاج النافذة الأسود سوى

أطراف شعره الرمادية، فهم شيئًا آخر: القوانين الإيطالية لها فهم للحدود يختلف عن المفهوم الألماني، اهتم بالأمر لأنه طالما هناك حدود، كما عرفها طوال حياته، تسير على طول منطقة محددة من الأرض ولا يمكن عبورها من جانب أو من الجانبين إلا بعد المرور بتفتيش، فإن رغبة الدولتين في إقامة حواجز من السلك الشائك ونقاط تفتيش الفرسان الأسبان، ومثلها من الأشياء تكون واضحة، ولكن بمجرد أن تتحكم قوانين فقط في حدود الدول يتبدد الوضوح، ويصبح أحدهم يقدم إجابة على سؤال لم يطرحه الآخر تمامًا، ويتحدث الآخر عن كل شيء عدا عن ذلك الذي يريد الأول معرفته.

ينتقل القانون فعلًا من الحقيقة المادية إلى مملكة اللغة.

أما الغريب، الذي لا وطن له في إحدى الدولتين، فيتورط بين الجبهتين اللتين لم تعدوا واضحتين في ظل نقاش أوروبي داخلي لا يمُت بصلة به أو بالحرب الحقيقية التي يرغب في تركها خلفه.

فإيطاليا على سبيل المثال تترك اللاجئين يرحلون إلى ما بعدها، بل وتحب فعل ذلك؛ لأن لديها أكثر مما يكفي منهم، القانون الإيطالي يمنحهم حرية الانتقال إلى فرنسا أو ألمانيا أو أي بلد أوروبي آخر ليبحثوا عن عمل، أما ألمانيا -فلأسباب لا يفهمها ريتشارد حتى الآن- لا ترغب فيهم، فبعد ثلاثة أشهر كسيّاح تجب عليهم العودة إلى إيطاليا على الأقل لمدة ربع سنة، كما

لا يُسمح لهم بالبحث عن عمل في ألمانيا إلا بعد خمس سنوات يقضونها دون انقطاع كلاجئين في إيطاليا، وحتى هذا لا يكون إلا إذا حصلوا من الإيطاليين بعد تلك السنوات الخمس على ما يسمى بـ Illimitataوهي وثيقة تجعل وضع إقامتهم مماثلًا لوضع الإيطاليين من الناحية القانونية، وحتى حصولهم على تلك الوثيقة يكون بالفعل من حقهم مغادرة إيطاليا، كي لا يموتوا من الجوع هناك، إلا أنه لا يُسمح لهم بدخول أي مكان آخر.

وتخيل ريتشارد للحظات وكأن أحدًا يشرح له تلك القوانين باللغة العربية.

ثم قام وأدى خمس عَدَّات من تمرين القرفصاء كي يحرك جسده بعد طول الجلوس، ثم ارتدى ربطة عنق لأنه كان مدعوًا لعيد ميلاد صديقه ديتلف على بعد ثلاث حدائق من منزله، كانت سلفيا زوجة صديقه مريضة لفترة طويلة في العام الماضي، لذلك جاء الطعام لأول مرة من إحدى شركات تجهيز الحفلات، كان يوجد -في أوعية الطعام الاستانلس التي أبقوها دافئة- لحم الخنزير البري المحمر وسمك وأرز وبطاطس بالبقدونس، وبجوارها سلطانية فيها حساء آسيوي، وعلى صواني الطعام البارد شيش طاووك والكيشي لورين، وفي أوعية صغيرة الزيتون الأخضر والأسود والطماطم المجففة والكبار والبصل المكرمل، ونوعان من الكريمة وردية اللون وخضراء اللون يزينهما البقدونس، وسلاطة الأرز، وصدور البط المقطعة إلى شرائح، وخبز أبيض وخبز

أسود، والمسطردة والمايونيز والكاتشب والسلاطة الخضراء، وللتحلية فاكهة متنوعة وكعكة الشيكولاتة والمسكربون مع التوت، لم يعرف هل هو جائع فعلًا لهذه الدرجة؟

ريتشارد، بأي الطعام تنصح؟

دق الجرس مرة أخرى، باقة زهور، مِعطف، لا داع لأن تخلع الحذاء، خدمة الحفلات هذه ليست بالفكرة السيئة، نعم، كان هذا رأينا أيضًا، وأواني الطعام المتسخة يأخذونها دون غسيل كما هي، فعلًا؟

كان هو وأصدقاؤه ما زالوا منشغلين في بحث بركات ذلك العالم الآخر الذي يتزايد ترابطه الوثيق مع عالمهم منذ ما يناهز الخمس وعشرين سنة، وما زال سكان الشارع، الذي كان يُسمى في السابق باسم رئيس الحزب الشيوعي الألماني „شارع إرنست-تيلمان"، لا يرون أنه من البديهي أن تقوم الشمعات الصغيرة التي تلمع شعلتها ضوءًا أزرقَ بالإبقاء على الطعام ساخنًا فعلًا لمدة تزيد على الساعتين، وكأنه أتى طازجًا من المطبخ.

الطعام طيب فعلًا، كنتُ أخشى ألا يكفي، كعكة الشيكولاته فقط كانت. ـ لا، لا، كل شيء كان على ما يُرام.

كان ريتشارد يعرف معظم الأصدقاء الاثنى عشر أو الخمسة عشر الذين يلتقيهم كل عام في هذا الحفل نصف عمره وبعضهم

طوال عمره، وكانت صداقته بمضيفه تمتد منذ أن كانا في المدرسة معًا، زوجة ديتلف الأولى، التي تقف الآن في الشرفة لتدخن سيجارة في هدوء، كان ديتلف قد تعرف عليها في حفل عيد ميلاد ريتشارد الخامس والعشرين، وقتها كانت تعزف التشيللو في نفس الأوركسترا الذي كانت كريستل (زوجة ريتشارد) تعلب فيه في ذلك الوقت الكمان، وفي أثناء الدراسة كان ريتشارد وكريستل يرعيان طفلهما أحيانًا، عندما كان الاثنان يرغبان في الخروج، والآن أصبح ديتلف وماريون منفصلين منذ أربعين سنة تقريبًا، ولكنهما ظلا صديقين، وابنهما يبني الكباري في الصين؛ أما ماريون فقد افتتحت متجرًا للشاي بعد حل الأوركسترا وتعيش الآن مع زوجها الحالي بالقرب من بوتسدام، أما علاقته بأنّا المصورة التي كانت تجلس على الأريكة فقد كانت علاقة عابرة، حيث أمضى معها ريتشارد ليلتين أو ثلاثًا في أعقاب انتهائه من الثانوية العامة، ثم عاشت فترة في فرنسا بعد سقوط السور، ولكنها عادت إلى هنا منذ سنتين لترعى أمها المُسنة.

ما بنوه هناك هو بناء أحمق عملاق، الأمر لا يتعلق إلا بالمال وحسب، أما الرجل السمين الجالس على الأريكة فقد درس تاريخ الاقتصاد وقام بالتدريس بعدها في نفس الجامعة، ولكن تاريخ الاقتصاد الشيوعي كان التخصص الخطأ في الغرب، لذا يقوم الآن بإصلاح أجهزة الكمبيوتر، وزوجته تقدم له السجائر، ثلاث علب في الأسبوع، ولا يتضح إن كان ذلك بخلًا أم خوفًا على صحته، ولكنه كان يأتي إلى الحفل وحيدًا على أي حال، لم تكن فكرة

تركيب جهاز إنذار بالسيئة، أتعرف، سأسافر في شهر ديسمبر لقضاء فترة استشفاء، عندك حق، وإلى أين؟ بعض أصدقاء ديتلف أصبحوا في احتياج إلى نظارة لقراءة النص على الصفحة الخلفية من الكتب الموضوعة على طاولة الهدايا، كان ريتشارد وزوجته كريستل يسافران كثيرًا لقضاء العطلة، عادة إلى بحر البلطيق، مع مونيكا، المتخصصة في علوم اللغة الألمانية وآدابها، وزوجها، ذي الشارب، يورج، وكانا يقفان الآن مستندين إلى النافذة، لم يعد مسموحًا لي أن آخذ حفيدي، فزوجة ابني لا تحبذ ذلك، كنت حتى قبل أسبوعين في شيكاغو، أستاذًا زائرًا، كانت سيلفيا، زوجة صديقه الثانية، الهدوء في حد ذاته، كان واضحًا عليها أن العام الذي مر لم يكن سهلًا بالنسبة لها، عندما انتقلت للعيش مع ديتلف في بيته فترة طويلة قبل ما يُسمى بالتحول وقت إعادة توحيد ألمانيا، كان شعرها على هيئة ذيل حصان وكانت تبدو كفتاة صغيرة، كانت كريستل تساعدها أحيانا في غسل الأطباق بعد ذلك الاحتفال السنوي بعد رحيل الجميع، في حين كان ريتشارد يحمل مع ديتلف الكراسي الإضافية إلى الغرف الأخرى، يسعدني تناول كأس آخر من النبيذ، نعم، نبيذ أحمر، لي ماء من فضلك، بصودا متوسطة، إذا كانت لديكم، بعض هؤلاء الأصدقاء استثمر أمواله بعد التحول في شراء شقق؛ لأنهم اعتقدوا أن هذا ما يفعله المرء في الغرب الآن، لم يرو أبدًا الكهوف العفنة في كولونيا ودويسبورج وفرانكفورت على نهر الماين، ولم يكن هناك من يرغب في استئجار شققها، ولذلك أفلسوا، مصممة

الجرافيك هناك كانت تتمنى أن يكون لها أطفال، ولكنها كانت تختار دائمًا الرجال الخطأ، لقد سافرتُ بما فيه الكفاية طوال حياتي، هل يرغب أحد في تناول المزيد من الجعة؟ ميركل هي عالمة فيزياء، يجب ألا ينسى المرء ذلك، هل كان ديتلف يستخدم طاقم أسنان صناعية؟ ولكن هذا سؤال لا يمكن طرحه حتى على صديق عزيز، هل سمعتم بموت كراوزه الأسبوع الماضي؟ كان لديتلف موقف مع كراوزه في الماضي، قبل وقته، كان طبيب أسنان، رأيتُ الأهرامات في الصيف، كان الصحفي يصطحبه أحيانًا لحضور العروض الأولى في الأوبرا مستخدمًا بطاقة تعريفه كصحفي، في الربيع الماضي على سبيل المثال لحضور العرض الأول لـ"كارمن"، وأندرياس، الصديق الجاد، المستند إلى „النيش"، كان قد أصيب بجلطة قبل عامين تركته معاقًا، ومنذ ذلك الحين يكتب القصائد التي يقرأها على أصدقائه هنا وهناك، ولكن البحث عن دار نشر لم يكن ليجدي بالنظر إلى كمية الكتب الموجودة في السوق، في الحفل الماضي حكى أنه لم يعد يقرأ سوى هولدرلين، يمكنك أن تنسى أي شيء آخر، عندما كان السور ما زال قائمًا كانت عاصمة الجمهورية عبارة عن منظومة واضحة، كان كل واحد يعرف عن الآخرين ما يكفي لجعلها مثل الجديلة المستمرة مدى الحياة، السياج المصنوع من الزرع عالٍ جدًا، كيف تفعلون ذلك؟ الأمر يعود إلى التربة، أجريت العملية في شهر مارس ولكن الحمد لله دون احتياج لعلاج كيمائي، سترى، سيمر كل شيء بخير، كان معظم هؤلاء الأصدقاء، مثله،

قد ولدوا بعد الحرب أو حتى في السلم، كانت أمه تجلس معه وهو رضيع في المخبأ، أما أبوه فكان على الجبهة، لم يكن ممكنًا تصور ذلك في زمن جمهورية ألمانيا الديمقراطية، من الواضح ما يحدث الآن في الشرق الأوسط، يتم تدمير الدول التي كانت يومًا شيوعية الواحدة تلو الأخرى بصورة ممنهجة، والآن تسقط أولى الضحايا وما زالت أوربا تنعم بالسلام، لو كان عيد ميلاد صديقه في الصيف لأمكنهم الشواء في المروج الخضراء، ولكنهم يضطرون دائمًا للجلوس بالداخل، وماذا يفعل يواخيم؟ ظروفه صعبة، إنه يعاقر الخمر، لكن هذا ليس بالأمر العجيب.

16

ذهب ريتشارد يوم الإثنين في طريقه إلى المبنى المقام بالطوب الأحمر، وكأنه أمر بديهي تمامًا، كما كان يشعر وهو في طريقه إلى الجامعة في النصف الأول من العام، كان يعبر الطريق الذي يغطيه الحصى المُحدب، يا تُرى من كانوا السجناء الذين قاموا في فترة عقوبتهم بنشر الجرانيت وصقله؟ مرَّ على قطعة الأرض الفارغة التي كان يقف فيها -حتى قبل فترة قريبة- بيت له نوافذ وشرفة زجاجية وزينة محفورة في الخشب المشغول، والآن أصبح لا يُرَى سوى الرمال فاتحة اللون والأرض تنتظر بناءً جديدًا، أسهل ما يمكن أن تجعل به التاريخ يختفي هو إطلاق المال خلفه، فالمال الطليق عضته أشد من عضة الكلب الشرس الطليق، يمكنه أن يلتقم ببساطة بيتًا كاملًا بعضَّة واحدة، كان ريتشارد وهو يفكر في ذلك قد وصل إلى لافتة „السرعة" المثبتة على جانب الطريق قبل بيت المسنين: „السرعة المسموح بها هنا 30 كم/ س"، ولكن الكتابة الرقمية توضح كلما مرت سيارة بأرقام مضيئة سرعات مثل 70 أو 55 أو 60، بعده يدوس السائقون على مكبح السرعة ، هذا أمر معروف: الخجل والندم، هذان الزوجان اللذان كانا يدفعانه -أيضًا- للانصياع ولكن دائمًا

بعد فوات الأوان، مثلًا عندما كانت تكتشف زوجته خطابًا من عشيقته كان قد خبأه وكانت تقف أمامه وتصرخ في وجهه، خرجت من دار المسنين، حيث قد يقضي خريف عمره، عجوز تتكئ على عصا المشي وحقيبة مشترياتها معلقة في مقبضها الرمادي تتأرجح، وبطء سيرها يدل على أن التسوق ربما يكون كل برنامجها لفترة ما قبل الظهيرة.

عند دخوله المبنى المقام من الطوب الأحمر قال له الحارس إن الرجال اليوم في درس اللغة الألمانية: كل يوم إثنين وخميس، ولمَ لا يذهب هو الآخر إلى درس اللغة الألمانية؟ طبعًا إذا وافقت المعلمة، دائمًا الممر إلى أسفل ثم حول الناصية، كانت المعلمة تمامًا على خلاف ما تصور، فقد كانت شابة من أثيوبيا تتحدث الألمانية، لسبب ما، بطلاقة، وافقت؛ وهكذا جلس في درسها في ذلك اليوم أستاذ متقاعد، جلس في الصف قبل الأخير من القاعة الكبيرة ودفع رجليه بصعوبة تحت طاولة المدرسة، وكان أبولو يجلس أمامه بصفين يقرأ في أوراقه، جلسَ، يجلسُ، جلوسًا، ورأى في الأمام تريستان الذي لاحظ قدومه وأومأ له، فأومأ له، هل الجالس منحنيًا في الأمام عبد السلام الذي غنى له أغنية الأسبوع الماضي؛ لم يكن ذلك واضحًا، ألم يكن شَعر عبد السلام مُضفرا في ضفائر قصيرة؟ كان من الصعب على ريتشارد تذكر أي أحد منهم فشعورهم ووجوههم كانت حالكة السواد، فقط رشيد هو من يمكنه التعرف عليه على الفور؛ لأنه ضخم جدًا، ولكنه لم يكن بينهم.

كانت المعلمة الشابة تدرب تلامذتها الناضجين على قراءة حروف الهجاء، ثم قراءة الكلمات، كانت تحاكي أمامهم تبعًا لترتيب الأبجدية الألمانية ما هي العين Auge ، الكتاب Buch ، الإبهام Daumen، وتركت حرف السي C، ومن العين والإصبع الأكبر انتقلت إلى الحروف المتحركة المركبة au و eiو eu؛ ومن الــ ei انتقلت إلى تركيبة ie الطويلة مثل hi-i-i-i-ier، نطقتها وتبعت بيدها الهواء الكثير الذي كان يخرج من فمها مع كل تركيبة حروف طويلة، كان الباب مفتوحًا وهي تدرس، وبين الحين والحين كان أحد التلاميذ المتأخرين يدخل، وبين الحين والحين كان أحدهم يحزم حاجياته ويعتذر ويغادر في منتصف الدرس، وفي النصف ساعة الأخيرة قدمت المعلمة الشابة للتلاميذ أصحاب المستوى الأعلى تدريبات على الفعلين المساعدين يملك haben ويكون sein، ثم قالت „أنا أذهب"، ومشت عدة خطوات يمينًا ويسارًا وهي تؤرجح ذراعيها، ثم أشارت إلى الخلف من فوق كتفها إلى حيث يقبع الماضي وقالت: „بالأمس ذهبت"، ثم قالت: „أفعال الحركة تحتاج عادة للفعل المساعد sein، أنا أكون، أنت تكون، هو يكون، وهكذا، أنا ذهبت، طِرت، سبحت"، ثم سارت عائدة مرة أخرى وهي تؤرجح ذراعيها، ومدت ذراعيها لتطير، وسبحت مرورًا بالسبورة، فجأة قال أبولو: „أنا ممتاز"، فقالت له: „نعم، نعم، أنت ممتاز، ولكننا نريد الآن بناء الماضي"، عندما انتهى الدرس مرَّ الرجال بريتشارد وبعضهم حيَّاه بإيماءة بسيطة: زعير؟ إيتيمبا الطويل؟ مد أبولو يده وصافحه، وكذلك

فعل تريستان، كيف حالك: I’m fine، كيف حالك: I’m okay، I’m a little bit fine.

قال للإثيوبية بعد أن خرج الرجال إنها معلمة جيدة، وفكر في أنها جميلة أيضًا.

فقالت وهي تجمع الأوراق المقواة التي كتبت عليها الحروف بألوان مختلفة: في الحقيقة درست الزراعة، ولكن لا أحد يعرف متى ستبدأ فعلا دروس الألمانية في مدرسة حقيقية كما وعدت حكومة برلين؟

جميلة جدًا.

كانت رائحة الماريجوانا تفوح من ميدان أورانين، وعندها أدركت أنه يجب فعل شيء قبل أن يضيع هؤلاء الرجال تمامًا.

لعلها لا ترغب إلا في رجل أسود ولذلك تقوم بالتدريس هنا؟

قالت المعلمة: „يجب ملء الوقت بأي شيء”.

الوقت؟ شعر لوهلة بالارتباك لأنه ظن أنها تتحدث عنه هو، ولكنه أدرك أنها كانت تعني وقت هؤلاء الرجال.

- „أفهم”.

عندما يرغب المرء في فهم ما يعنيه آخر أو يقوله يجب عليه في

الأساس أن يكون دائمًا على معرفة بذلك الذي يعنيه أو يقوله، هل الحوار الناجح هو مجرد إعادة تعرف؟ والفهم ليس طريقًا، وإنما بالأحرى حال؟

عندما مدت المعلمة ذراعها لتغلق النوافذ بدا صدرها مسطحًا، تساقط طلاء أبيض جاف من إطار النافذة على الأرض.

كانت تقوده وطلابه مثل تلك الأسئلة دائمًا وبسرعة إلى مواضيع أخرى: إلى مفهوم التطور، إلى السؤال عن جوهر الحرية، وإلى النموذج رباعي الأوجه الذي يصف التكلم دائمًا بأنه „تكتيك" وله من حيث المبدأ أرضية مزدوجة؛ لأنه يتحدث دائمًا -أيضًا- عن نفسه، أي عن قضية ما إذا كان موجودًا؟ أم لا؟ الكلام، وهكذا يفهم الآخر دائمًا أكثر من مجرد الكلمات، فدائمًا ينطوي الإنصات على الأسئلة التالية: ما الذي ينبغي على المرء فهمه، ماذا يريد المرء أن يفهمه، وما الذي لن يفهمه المرء أبدًا ولكنه يريد أن يحصل على تأكيد على ذلك.

قالت المعلمة إن المدفأة لا تستجيب لمحاولة إيقاف تشغيلها.

- „منذ متى تدرسين؟".

- „بدأتُ في الصيف، عندما كان الرجال لا يزالون في الميدان، الدراسة تشغلهم حتى في غير أوقات الدروس، وهذا الطيب في الأمر، ولكن ينقصهم أحيانًا التركيز".

مسحت المعلمة ما كان مكتوبًا على السبورة: عين، كتاب، إبهام.

ثم قال: „ربما يكون النطق غير مألوف لهم، وكذلك الأفعال الشاذة”.

- „لا، ليس هذا السبب، يوجد في حياة هؤلاء الرجال الكثير من القلق، وبالتالي لا يوجد مكان في رؤوسهم لتعلم الكلمات، إنهم لا يعرفون ماذا سيحدث معهم، إنهم خائفون، من الصعب تعلم لغة إذا كان المرء لا يعرف لماذا”.

كم مر عليه من وقت لم يجلس فيه مع امرأة؟

ثم قالت: „إن ما يحتاجه هؤلاء الرجال بشدة كي يهدأوا هو السلام”.

لم ير الأمر هكذا من قبل: ما يبدو له سلامًا هنا يعد بالنسبة لهؤلاء الرجال ما زال حربًا ما لم يُسمح لهم بالبقاء.

أخذت المعلمة حقيبتها، ودفع هو كرسي إلى الطاولة.

- „هلا تطفئ النور قبل أن تغادر.. رجاء؟” ثم قالت: „إلى اللقاء”، وخرجتْ، كانت سريعة، وأعجبه ذلك.

انطفأ أخيرًا ضوء النيون المرتعش الذي يجعل ضوء النهار باهتًا.

عندما نظر إلى القاعة وجدها فارغة تمامًا، لقد تركته العذراء

أستراليا، آخر إلهة للعدالة السماوية، وانتبه الآن فقط إلى أن تلك الطاولات التي كان يجلس إليها هو واللاجئون صغيرة جدًا بالنسبة لتلاميذ ناضجين، أغلب الظن كانت تلك طاولات تخلصت منها مدرسة أطفال، ربما مدرسة „يوهانيس إر. بيشر" الفنية الثانوية، كتب الشاعر يوهانيس إر. بيشر، النشيد الوطني لجمهورية ألمانيا الديمقراطية، ثم أصبح فيما بعد وزيرًا للثقافة، على حواف الطاولات رأى ريتشارد الخُطافات المثبتة التي كان التلاميذ يعلقون عليها حقائبهم المدرسية قبل ما يزيد على ثلاثين سنة؛ الرواد الشباب الذين أصبحوا منذ فترة طويلة بائعات ومهندسين وعاطلين عن العمل، وربما مروا بتجربة الطلاق مرة أو مرتين، وعدد أطفالهم من الصفر إلى الأربعة، والكراسي غير متجانسة، بعضها يكسوه قماش أصفر، وأخرى مكسوة بلون أحمر نبيذي، بعضها من الخشب وبعضها من المعدن، كان يعرف تلك الكراسي جيدًا، فقد كانت من عهد اجتماعات الحزب ونوادي المناطق السكنية وحفلات الشركات التي تقام في اليوم القومي للجمهورية، وفي كل مكان كان يدخله الغرب كان أول ما يفعل هو إلقاء الأثاث الشيوعي في القمامة، وحتى الآن، بعد ما يناهز الخمس وعشرين سنة على ما يسمى بإعادة التوحيد يمكن أحيانًا في حاويات النفايات كبيرة الحجم في الأماكن التي يتم إفراغ محتوياتها أو بناؤها رؤية أرجل تلك الكراسي بارزة، وتكون أرجلًا متقاطعة ومتداخلة لكراسي خشبية كثيرة العدد عفا عليها الزمن، ومنها ما كانت أرجلها رمادية اللون، لو رأت

أمه ذلك لقالت: „إنها ما زالت صالحة للاستخدام"، لم يسمع تلك الجملة منذ وقت طويل، لعلَّه كان من الأفضل لو ارتدى اليوم القميص الأزرق الفاتح.

***

17

أراد ريتشارد - في اليوم التالي - البحث عن رشيد وإيتمبا مرة أخرى، كان رجل الأمن قد ألف رؤيته لذلك تركه يصعد - إلى حيث الرجال - وحده، طاولة البلياردو دون كرات، الدرج المعوج، في الطابق الأول لا يزال لا يوجد ماء.

وبمجرد أن وصل إلى الباب الأخضر للغرفة رقم 2017 وأراد طرقه إذا به ينفتح بقوة أمامه محدثًا صوت فرقعة وانطلق رشيد مسرعًا ووراءه ثلاثة أو أربعة آخرون مرورًا به في اتجاه الدرج، ومن هناك ريتشارد أصوات نداء متعددة وغير مفهومة وخطوات متسارعة صعودًا وهبوطًا، ظل الباب يتأرجح ولم يكن هناك أحد في الغرفة، ولذلك تبع ريتشارد رحلة الصيد البرية تلك التي تحدث على الدرج؛ كانوا قد توجهوا إلى أعلى والآن هم في طريق الهبوط مجددًا، كان لديه وقت بالكاد كي يتفادى الاصطدام بهم فدخل إلى الردهة، إنه لأمر كارثي أن تقف في طريق الأوليمبي، ذات مرة عندما حاولتُ المساعدة أمسك بقدمي وألقاني من فوق عتبة السماء، وطرت لمدة يوم كامل، واستمر ذلك حتى غابت الشمس وعندها سقطت في ليمنوس، ولم يكن يسري بجسدي غير القليل من الحياة، هبط رشيد الدرج مسرعًا دون حتى أن يلاحظ وجود

ريتشارد، وهبط وراءه عشرة أو اثنا عشر شابًا، كان أحدهم أبولو، وكانت ضفائره تتأرجح في الهواء بسبب حركته السريعة، وكأنه يستمتع بذلك، بدأ ضوء النيون في الدرج يومض مرة أخرى، وهكذا كان سور الدرج الأخضر يضيء بصورة متقطعة مرتعشة، ما الذي يحدث في الطابق الثالث الذي لم يصعد إليه ريتشارد من قبل، هناك تحت السطح؟ صعد ريتشارد حتى انتهى الدرج، وقف أمام باب آخر ما زال يتأرجح في مكانه، من خلفه غرفة كبيرة يجلس فيها ثلاثة أو أربعة أشخاص حول طاولة، عدا الأصوات المنبعثة من ماكينة القهوة كان المكان هادئا تمامًا، عندما اقترب ريتشارد رأى أن أحد الجلوس كانت المرأة العجوز التي كانت تصطحبه في بادئ الأمر دائمًا إلى الرجال، على ما يبدو كان ذلك مقر المشرفين الذين عينتهم حكومة الولاية، في وسط الغرفة كرسي معوَجّ السيقان، دار حوله حتى وصل إليها وصافحهم، لم يسأله أحد عن سبب تواجده هناك، لعل العجوز قد حكت عنه بالفعل، إذن على ما يبدو أن هناك شيئًا ما يحدث هنا! أومأ الجلوس برؤوسهم، إذن سأرحل مجددًا، ثم حياهم.

حاول عند خروجه أن يرفع الكرسي، ولكنه انكفأ مجددًا لأن ساقه كانت منحنية بزاوية قائمة، استدار مرة أخرى نحو المجموعة الصامتة واعتذر عن محاولته الفاشلة لتنظيم المكان؛ كان أحدهم يرتشف مجددًا من قهوته، سألهم ريتشارد: هل فعل ذلك رشيد؟، فأومأوا، في تلك الأثناء كان الضوء في الدرج قد استقر، ولم يكن للرجال المسرعين كالبرق صوت يُسمع ولا أثر يُرى.

كان أحد الحراس بالأسفل يتحدث في الهاتف، أما الآخر فسأله ريتشارد عما يدور، فأخبره بأن على الرجال الانتقال غدًا، إلى بيت في وسط الغابة على مسافة سبعة كيلومترات ونصف من بوكوف.

- "مِن بوكوف؟! وغدًا؟!".

- "لا أدري، أنا هنا مجرد رجل أمن".

يحتاج ريتشارد ساعة على الأقل حتى يصل إلى بوكوف، هذا بالسيارة وفي حالة عدم وجود زحام، قال ريتشارد: "إن هذا لا يصح"، فهز رجل الأمن كتفيه.

سينظمون تجمعًا اليوم في الثانية بعد الظهر، هنا توجد ورقة بالموعد، وربما يأتي أحد من الحكومة.

كان ريتشارد ينوي في الحقيقة التسوق اليوم، ولكنه كان متوترًا لدرجة تمنعه من التفكير في التسوق، هؤلاء الذين يتخذون مثل تلك القرارات لا يعرفون حقًا كيف يجب القيام بالتحقق من الأشياء بصورة جدية أولًا، لقد بدأ بالكاد في إجراء أحاديثه مع الرجال، وها هم يضعون العراقيل في طريقه، كان يوجد في الجامعة -أيضًا- مثل هؤلاء الموظفين الذين يعتقدون أن وضع الأختام على وثائق السفر وتجديد استمارات التأمين الصحي وإحصاء الساعات التي يتم قضاؤها في المكتب، أهم من إنجاز العمل نفسه الذي تم توظيف المرء للقيام به: مثلا البحث في

ما إذا كانت هناك علاقات عددية لها بالنسبة لجمال بيت شعر ما نفس الأهمية التي تمثلها لاستقرار بيت الحلزون الذي يحمله على ظهره، أو معرفة متى ظهر المسيح بوصفه آخر آلهة الإغريق في الأدب من عصر أغسطس، يمكن بالتأكيد تغيير كلمة السر الخاصة بالبريد الإلكتروني الرسمي للمرة الثامنة، ولكن يمكن للمرء بعد ذلك -أيضًا- أن يسأل كيف يمكن لكاتب أن يكتب في نصه ما لا يعرفه عن نفسه، ومن كان المتحدث أساسًا في تلك المقاطع من النص؟

ولذلك انطلق ريتشارد قبل الثانية بعشرين دقيقة في طريقه إلى ذلك التجمع الكريه رغم أن احتياجه للاجتماعات، التي ابتلعت حياته كلها، كان قد أشبِع منذ زمن بعيد.

كانت قاعة الدروس ممتلئة حتى آخر مكان، كثير من الرجال كانوا يجلسون إلى الطاولات الصغيرة جدًا ضامين ركبهم إليهم، وعند الحواف يقف مشرفون ورجال أمن، كان النقاش قد بدأ للتو، ولأن السيد القادم من الحكومة، ضعيف البنيان صاحب الشعر الأشقر المبعثر والواقف في الأمام، لم يكن يتحدث الإنجليزية ولا الفرنسية ولا الإيطالية ولا يتحدث العربية تمامًا فقد تبعته عملية ترجمة تشبه التي عايشها ريتشارد قبل فترة في المدرسة المحتلة، أسر أحد الرجال الذين رآهم ظهر اليوم صامتين حول طاولة المشرفين إليه قائلًا: "ولكن يمكننا - من حيث الأساس - أن نسعد لوجود أحد من الحكومة"، وبلغة ألمانية شقراء مبعثرة

قال ممثل الحكومة: "لدينا كامل التفهم لوضعكم! لقد أسهموا بالكثير من أجل الوصول إلى حل سلمي للوضع غير المحتمل في ميدان أورانين!".

وجُمل أخرى تشبه ذلك، لم يبدُ الموظف سعيدًا بإرساله لهؤلاء الآتين من كل مكان، الذين لا تنتهي مطالبهم ولا يمكن إرضاؤهم أبدًا، ربما يكون له -مقارنة بغيره من أعضاء الإدارة الحكومية- منصب بسيط جدًا، أو أنهم يختبرونه من خلال إرساله لأداء تلك المهمة.

كاد ريتشارد أن يشعر بالشفقة تجاهه، ولكن ماذا يريد هؤلاء المطالبون بما لا يستحقون مجددًا رغم أن الحكومة -وهي غير مضطرة قانونيًا لذلك- تدفع لهم شهريًا 300 يورو حتى يتم البت في كل حالة من حالاتهم، والذين توفر لهم المدينة، على الأقل لفترة، بطاقات شهرية لركوب المواصلات العامة وتمنحهم اثني عشر نصف وظيفة مشرف ليصطحبوهم في زيارات الأطباء وإنهاء الإجراءات في المؤسسات الحكومية؟

قال رجل الحكومة: "إن البيت عند بوكوف، أعدكم بهذا، هو حل جيد للجميع، لستم الوحيدين الذين يبحثون في برلين ومحيطها عن مأوى، وإذا كنتم ترغبون في البقاء معًا كمجموعة فلن توجد اختيارات كثيرة أمامكم".

هب رشيد، الذي قام ظهر اليوم بدور مفرق ضربات البرق على

الدرج، واقفًا وقال: "نريد أن نبقى في مرمى النظر ما دام لم يتم التوصل لحل سياسي شامل للمشكلة، ماذا علينا أن نفعل في الغابة؟ وما فائدة الاتفاقية التي عقدت مع الحكومة؟ لم يتحقق من جانبكم أي بند من بنود تلك الورقة".

لقد أصابت الرصاصة الوحش، تكلفت الرصاصة 300 يورو في الشهر لكل رجل بالإضافة إلى بطاقة المواصلات والمشرفين، ولكنه ما زال خطيرًا، لا يمكن للمرء أن يعرف إذا كانت لا تزال تملك الطاقة وستهاجمك مجددًا، بل ربما يصبح توقع ما سيفعله الوحش أصعب مما سبق.

فقال الرجل القادم من الحكومة: "إن الأمر لا يمكن إنجازه بين عشية وضحاها، وكان الرجل يفكر كيف ينجو بنفسه إذا تطور الأمر وفكر الوحش الجريح في الوثوب عليه؟".

قام آخر وقال: "سمعت أن المسافة من المعسكر هناك إلى أقرب محطة حافلات تبعد خمس كيلومترات".

من الجيد أن تكسب وقتًا؛ لأن الجرح النازف يستمر في النزف في صمت، وهذا من شأنه إضعاف من تواجهه.

قام ثالث: "وأيضًا ما بين يوم ويوم فجأة!".

قام رابع: "نحتاج لأدشاش استحمام لها أبواب يمكن إغلاقها، أي شيء آخر ينتهك قوانيننا".

ما زال جسد الوحش يتشنج، ولكن لا بأس إنها مجرد ردة فعل.

قام خامس: "أكثر من أربعة أشخاص في غرفة شيء لا يمكن قبوله!".

كان الرجل القادم من الحكومة ينتظر حتى تتم ترجمة جميع المقولات والأسئلة؛ ثم قال: "أفهمكم جيدًا، سأدوِّن ذلك كله".

فقال تريستان: "عندما تكون غريبًا لا يكون لديك أي خيارات" ـ فهل كان مخطئًا؟ فكر ريتشارد في أنه لم يكن مخطئًا؛ ولكن التمني في حد ذاته يعني أن المرء ما زال يعيش في عالم من ذلك النوع الذي يُسمح لك فيه أن تتمنى، التمني كحنين إلى الوطن، فكر ريتشارد في أنه لا عجب من تمسك أسرى الحرب من كل الجنسيات في أي معسكر وأي حرب، الذين يشرفون على الموت جوعًا، بالحياة عن طريق الحديث عن وصفات الطعام، في الحقيقة لا يريد اللاجئون من الحكومة غرفًا بأربعة أسِرة، ولا دُشًا له باب يُغلق، ولا ملجأ للاجئين لا يبعد كثيرًا - سيرًا على الأقدام - من محطة الحافلات؛ في الحقيقة هم لا يريدون من الحكومة أي شيء، في الحقيقة يريدون البحث عن عمل وتنظيم حياتهم بأنفسهم مثل أي شخص ما زال يتمتع بالقوة والعقل، ولكن هؤلاء الذين يسكنون تلك المنطقة، التي أصبحت قبل حوالي 150 سنة فقط تُسمى ألمانيا، يدافعون عن منطقتهم بمواد القانون، ويستخدمون سلاح الوقت السحري في تقطيع أولئك القادمين،

ويفقأون أعينهم بالأيام والأسابيع، ويردمونهم بالأشهر؛ وإن لم يسكنوا، ربما أعطوهم ثلاث أوانٍ للطعام ذات مقاسات مختلفة ومجموعة من فرش الأسرَّة وورقة مكتوبة عليها شهادة افتراضية Fiktionsbescheinigung.

ربما يمكن تسمية ذلك صراعات قبلية.

في البيت ما زال يوجد في أحد الصناديق الخشبية في أحد أرفف الكتب تحقيق الشخصية القديم الخاص بريتشارد، وبطاقة التأمين الصحي القديمة خاصته، في عام 1990 أصبح فجأة مواطنًا لدولة أخرى، إلا أن المنظر الذي يراه من النافذة ظل كما هو، كانت البجعتان، اللتان يعرفهما جيدًا، تسبحان في ذلك اليوم الذي أصبح يسمى بداية منه بمواطن اتحادي بنفس الطريقة من اليسار إلى اليمين كما كانتا تفعلان في اليوم السابق على ذلك حين كان يمكن أن يُسمى مواطنا في دولة ألمانيا الديمقراطية، وبعض البط كان يجلس عند ناصية الجسر تمامًا كما كان يجلس في اليوم السابق، الجسر الذي أَحْضِرَتْ لبنائه وقتها أعمدة خشبية من سكك حديد الرايخ الألماني، كان على سكك حديد الرايخ الألماني أن تحتفظ باسمها الفاشي -أيضًا- في الجمهورية الشيوعية، كان يتعلق الأمر بنقل الملكية وبعض الإجراءات الرسمية، هل تسمية الأشياء تُحدث فرقًا؟ عندما قرأ ريتشارد لأول مرة على الإنترنت في سياق قضية اللاجئين كلمة „شهادة افتراضية" Fiktionsbescheinigung ظن بداية أن

المصطلح مأخوذ من عالم الأدب، أي الكتابة الخيالية، فالكلمة تعني بالإنجليزية الخيال fiction، ولكن بدت له احتمالية الأمر بعيدة أن يكون المراد منها منح الأدباء من بين اللاجئين شهادة تمكنهم من خوض غمار سوق الكتب الدولي بصورة أسهل، ولكنه فهم سريعًا أن الأمر يتعلق بشهادة تثبت أن شخصًا لا يملك الحق بعد في تسمية نفسه لاجئًا، موجودٌ بالفعل، ولا تنبني على مثل تلك الشهادة الافتراضية أي حقوق.

لم يكن قد ظهر للنزاع بين الحزبين - حزب ممثِل الحكومة ذي الشعر الأشقر المبعثر، وحزب رشيد المتحدث باسم الآخرين - أي حل في الأفق، وكان النقاش محصورًا في الترجمة يتأرجح بين هنا وهناك، وإذا بمدير النُزل يدخل فجأة وكأنه فارس يحمل رسالة ويقول إنه قد تلقى قبل قليل خبرًا بوجود حالتيٌ جدري مائي في البيت، وبالتالي لم يعد هناك داعٍ للاستمرار في المناقشة ذلك اليوم، فالقانون ينص على إلغاء الانتقال إلى بيت آخر طيلة فترة الحضانة، لم يكن الأفارقة يعرفون ما هو الجدري المائي، وانتشر القلق بينهم، هل ستتخلص الحكومة منهم عن طريق العدوى بمرض شيطاني؟ تساءل صاحب الشعر الأشقر المبعثر في نفسه إذا كان الخبر صحيحًا، أم أن مدير البيت قد دبر شيئًا مع السود ويريد فقط مساعدتهم على كسب الوقت، في حين رأى مدير البيت في انتشار المرض تهديدًا حقيقيًا لبداية أعمال الإصلاح والترميم، وتساءل في نفسه كيف يمكن أن يصاب رجال ناضجون فجأة بمرض من أمراض الأطفال؟!

حين كان ريتشارد طفلًا اضطر ذات مرة في الخمسينيات أن يساعد في جمع خنفساء البطاطس من الحقول، وقتها ادعت وزارة الزراعة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية أن الأمريكان أرادوا بإلقاء الخنافس إفساد المحاصيل، كان الأطفال يتراصون في صفوف وفي أيديهم برطمانات، وكانوا ينطلقون في الحقول لفحص كل زرعة وإلقاء الخنافس في الخل، وقد عرف ريتشارد بعد ذلك أنه في عهد النازية لم يقتصر الأمر على تشغيل التلاميذ في إفناء ذلك السلاح الأمريكي الزاحف العجيب ذي الخطوط الصفراء والسوداء، بل كانوا يكلفون بذلك -أيضًا- أعضاء كتيبة العاصفة، بل والجنود، هل استخدم الأمريكان إلقاء الخنافس كسلاح لمحاربة الفاشيين؟ ثم لمحاربة أعداء الفاشيين بعد ذلك؟ أم أن جيشًا من الخنافس قد قرر في وقت ما ببساطة أي المزروعات تروق له؟ من منظور الخنافس كان لحقل البطاطس في فترة 1941 بالتأكيد نفس اللون الأخضر لحقول البطاطس عام 53، وبعد سقوط السور، عندما قام ريتشارد بأول رحلة عمل له إلى لندن، حكى له زميل يكبره سنًا وهما يشربان الويسكي، أنه كان مضطرًا في طفولته لتمشيط الحقول الإنجليزية لمكافحة خنفساء البطاطس التي قالوا إن الألمان قد استخدموها كوسيلة للحرب البيولوجية في أثناء الحرب العالمية الثانية، كما ادعى ذلك الأستاذ الإنجليزي المتخصص في اللغة الألمانية وآدابها أن الألمان قد أجروا تجارب تتعلق بالتأثيرات الفتاكة للخنافس، وأنهم قُبيل نهاية الحرب قد ألقوا آلاف من تلك الحشرة الضارة

في حقول „بفالتس"، أي في أرضهم!، بغرض تجريبها، وفي ختام قصته قال: على أي حال أحب اللغة الألمانية ,Anyway I love the German language، ثم أخذ رشفة قوية من الويسكي، وذلك الاستنتاج الغريب هو الذي جعل ريتشارد يتذكر ذلك الحوار حتى الآن.

أما في ما يتعلق بجدري الماء، فالأمر الأكيد هو أنه عبارة عن عدوى فيروسية إذا أصابت الناضجين فإنها قد تظل لأكثر من أسبوعين معدية، لن يتم الانتقال في اليوم التالي، وهكذا يبقى أمامهم وقت للبحث عن مكان أكثر مناسبة للاجئين، وفي الطريق إلى الخارج تحدث ريتشارد مع إله البرق، رشيد، الذي كان قد هدأ، وسأله إذا كان يمكنهما أن يلتقيا في اليوم التالي لإجراء أول حوار، قال له: "لا مشكلة!"، وبدا وكأنه لا يذكر أنه قد رأى البروفيسور صباح اليوم حين خرج مغاضبًا من الغرفة.

***

18

"عيد مبارك" هكذا يُسمون العيد الذي يحتفلون به بنهاية شهر الصوم رمضان، يذهب الرجال صباحًا للصلاة الكبيرة، في حين تُعد النساء الطعام في البيوت، ثم يأكلون معًا من الظهيرة حتى المساء، يحصل الأطفال على هدية أو "عيدية"، حتى يستمتعوا بيوميِّ العيد؛ إذ يجب أن يستمتع الأطفال، حسب قول رشيد، يرتدي الجميع جلابيبهم الجديدة، كان أبي يشتري بمناسبة "العيد المبارك" قماشًا لنساء العائلة وقماشًا آخر لرجالها: "أنا وأشقائي وأبناء أشقائي، في عام 2000 اشترى لنا قماشًا أزرق، وارتديت ذلك الجلباب الأزرق يوم العيد ومعه طاقية".

جلس ريتشارد ورشيد في غرفة صغيرة ملاصقة للبوابة وبابها موصد دونهما؛ فقد فتحها لهما أحد الحراس عندما سأله ريتشارد عن مكان هادئ، جلس كلاهما في الغرفة وسط كراتين مطوية، كانت مُعدة بالفعل لعملية الانتقال، وأبراج من الكراسي المرصوصة بعضها فوق بعض، أنزل رشيد لنفسه كرسيًّا ذا كسوة حمراء بلون النبيذ، أما ريتشارد فأخذ كرسيًّا ذا كسوة صفراء.

قال رشيد: ”في العيد يتصالح المرء مع كل من تشاجر معهم طوال العام، ويزور العائلة، ويتصدق على الفقراء، هل تعرف أركان الإسلام الخمسة؟“.

هز ريتشارد رأسه بالنفي.

ـ أركان الإسلام الخمسة هي: ”أولًا الثقة في الله، ثانيًا الصلاة، ثالثًا التشارك مع الفقراء، رابعًا الصوم، وخامسًا الحج إلى مكة ولو مرة واحدة في العمر لمن استطاع إليه سبيلًا“.

فقال ريتشارد: ”نعم“.

- ”من يقتُل لا يكون مسلمًا“.

أومأ ريتشارد برأسه.

- ”مسموح للمرء أن يقتل فقط للأكل، ولكن ليس مسموحًا لك أن تقتل أحدًا ولا حتى أصغر حشرة تمر أمامك هكذا ببساطة ودون سبب، ربما يكون لحيوان مثل ذلك أطفال في البيت، ينتظرونه، لا يمكن أن نعرف، تمامًا“.

ـ فقال ريتشارد: ”نعم، بالفعل!“.

- ”ولا حتى ذبابة!“.

- ”حسنًا“.

- "من يقتُل لا يكون مسلمًا".

في الصيف يستخدم ريتشارد المكنسة الكهربائية في شفط الذباب والدبابير التي تتجمع حول طعامه؛ كما خرج ريتشارد من الكنيسة وهو في عامه الجامعي الأول.

قال رشيد: "والقرآن يذكر أن المسيح -أيضًا- نبيٌّ".

قام ريتشارد في أحد السيمنارات عن "المسيح بوصفه آخر آلهة الإغريق" بمقارنة مشهد الميلاد في الأناجيل المختلفة وفي القرآن بعضها ببعض، لذلك كان يعرف أن مريم كانت وحيدة تمامًا عندما أنجبت المسيح، لقد ولدته في "مكان قصيّ"، وتألمت بشدة حتى أنها قالت: "يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا"! لم يعرف هل فهم طلابه ما يعنيه تمني مريم ليس فقط الموت، بل أيضًا أن تُنسى؟ ولكن مثل تلك الأشياء لم يكن تدريسها ممكنًا، أشار فقط إلى أن حالة اليأس التي مرت بمريم تبعها قيام وليدها بالكلام على الفور: أي أن معجزة الكلام جاءت مباشرة من معاناة مريم، تكلم الطفل كي يُسرّي عن أمه، تحدث عن جدول ماء؛ فكان الجدول، وتحدث عن شجرة؛ فكانت الشجرة، وجدت مريم نفسها وسط طبيعة تشبه الجنة، جالسةً على حافة جدول، وفوق رأسها نخلة، فأكلت وشربت، وعندما عادت بعد ذلك بالطفل للناس مرة أخرى وسألوها من أين لها بالطفل؟ لم يكن عليها أن تقول شيئًا، فبدلا منها تكلم النبي الذي وُلد لتوِّهِ، كان طوله 54 سنتيمترًا ووزنه 3500 جرام.

ثم قال رشيد: "الجنة تحت أقدام الأمهات"، حاول ريتشارد أن يعرف نفسه إلى الرجل الجالس إلى جواره مرتديًا جلبابًا أزرق وطاقية على رأسه، أضاف رشيد: "كم أتمنى أن أرى أمي مرة أخرى قبل أن تموت، إنها الآن في السبعين من عمرها، ولكن إذا عدتُ إلى نيجريا، فلن أتمكن من العودة إلى ألمانيا مجددًا".

- "ولماذا لا تريد العودة بصورة نهائية إلى النيجر؟".

لم يُجب رشيد على السؤال، ولكنه قال: „كان أبي محبوبًا جدًا، كان الجميع يريد تزويجه بابنته، وفي آخر الأمر أصبح له خمس زوجات و24 من الأطفال، كنتُ أول أولاده بعد عشر بنات، وأمي كانت ثالث زوجاته، كنا نجلس في المساء حول مائدة كبيرة، وكان مسموحًا لي أن آكل من طبق أبي، وكل صباح، في السابعة والربع، كان أبي يجلس نصف نائم على كرسيه ونصطف نحن -أبناءه الكبار- في طابور أمامه ليعطينا مصروفًا لشراء طعام في المدرسة، يعقد السلطان استقبالا فوق منصة، ثلاث درجات تؤدي إليها، كانت المنصة مفروشة بالحرير ووسائد، وفوقها مظلة، وكأنها خيمة من حرير، فوقها طائر من ذهب بحجم الصقر، صوت قرع الطبول وأصوات أبواق الموسيقى وأبواق الصيد تصدح، أحضروا حصانين مسروجين وملجومين، وأحضروا معهما ماعزتين للحماية من الأعين الشريرة، عندما يحادث أحدهم الملك ويحصل منه على رد، كان يعري بعدها ظهره ويقذف أمام الجميع التراب على رأسه وظهره وكأنه رجل

يستحم ويقذف على نفسه الماء".

قال رشيد: „في السابعة والنصف كان يحضر سائق عربة النقل، وكنا نتسلق إلى ظهرها حيث توضع البضائع، ثم يحضر بعض أطفال الجيران ويوصلنا إلى المدرسة".

- „ماذا كانت المواد التي كنتم تدرسونها؟".
- „الإنجليزية والكيمياء، والمادة الفرعية كانت لغة الهوسا".

ذهب رشيد عندما كبر إلى مدرسة مهنية حيث درس الحدادة.

أربعٌ من إخوته كُن يدرسن في المدرسة العليا، وإحداهن تدرس في الجامعة وستصبح معلمة.

تعجب ريتشارد من أنه قد تذكر في تلك اللحظة وصف الرحلات لابن بطوطة، الذي قام برحلة في القرن الرابع عشر من المغرب عبر إفريقيا وآسيا الوسطى وصولًا إلى الصين.

لم يرتقِ صديق دراسته، فالتر، في عهد جمهورية ألمانيا الديمقراطية، إلى أكثر من منصب مفوض السفر إلى الدول الشيوعية، وقد تعلم العربية خصيصًا كي يقدم أول ترجمة ألمانية لهذا الكتاب، ولكن إلى أين لعل مسودة ترجمة فالتر قد وصلت بعد موته؟ على أي حال لم تظهر تلك الترجمة؛ لأن دار النشر التي كانت تنتوي نشرها قد أفلست بعد سقوط السور مباشرة، ساعد ريتشارد فالتر في ذلك الوقت في تصحيح الترجمة.

24 طفلًا وخمس زوجات، كان ذلك يشبه الوضع عند فالتر، ولكن بفضل الله لم تضطر نساؤه الأربعة إلى السُكنى تحت سقف واحد، رأى ريتشارد الابن الأكبر في جنازة فالتر وصافحه وأخبره بأن ما حدث يؤسفه جدًا جدًا، إلا أن الابن نظر إليه وحدق في عينيه وسأله: „ما الذي يؤسفك؟"، سمع ريتشارد أنه بمجرد موت فالتر تفجرت النزاعات بين زوجاته السابقات وأبنائه على البيت، الذي كان ما زال لزوجته الرابعة حق السكن فيه، والآن -في الزمن الغربي- أصبح لمثل ذلك البيت قيمة، كان ابن فالتر يرتدي في جنازة أبيه بنطالًا من الجينز فاتح اللون، ممزق، وتظهر عليه آثار كثرة الغسيل، ولعل ما يُقال يكون صحيحًا، ألا وهو أن الموتى تحت التراب لا يشعرون بألم ولا يحسون بأي شيء.

حكى رشيد أن النساء يطهين معًا دائمًا في العيد، إنه أجمل يوم لدينا، ويجب أن يأكل المرء فيه كثيرًا، فالمرء يحتفل فيه بنهاية الصوم، كما يتم على مدار أسابيع قبلها ترتيب البيت تنظيفه، من أعلاه إلى أدناه، في عام 2000 كان القماش الذي اشتراه أبونا لجلابيب العيد أزرق اللون، فجأة عرف ريتشارد أن عليه أن يعرف كل شيء: يجب على رشيد أن يحكي له عن كل وجبة وضعت على تلك المائدة التي كانوا يعدوها للعيد، الباذنجان؟ الطماطم؟ البيبيروني في الزيت؟ السمك؟ الأرز؟ البطاطا؟ الموز؟ الدجاج ولحم الضأن؟ هل كانت النساء يجلسن معًا؟ أم كانت كل واحدة منهن تجلس مع أولادها في مكان ما إلى المائدة؟ هل كانت المائدة توضع داخل البيت، في الشرفة؟ أم في الخلاء؟ أراد ريتشارد لو لم

يتوقف عن طرح الأسئلة، هل كانت لديهم „فوانيس" ذات زجاج ملون يضيئونها في المساء؟ وهل كان الأطفال بعد الطعام حين يحل الظلام يعلقون تلك الفوانيس في عصي طويلة ويطوفون بها عبر الحي؟ هل كانوا يغنون وهم يفعلون ذلك؟ والكبار، هل كانوا يزورون أقاربهم؟ وهل كانوا يخرجون في اليوم التالي في نزهة مع العائلة كلها؟

ولكن رشيد قال في آخر الأمر: „ولكن تلك الأمسية وذلك اليوم الذي كان يتلوها لم يعودا يأتيان طوال العام".

قال رشيد: „كنا -نحن معشر الرجال- ننتهي من الصلاة قرابة الحادية عشرة قبل الظهر، وكان مكان الصلاة يبعد عن بيتنا تقريبًا نفس المسافة مثل التي تفصل جسر أوبرباوم عن ألكس، كنا نريد الذهاب إلى البيت إلى عائلاتنا كي نبدأ تناول طعام العيد، عندها هاجمونا بالقضبان الحديدية والسكاكين والمناجل، كان أخي يشرع في إدارة محرك السيارة، وإذا بهم يسرعون إلينا، فرقونا بعضنا عن بعض وبدؤوا في ضربنا بالقضبان الحديدية وفي طعننا بالسكاكين والمناجل، ثم دفعوا أبي في سيارة وركب ثلاثة منهم وانطلقوا به، وكان ذلك آخر ما رأيت منه، كان أبي قد احتفل قبلها بثلاثة أسابيع بعيد ميلاده الثاني والسبعين".

كانت يدا رشيد قويتين شديدتي السواد، وكان يضعهما على ركبتيه، فقط أطراف أصابعه كانت صغيرة والجلد تحت الأظافر

وردي اللون.

- „أحرقوه داخل سيارته خارج المدينة".

جلس ريتشارد ورشيد لبرهة صامتين، ثم سأل ريتشارد إذا كانوا عرفوا مَن فعل ذلك؟

ولكن رشيد لم يُجب.

بعد لحظات قال: „كان ذلك شديد السوء، لماذا يقتل أناسٌ آخرين؟".

فكر ريتشارد في أن هذا السؤال هو الأكثر صحة.

كانت لدى رشيد ندبة فوق عينه، وكان يعرج، كما لاحظ ريتشارد بالأمس.

حاولنا الهرب، إخواني وأبناؤهم وأعمامي، كان الجميع يجري ويصرخ، امتلأ المكان بأشخاص ملقين على الأرض، تلطخ كل شيء بالدماء، أحد إخواني الصغار اختبأ في بادئ الأمر خلف شجرة مانجو عند طرف المكان، وعندما حل الظلام هرع إلى النهر واختبأ هناك في الماء، ظل من خوفه طوال الليل في الماء، فقد حكى لنا بعد ذلك أنهم كانوا يقتلون الناس عند ضفة النهر أيضًا، لقد رأى كل شيء.

ثم قال رشيد: ما زلت أذكر رائحة الدخان عندما كنت أجري

وأجري، رأيت البيوت وهي تبدأ في الاحتراق، من جسر أوبرباوم إلى ألكس، سانت مارتن، سانت مارتن، سانت مارتن ركب عبر الثلوج والرياح، حصانه، الذي حمله بعيدًا بسرعة، سانت مارتن ركب بشجاعة وخفة، سترته تغطيه بسهولة وبشكل جيد.

في عام 2000 حُرم أطفال مدينة كادونا النيجيرية، الذين لم يدرك ريتشارد وجودهم سوى قبل أسبوعين فقط، من موكبهم التقليدي بالفوانيس ليلة العيد، في موكب الفوانيس الأخير بمناسبة عيد سانت مارتين كان الأطفال هنا يتجولون وهم يغنون حول ميدان شلوس، أما الصغيرة القادمة من دويسبورج، التي كانت تسكن منذ ثلاث سنوات في نفس البيت المستأجر في شارع ريتشارد، والتي كانت تخاطبه بطريقة غريبة في الأشهر الماضية عندما كانت تلتقيه وهو يتسوق أو يلقي بالزجاجات الفارغة في الحاوية، والتي كانت أحيانا تقف على الرصيف تتشاجر مع شخص غير مرئي، كانت تلك الفتاة تختبئ خلف الشجيرات المظلمة عند طرف الميدان عندما كان الأطفال يغنون وهم يطوفون حول ميدان شلوس، وكانت تنوح مثل الذئب العاوي.

- جرينا بأسرع ما استطعنا إلى البيت كي نحذر النساء، أخذَت النساءُ الأطفالَ وانطلقن إلى بعض الأصدقاء أو إلى أهليهن، واختبأت أمي -أيضًا- عند والديها في القرية، أخذتُ فقط جلبابًا من الخزانة ووضعته في كيس، ونسيت البنطال الخاص به من شدة تعجلي، بعد أقل من نصف

ساعة لم يبقَ في البيت أحد، عندما ذهبنا كان طعام العيد على المائدة لم تمسسه يد، لم نغلق حتى الباب عندما ذهبنا، ولمَ؟ كان البيت مرتبًا ونظيفًا للعيد، من أعلاه إلى أدناه، ولكن النار أتت عليه بعد ساعات قليلة. بين عشية وضحاها لم يعد لي أب ولا عائلة ولا بيت ولا ورشة، بين عشية وضحاها ضاعت كل حياتنا التي كنا نعيشها حتى ذلك الوقت، لم نتمكن حتى من دفن أبي، ذهبت مرة أخرى إلى أمي كي أودعها ثم سافرت إلى النيجر، كانت تلك آخر مرة يرى بعضنا بعضًا فيها؛ قبل ثلاث عشرة سنة، في كل مرة تسألني أمي فيها وأنا أهاتفها عن أحوالي أقول: بخير.

خطر ببال ريتشارد أن رشيد قال في بداية الحديث إن الجنة تحت أقدام الأمهات.

قال رشيد: „لا أستطيع رؤية مزيد من الدماء".

وعندها فقط اتضح لريتشارد أن رشيد احتاج ساعتين للإجابة على السؤال الذي طرحه عليه في البداية.

وكأن حياتنا قد بُترت منا في تلك الليلة بهذه البساطة.

ثم قال رشيد: „حسنًا".

- „حسنا".

ابتسم الحارسان عندما خرج ريتشارد ورشيد من الغرفة وقالا:

لقد كان ذلك حديثًا طويلًا. ـ فقال ريتشارد: نعم.

في طريقه إلى البيت توقف عند متجر الورود واشترى باقة عملاقة من زهور النجمة الملونة، لم يشترِ لنفسه ورودًا من قبل، وضعها في زهرية كبيرة شفافة على المنضدة في المطبخ؛ وأصبح الأمر وكأن زوجته ما زالت موجودة، أو عشيقته.

تذكر الآن أنه استيقظ في الليلة السابقة، ليس بغرض دخول الحمام، ولكنه مرَّ على غرف البيت الواحدة تلو الأخرى، فقط هكذا دون أن يبحث عن شيء، هكذا فقط، في الظلام، تجوَّل عبر بيته وكأنه يتجول عبر متحف، وكأنه لم يعد ينتمي إليه، شعر فجأة وهو يمر بين قطع الأثاث، التي يعرف بعضها منذ طفولته، بأن حياته كلها، غرفة وراء غرفة، غريبة عنه تمامًا وكأنها مجرة بعيدة، انتهت به جولته في المطبخ، حيث تذكر وهو يشعر بخجل كبير كيف جلس في الليلة السابقة على كرسي هناك وأخذ ينوح مثل الطريد، دون أن يعلم لذلك سببًا، ماذا أصابه؟ لم يعد يعرف، أم أن كل ذلك كان مجرد حُلم؟

ولكن على المرء أن يأكل، هكذا كانت تقول أمه دائمًا.

أخذ علبة من على الرف، حساء البازلاء، لا تحتاج إلى وقت طويل، وبعدها وضع الطبق في غسالة الصحون، ما زال سعيدًا بوجودها، إذ لم تكن هناك غسالات صحون في الشرق، ألمانيا جميلة: Deutschland is beautiful!

وقبل أن يحل الظلام خرج قليلًا إلى الحديقة، حيث يمكن كنس أوراق الشجر المتساقطة من المزراب ومن فوق السقف الأمامي، ما دام يمكنه رؤية أي شيء، كان أمرًا جيدًا أن يكون سُلمه الجديد طويلًا هكذا.

ثم جلس في المساء إلى طاولة مكتبه لتدوين بعض الملاحظات. بداية جلس لبرهة ساكنًا، وأخيرًا أصبح أمامه ثلاث جُمل قصيرة مكتوبة على الورقة:

"كانت توجد طفولة، كانت توجد حياة يومية، كان يوجد شباب". وتحتها بين قوسين: (رشيد = الأوليمبي = مفرق ضربات البرق).

كان مخروط الضوء المنبعث من مصباح طاولته بمثابة خشبة المسرح للحروف، وظل كذلك حتى بعد أن قام ريتشارد إلى الحمام ليفرّش أسنانه.

***

19

كان من المفترض في اليوم التالي أن يكون يوم درس اللغة الألمانية، ولكنه عندما وصل إلى هناك أخبره الحارس أنه يوم صرف النقود، قال له الرجل المرتدي زيًّا رسميًّا خياليًّا: كلهم بالخارج، كان أمرًا جيدًا أن بحوزة ريتشارد قائمة التسوق:

مسحوق غسيل المواعين.

لبنة.

1 زبد.

مربى (عنب الثعلب الأسود؟ توت بري؟).

لحم خنزير.

خس.

طماطم، متوسطة الحجم.

مياه معدنية V2.

خبز مختلط.

في أثناء التسوق التقى سيلفيا، زوجة صديقه، نعم، على غير

المتوقع ليس لديه اليوم ما يفعله، هكذا، على غير المتوقع؟ أنت بالتأكيد تكتب وعليك تقديم المحاضرات؟ فقال ريتشارد: ليس بصورة مباشرة، ولكنها قصة طويلة.

سألته إن كان يود الآن زيارتهم وتناول الطعام معهم، إذ ما زال هناك الكثير من الطعام المتبقي من يوم عيد الميلاد؛ فأجابها ريتشارد إلى ذلك، ولكن كان عليه أن يوصل المشتريات أولًا إلى البيت: أراكم بعد قليل! حسنًا!

سأل ديتلف، ريتشارد، الذي كان لا يزال ينظف حذاءه قبل الدخول: ما الذي تعكف على عمله حاليًا؟" ـ كان ديتلف حتى قبل خمسة أعوام يعمل مهندس ديكور لدى إحدى الشركات التي تصمم أثاث المحلات وتُصنعه، ومنذ ذلك الوقت وهو في المعاش المبكر، بعد سقوط الجدار كان من حُسن طالعه أنه كان يجيد اللغة الروسية، فقد أهَلَّهُ ذلك لأن يصبح „الرجل القادم من الغرب" بالنسبة لرجال الأعمال الجدد في موسكو، وأن يكون بالنسبة لأصحاب الأعمال الغربيين „الشرقي السابق" الذي كان يجيد التفاهم مع الروس، سيلفيا، التي انتقلت إلى ذلك البيت حين كانت تعقد شعرها على هيئة ذيل حصان فتبدو كفتاة صغيرة، كانت تعمل حتى سقوط سور برلين في رصّ الحروف في مطبعة، ولكنها فقدت عملها بعد ذلك، وبعد سنوات اتضح أن سقوط السور قد تزامن بالنسبة لها فعليًا مع بداية عصر الكمبيوتر؛ لأن كل تلك التقنيات الحديثة دخلت السوق بعد فترة وجيزة، ومنذ

ذلك الوقت لم تعد المهنة التي تعلمتها موجودة، اللهم إلا في المتاحف، وبعد أن فقد زوجها عمله استغلا مدخراتهما في السفر في رحلات إلى فينسيا والمغرب وهامبورج، كما زارا الأهرامات وبرج إيفل وستونهنج والساحل الكرواتي، واستمر ذلك حتى قبل عام عندما مرضت سيلفيا، سمعها في عيد ميلاد صديقه وهي تقول لأول مرة: أشعر بالسعادة لأني بالكاد استطعت أن أدرك من العالم كل تلك الأشياء. ـ وعند كلمة „بالكاد" نظر دون قصد إلى صديقه، الذي سأله: أتريد كوبًا من الجعة؟.

- ماذا، هنا في بيت المسنين تم إيواء أفارقة؟ لم أعرف بذلك من قبل.

- نعم، لقد رأيت بعضهم، أحيانًا وأنا أتسوق، وكنت أعجب لذلك.

أبولو وتريستان والأوليمبي أصبح لهم أخيرًا مكان في غرفة معيشة ألمانية فيها أريكة وتلفاز وصحن فاكهة وأرفف للكتب.

في حين كان ريتشارد يتحدث عن مواجهات الطوارق مع جماعة القاعدة في صحراء مالي والنيجر، رأى في الحديقة في الخارج سنجابًا يجري، وعندما حكى عن أن أبا تريستان لم يرفع الستائر في الجانب الجنوبي من بيته في طرابلس مرة أخرى إلا بعد حلول المساء وقع نظره على جريدة التلفاز لهذا الأسبوع التي كانت موضوعة على الطاولة الصغيرة بجانب الأريكة، وعندما

تغيرت أرقام الساعة الرقمية الموضوعة في الرف بين الكتب من 12.36 إلى 12:37 كان قد انتهى لتوِّه من سرد قصة الجلباب الأزرق الذي كان يرتديه رشيد، مفرق ضربات البرق، في العيد، وظل يرتديه وهو يهرب.

كان صديقه يقول بين الحين والآخر وهو يحكي: „أفهم"، ولأن ريتشارد كان قد انتهى من تقديم تقريره، لم يتبقَ له إلا الصمت لحظات ثم الإيماء برأسه فقط.

ثم سأله أخيرًا: أي أنهم غير مسموح لهم بالعمل إلا في إيطاليا؟.

- بالضبط.
- حيث لا يوجد عمل!.
- بالضبط
- والمال الذي يحصلون عليه هنا؟.
- سيتم دفعه عدة أشهر فقط، حتى يتم بصورة نهائية إثبات أن ألمانيا غير مختصة بأمرهم.
- وبعد ذلك؟.
- ستتم إعادتهم إلى إيطاليا.
- حيث لا يوجد عمل!.
- بالضبط.

فقالت سيلفيا: إن حالنا هنا جيد بحق.

فكر ريتشارد في أبيه، الذي كان جنديًا ألمانيًا في النرويج وروسيا كي يصنع ويلات الحرب، فكر ديتلف في أمه التي كانت إحدى نساء أطلال الحرب وكانت تقطع الأحجار لإعادة البناء بنفس العناية التي كانت تضفر بها شعرها وهي فتاة ألمانية، فكرت سيلفيا في جدها الذي أرسل لزوجته ملابس أطفال روسية ملطخة بالدماء لتقدمها لأطفالهما، يمكن إزالة البقع بسهولة باستخدام الماء البارد، الإنجاز الذي قدمه أجدادهم وآباؤهم وجداتهم وأمهاتهم كان التدمير، إن شئنا أن نسميه كذلك، خلق مساحة فارغة، كان على الأبناء والأحفاد تشكيلها من جديد، أما إنجاز جيلهم...؟!

ما السبب الذي يجعل حالهم أفضل كثيرًا من حال أولئك الأفارقة الثلاثة الذين كان ريتشارد يحكي عنهم لتوه؟ كان الثلاثة أيضًا، الجالسون على الأريكة، من أبناء الحرب، لذلك كانوا يعرفون أن تتابع ما قبل وما بعد عادة ما يتبع قوانين أخرى غير الثواب والعقاب، فكر ريتشارد في أن التأثيرات لا تكون مباشرة، بل غير مباشرة، وهو الأمر الذي فكر فيه كثيرًا في السنوات الماضية، كانت لدى الأمريكان خططهم بالنسبة لنصف ألمانيا، أما الروس فكانت لهم خططهم للنصف الآخر، ولم يكن الرخاء المادي على جانب أو الاقتصاد الموجّه على الجانب الآخر له لتوضحه أي سمة شخصية خاصة لدى المواطنين الألمان، الذين كانوا يمثلون المادة

الخام للتجارب السياسية، ما الذي يمكن أن يفخر به المرء إذن؟ ما الذي يمكنهم اعتباره الأفضل الذي قدموه أكثر من الآخرين الأسوأ؟ لقد عملوا طوال حياتهم، هذه حقيقة، ولكن لم يكن هناك من يمنعهم من ذلك، ولأنهم أقاربهم الآتون من الشرق فقد أخذهم إخوانهم وأخواتهم على الجانب الأغنى من السور بالأحضان، لقد ولدوا بتلك الدماء التي تجمعهم والتي لم يكن لهم خيار فيها، كانت زوجة ابن مونيكا تتعجب كلما أرضعت طفلها الذي ولد بعد الوحدة من أن كوب الكوكاكولا الذي تشربه يتحول في جسدها إلى لبن، ولم يكن أحد يعرف تحديدًا إذا كان ما يجري في عروقها دم؟ أم كوكاكولا؟ أم لبن؟ وكذلك لم يكن أحدهم ليعرف كيف أن حتى أفقر أصدقائهم يملك في مطبخه غسالة صحون ولديه زجاجات نبيذ على الرف وزجاج مزدوج على النوافذ، وإن لم يكن رغد عيشهم من كسب يدهم، فبالتالي لا يتحمل اللاجئون وزر سوء حالهم، كان من الممكن أن يكون الوضع عكس ذلك، شرد ذهنه للحظات في هذه الفكرة وجلس مشدوهًا فاتحًا فمه وعارضًا أسنانه القبيحة لكل راءٍ.

قالت سيلفيا: أتخيل دائمًا أننا نضطر -أيضًا- للهرب، وأننا لا نجد من يساعدنا.

فقال ديتلف: انطلاقًا محضًا من قانون الاحتمالية.

فسألت سيلفيا: وأين عسانا أن نذهب؟.

فقال ريتشارد: لقد فكرت ذات مرة في وضع دراجتي البخارية على الضفة الأخرى من البحيرة، وإذا اضطررنا للهرب، أذهب بقارب التجديف إلى هناك ثم أركب دراجتي البخارية وأنطلق نحو الشرق، فبالتأكيد لن يهرب أحد إلى هناك، ما زال هناك سلام.

قالت سيلفيا: بالمناسبة دعني أسألك، هل ما زال الرجل قابعًا في قعر البحيرة؟ أم لا؟

- نعم، ما زال هناك؟

أمام النافذة كانت مطفأة السجائر موضوعة في برد الشرفة، وقد تجمدت، منذ تشخيص حالتها قبل ثلاثة أرباع السنة أقلعتْ سيلفيا عن التدخين.

وقف ديتلف وقال: أحضر شيئًا لنأكله، ما زال لدينا ما تبقى من صدور البط والحساء.

20

قال السباك ينبغي عدم تلميع خلاطات الصنابير بالفوط المصنوعة من الألياف الدقيقة؛ لأنها تفسد الكسوة المعدنية التي تجعلها تبدو مثل الكروم، حسنًا، لم يكن تدفق الماء جيدًا على أي حال، يوم الجمعة بعد الواحدة يفعل كل شخص ما يود، وكان اليوم الجمعة والساعة الواحدة، جمع الرجل أدواته وطلب التوقيع على استمارة.

عندما وصل ريتشارد إلى بيت المسنين قيل له: لم يحالفك الحظ اليوم، فكل يوم جمعة يذهب السود وقت الظهيرة للصلاة.

- لا يوجد أي شخص هنا؟.
- بلى، بعض المسيحيين.

فقال ريتشارد: إذن سأحاول. ـ لم يفتح أحد عندما طرق باب الغرفة 2017، ولكنَّ شابًا فتح له عندما طرق باب الغرفة 2019، وبدا نائمًا، كانت تعلو ذقنه شعيرات خفيفة، لعله أحد الرجال الذين كانوا نائمين في أسرَّتهم عندما زار ريتشارد أبولو أول مرة.

شرح ريتشارد مجددًا من يكون وما ينوي، فقال الشاب:

- حسنًا.

- إذن، هل ترغب في التحدث إليَّ؟.

هز الشاب كتفيه.

- هل تفهم الإنجليزية؟

فقال الشاب: نعم. ـ ولكنه لم يُعطِ أي رد فعل آخر يدعو ريتشارد به للدخول، ربما كان خائفًا من التواجد مع ريتشارد وحدهما في غرفة؟

قال ريتشارد: هل ترغب في الخروج، إلى مقهى؟

هز الشاب كتفيه وحسب.

فكر ريتشارد بمزيد من الشعور بالقلق على الجانبين، جانبه وربما ـ أيضًا - على جانب اللاجئ، ولكن في اللحظة التي همَّ فيها ريتشارد بالانصراف تقدم الشاب خطوة للأمام وأومأ لريتشارد، ثم أغلق الباب وتبعه ببساطة كما هو، دون أن يصفف شعره أو يأخذ أي حقيبة وهو يرتدي سترة خفيفة جدًّا.

لم يكن ريتشارد يمانع تمامًا في مغادرة البيت لإجراء حوار، فالغرف التي عرفها حتى الآن كانت الأشباح تسكنها حتى نهاية حوافها، كان يعلم أن في الغرفة التالية - 2020 - توجد ستائر معلقة أمام النافذة، ذات مربعات زرقاء ومكوية، ولكن باقي

محتويات الغرفة قد أغارت عليها جماعات مدمرة، تحطم السرير وانكفأت خزانة الملابس، والبعض يدوس على الملابس وأحدهم يقذف أواني الطعام إلى الجدار ويحطمها، وحدها الستائر، التي ركبها أحد الأحفاد لجدته ذات الـ 102 عام ظلت سالمة ومكوية وتلقي بظلالها على غرفة عند بوابات برلين، أما في الغرفة 2017 فكانت أشباح شرائح السمك تنتظر الغذاء، ولكن ما زال الركاب الثمانمائة أحياء، وبالأسفل عند المخرج، في غرفة المخزن، الذي مرَّ ريتشارد والشاب ذو السترة الخفيفة لتوهما بجوارها، كانت الكراسي الخشبية والحديدية ذات الكسوة الصفراء والحمراء تتراص بعضها فوق بعض كالأبراج تنتظر العائلة الكبيرة التي ستجتمع بعد قليل للاحتفال بالعيد -عيد الفطر- 5 نساء و24 من البنات والبنين، من بينهم رشيد، ووالد رشيد.

لا توجد مشكلة في الخروج مع الشاب إذا كتب اسمه أولًا في هذه القائمة.

لا يوجد في مثل هذه الضاحية من برلين الكثير من المقاهي، توسع أحد المخابز بعد إعادة توحيد ألمانيا وأصبح له بناء زجاجي أمامي وأصبح يبيع كعكة التوت والإكلير وكعكة الكريمة من وراء منصة طولها 5.8 مترًا، الزبائن كبار السن كانوا لا يزالون في تلك الساعة قابعين في بيوتهم تحت أغطيتهم المصنوعة من أشعار الإبل وينامون القيلولة، لم يكن هناك سوى زبون واحد يجلس بالقرب من المنصة أمام فنجان قهوة وهو يقرأ صحيفة، جلس

ريتشارد مع الشاب الذي يريد محادثته في أبعد مكان من ذلك الرجل، جلسا إلى طاولة عند حافة الغرفة الزجاجية وهما ينظران إلى الخارج.

- ماذا تريد أن تشرب؟ القهوة؟ الشاي؟ الكاكاو؟ العصير؟ أم الماء؟

هز الشاب رأسه.

- هل تريد كعكا؟

هز الشاب رأسه.

- شايًا؟.

هز الشاب كتفيه.

- مشروب أعشاب، شايًا بنكهة الفواكه، شايًا أخضر، شايًا أسود؟ لا شيء.

- أخضر؟ أسود؟.

هز الشاب كتفيه.

- والكعك؟.

هز الشاب رأسه.

طلب ريتشارد عند المنصة شايًا أسود وكابتشينو، لم يكن

يشرب الكابتشينو في زمن جمهورية ألمانيا الديمقراطية أبدًا، ولكنه تعود عليه في السنوات الأخيرة في إيطاليا، لم يكن في الأربعين سنة السابقة يتصور أن سيكون في حياته عادة تتكون لديه وهو في إيطاليا.

- ما اسمك؟
- أوزاروبو.
- حسنًا.

أحضروا الشاي الأسود والكبتشينو برغوة اللبن وفوقها بعض الكاكاو مبعثرًا وعلى الطبق أسفل الكوب قطعة من الكعك.

- من أين أنت؟
- من النيجر، وكنت بعد ذلك عند أبي في ليبيا.

وضع ريتشارد السكر في القهوة، فاخترق رغوة اللبن إلى قاع الكوب.

- هل ما زال لديك عائلة في النيجر؟.
- أم وأخت.
- ما سن أختك؟.
- أربع عشرة سنة، تقريبًا.

قلَّب السكر.

- وما اسمها؟.

- زابينه.

- هل تتصل بهما أحيانًا؟.

- لا.

- وأبوك؟.

هز رأسه.

- هل تتحدث مع أصدقائك من ميدان أورانين عن الحرب؟.

- أحيانًا.

- هل بينهم من تعرفه من قبل، من زمن ليبيا؟

- لا، لقد فقدت جميع أصدقائي.

موسيقى خافتة في الخلفية، امرأة تمضغ الكعك، الحساب 11،60 يورو.

- رأيت كيف ماتوا، كثيرون.. كثيرون ماتوا.

غادرت المرأة المقهى مصطحبة علبة الكعك فانفتح أمامها الباب الزجاجي أوتوماتيكيًا.

لم يمس أوزاروبو الشاي، كما لم يمس ريتشارد الكبتشينو.

- الحياة مجنونة ... Life is crazy, life is crazy, life is

crazy..

تمنى ريتشارد لو عرف أي أسئلة تؤدي إلى بلاد الأجوبة الجميلة.

- هل تذهب للتنزه أحيانًا؟ ـ أعاد ريتشارد السؤال: "Walk؟"، ولكن أوزاروبو فهم السؤال خطأ: "work!".

- نعم أريد أن أعمل، أريد أن أعمل ولكن ذلك غير مسموح به.

فكر ريتشارد كيف كان يُختبر تامينو في سيمفونية موزار ويحاول صوت عند كل باب يريد فتحه منعه من ذلك بقوله: ارجِع!.

- ما هي لغة الأم خاصتك؟

- الهوسا وتيبو تيبو.

- ماذا تسمى اليد في لغة الهوسا؟.

- هانو.

- والعين؟

- إيدو.

- الشاي؟

- شاي.

- أنا؟

- ني.

- أنت؟

- كاي.

- أين كنت في إيطاليا؟

- في نابولي.

ثم قال: كان الناس في المترو يقومون من أماكنهم، ويجلسون في أماكن أخرى عندما يجلس شخص أسود بجوارهم.

- حتى إيطاليا ـ أيضًا - لم تعد منذ زمن بعيد بلد الإجابات الجميلة.

قال الشاب وهو يجذب جلده فوق ظاهر يده وكأنه يريد الخروج من ذلك الغلاف المزعج: حسنًا، ثم نظر عبر النافذة إلى الخارج إلى الأشجار التي كانت بعض الأوراق الصفراء لا تزال معلقة بها، كانت عينه اليسرى مصابة بطريقة ما، ولم يلحظ ريتشارد ذلك إلا الآن؛ لأن الشاب لم يرفع نظره إلا الآن.

- ماذا أصاب عينك؟

هز رأسه، لم ينبس ببنت شفة، نظر مجددًا إلى الخارج.

- كم سنك؟

- ثمانية عشر.

- ومنذ كم سنة ترتحل عبر أوربا؟

- منذ ثلاث سنوات.

- هل تفكر أحيانًا في مستقبلك؟

- المستقبل؟

لم يكن الفتى قد ارتشف من الشاي حتى تلك اللحظة رشفة واحدة، قال الفتى: "الحياة مجنونة ... Life is crazy, life is crazy, life is crazy"، ثم سكت.

بدت رغوة اللبن منذ فترة طويلة كشيء خطأ تمامًا.

- أريد العودة لأصدقائي.

لم يعرف ريتشارد إن كان أوزاروبو يعني أصدقاءه في المسكن، أم الأموات، فشل ريتشارد مع ذلك الفتى، ولكن الأمر لا يتعلق بفشله، ولا به هو شخصيًا.

قالت السيدة: الحساب 4.70 يورو. ـ ثم ظلت تنظر في صمت إلى الطاولة التي كان عليها المشروبان لم يمسهما أحد.

سار الفتى صامتًا بجواره حتى وصلا إلى التقاطع المؤدي إلى بيت ريتشارد، ولكن عندما وقف ريتشارد ليودعه سأله فجأة وهو ينظر إليه لأول مرة: هل تؤمن بالإله؟

تغير ضوء الإشارة عند التقاطع إلى اللون الأحمر، ولذلك هدأ كل

شيء في الشارع، فقال ريتشارد: في الحقيقة لا. ـ وكانت كلمة "في الحقيقة" بمثابة حل وسط.

قال الفتى: لا أفهم كيف يمكن لأحد ألا يؤمن بالإله، عندما تكون في أزمة تؤمن بالله، الحياة مجنونة، عندما أمرض لا تشفيني المستشفى، ولكن الله، الله هو الذي أنقذني وليس الآخرين، فبالتأكيد لديه خطط لي، أليس كذلك؟

وظل ينظر إلى ريتشارد بعينه السليمة وبعينه التي أصابها خطب ما؛ ولكن عندما لم يجبه ريتشارد انكفأ مجددًا على نفسه، كانت سترته خفيفة جدًّا بالنظر إلى الطقس في شهر أكتوبر في ألمانيا، وعاد ليحدق مجددًا في الأدغال الخفية التي يمتلئ بها الهواء أمام ناظريه دون غيره.

أدى ريتشارد قبل ثلاثي عامًا دورة إسعافات أولية في إطار اختبار القيادة، كانت عملية تدليك القلب لإنعاشه مجهدة أكثر مما كان يظن.

ثم سأل الفتى: هل يوجد ما تود فعله لو أتيحت لك الفرصة لذلك؟ ـ وجاء سؤاله وكأن له مصلحة شخصية في استعادة ذلك الفتى للحياة مجددًا، وكأنه هو شخصيًا بصدد فقد شيء ما إذا استسلم ذلك الفتى الآتي من النيجر الذي يعرفه بالكاد، ثم أعاد السؤال: شيء تحب فعله إذا أتيح لك الاختيار؟ ـ فلعل التمني وحده يكون كفيلًا باستعادته للحياة مرة أخرى، أن تجعل أحدهم

يرغب في التنفس، الباقي سيحدث من تلقاء نفسه.

فقال أوزاروبو: نعم.

فسأله ريتشارد: ماذا؟

فقال الفتى: عزف البيانو.

تغير لون ضوء الإشارة مجددًا إلى الأخضر.

ظن ريتشارد بدايةً أنه أخطأ السمع: "عزف البيانو؟"، ولكن أوزاروبو أكد ما قال:

- نعم، بيانو.

لم يكن بوسع ريتشارد سوى أن يشرح أن لديه بيانو في البيت، وأن بإمكان أوزاروبو أن يأتي إليه كلما أراد العزف على البيانو، ولن يكون مضطرًا لدفع تذكرة دخول، كما ظن الفتى، ربما يوم الإثنين؟ أو الثلاثاء؟ إذا الأربعاء.

21

أتى يوم السبت صديقه بيتر، عالم الآثار، ليزوره وقال: لحسن الحظ ما زال الجو دافئًا للقيام بأعمال التنقيب.

كان يوجد في إفطار يوم الأحد بيضة، أخذ ريتشارد على نفسه عهدًا منذ فترة أن يقوم بدراسة تلك الورقة التي تسمى اتفاقية، والتي عقدتها الحكومة مع الأفارقة كي يقوموا بإخلاء ميدان أورانين أمام سكان برلين، خطط لتمضية يوم كامل في ذلك، ولكن مفاجأته كانت كبيرة عندما اكتشف أن الوثيقة لا تتعدَّى ثلاثة أرباع الصفحة، حتى عقود الهاتف الخاصة به كانت أطول من ذلك، كما يوجد ملفان - على أحد أرفف مكتبه - ممتلئان بمكاتبات شراء بيته، عندما تكون مكاتبة في ألمانيا قصيرة هكذا فإن أقل ما يمكن قوله إن هذا أمر عجيب جدًّا، إننا متفقون على أن ظروف اللاجئين الذين يبحثون عن الحماية في ألمانيا وأوربا يجب تحسينها، كانت هذه الجملة الأولى فيما يسمى بوثيقة الاتفاق، أي أن هناك طرفين يريدان الاتفاق ويعلنان من البداية أنهما متفقين، كان يفكر أحيانًا في أنه عندما يقوم بدراسة نص فإنه لا يفعل سوى البحث عن أدلة، مثلًا: من المقصود أساسًا بــ»نحن»؟.

يتم بصورة دائمة إنهاء المعسكر الذي يمثل انتهاكًا للوضع القابل للموافقة كشكل للاعتراض، يقوم اللاجئون بأنفسهم بتنظيم تفكيك جميع الخيام وأماكن الإقامة ويعملوا على الحفاظ على هذا الوضع بصورة دائمة.

أعجبه بصورة خاصة قول: الوضع القانوني القابل للموافقة، هل كان يمكن تسمية علاقته بعشيقته علاقة قابلة للزواج؟ وهل كانت تلك التسمية وحدها لتشعر عشيقته بالرضا وهي التي كانت تبكي على الأقل مرة كل أسبوع لأنه سيعود لزوجته على العشاء؟ أم أن البكاء كان يعد انتهاكا لقابلية الزواج؟

فضلًا عن ذلك تسلل قول الانسحاب «بصورة دائمة» مرتين في تلك الفقرة، واللغة لا تكون أبدًا ابنة الصدفة، هذا ما حاول دائمًا إفهامه لطلابه، وقد تعلم ذلك بنفسه بصورة متجددة يومًا بعد يوم وهو يدرس ألمانيا الجديدة، أو ما يسمى بالجهاز المركزي للحزب، كانت تسمية الجهاز المركزي في حد ذاتها مدعاة للشك، إذا كان يجب على اللاجئين تحطيم اعتراضهم إلى قطع صغيرة أمام أعين جميع الناظرين، وماذا كان المقابل؟

كان ريتشارد لا زال يذكر جيدًا كيف كانت تأتيه رسائل في الفترة الأولى يوميًا: لقد ربحت! سيارة مرسيدس! 500 مليون! فيلا! النموذج الورقي الصغير ذو الكتابة المُذهبة «فيلا ريتشارد» لا يزال معلقًا فوق مكتبه شاهدًا على فقدانه العذرية الشيوعية.

تقدم رئيسة الحكومة الدعم في إطار مسئوليتها السياسية، يتبع ذلك فحص لوضع كل حالة مفردة في إطار كل الإمكانات القانونية المتاحة، الترحيل في أثناء فترة الفحص مستبعد.

ومن المعروف بداهةً أن كل إطار ما هو إلا حد من الحدود، وفترة الفحص، إن عاجلًا أو آجلًا، ستنقضي، أي أنهم يستبدلون هنا ميعادًا محتومًا بالأبدية، يحصلون في مقابل فض حقيقي لمكان حقيقي بصورة دائمة على كلمة هلامية اسمها الأمل: دعم ومصاحبة لعملية تطوير فرص العمل، ورغم غربته عن عالم المحامين إلا أنه كان يشعر أحيانًا بقرابة تجمعه بهم في ما يتعلق بعشقه للتعبير بدقة أكبر عن الأمور المختلفة من خلال اللغة، إذا فالنص يقول بعيدًا عن محتوى فرادى الجُمل شيئًا آخر: ليس بمقدور اللاجئين توكيل محامي كما أنهم لا يفهمون اللغة الألمانية، الشيء الوحيد الذي يبقيهم على قيد الحياة هو الأمل، والأمل رخيص.

22

يوم الإثنين يوجد مرة أخرى درس اللغة الألمانية، ارتدى ريتشارد قميصه اللبني.

كانت المعلمة تقوم برص كل رجلين من الرجال بعضهما خلف بعض، بعضهما أمام بعض، بعضهما جانب بعض، لتشرح قاعدة الجر والنصب.

- لمن الشمس؟

فأجابها أحدهم: الشمس ملك لله!

وقال آخر: الشمس لنا!

- لمن علي؟

- علي ملك نفسه.

ضحكت المعلمة، وكانت بين الحين والآخر ترحب بهذا أو ذاك ممن يأتون متأخرين، تكتب على السبورة، تنظر لما يكتبه هذا أو ذاك، وكانت تتحرك وسط جميع الرجال وكأنها مدربة سِرك محنكة، ثم انتهى الدرس بعد ساعتين مرتا كمر السحاب.

- إن كنت ترغب يمكنك التدريس للمتقدمين، فكما ترى المستويات متفاوتة جدًا.

استخدم اليوم عطر بعد الحلاقة الجديد.

- سأفكر في الأمر.

وبالفعل قالت وداعًا ورحلت.

يوم الثلاثاء سار ريتشارد مرة أخرى عبر الردهة، التي توجد في آخرها نافذة موضوع عليها ثلاثة أزواج من الأحذية المرصوصة بعناية، ثم طرق باب الغرفة 2017، فتح له هذه المرة زئير الباب، كان الآخرون نائمين على الأرائك والتلفاز مطفأ، همس له ريتشارد سائلًا: أتعرف أين رشيد؟.

أشار الرجل إلى إحدى الأرائك خلفه، وكانت الهضبة التي عليها تحت الغطاء أعلى مقارنة بالأرائك الأخرى، يمكن إذًن أن يعود رشيد، ذلك العملاق، الذي أصبح ريتشارد، منذ أن رأى ما حدث على الدرج، يسميه بمفرق ضربات البرق، ذلك الرجل الذي يرتدي جلبابًا أزرق ويحمل وحده أعمدة الإسلام الخمسة على كتفيه، ليسقط بين صفوف النائمين.

عندما دعى زئير ريتشارد للدخول شكره ريتشارد وهزَّ رأسه.

انفتح باب آخر وخرج منه رجل شبه عاري وحافي القدمين، لا يرتدي سوى سروال داخلي وحول كتفيه فوطة، مر بجانب

ريتشارد وأومأ برأسه لتحيته وسار في اتجاه الدرج؛ ربما تكون الأدشاش هناك، ثم عم المكان سكون شديد مرة أخرى، عدى أصوات كانت تأتي من الخلف، سار ريتشارد عبر الردهة عائدًا ثم انحنى إلى اليمين عند الناصية فوجد نفسه أمام مطبخ، ولسعادته ومفاجأته في الوقت ذاته كانت هناك معلمة اللغة الألمانية وحدها تمامًا تقف فوق سُلم محاولة تعليق لوحة فوق المواقد الثلاثة: قصر بيلفو في الليل، مُضاء ومنتظم البناء، وعلى بُعد موقد آخر كانت توجد لوحة معلقة عليها زجاجات جعة وسجائر وصواني طعام مشطوب عليها ومكتوب: «كُن كالطير!».

سألها ريتشارد إذا كان بإمكانه تقديم المساعدة لها.

- يمكنك أن تحضر لي مسامير تثبيت الورق.

سألها ريتشارد: لماذا تقومين بذلك؟ ـ وكان يبحث عن مسامير التثبيت ذات اللون الأزرق الغامق والأخضر، مثل الليل حول قصر بيلفو مقر إقامة الرئيس الاتحادي، هل باتت المعلمة عند أحد الرجال ولذلك استطاعت التواجد هناك في وقت مبكر هكذا؟ ربما عند الرجل شبه العاري الذي شاهده ريتشارد قبل قليل خارجًا من الغرفة شبه عاري؟

قالت له: حتى الأسماك في حوضها لديها على الأقل صورة المرجان والطحالب في الخلفية؛ فهل يجب أن يكون حال الناس هنا أسوأ من بضعة أسماك؟

تذكر ريتشارد باقة الورود التي اشتراها قبل أسبوع وذبلت الآن لأنه نسي أن يسقيها، أحيانًا يكتشف أنه يأكل البازلاء باردة من العلبة، ويقبع على طاولته في غرفة المعيشة إكليل زهور عيد القدوم منذ خمس سنوات وعليه آثار الشمع الأحمر المحترق من عيد الميلاد الذي احتفل به مع زوجته، وها قد اقترب عيد القدوم مجددًا.

- هلّا أعطيتني الثالثة من هناك؟

مد إليها ريتشارد اللفافة فنشرتها على الجدار، ولكن اللوحة انطوت مرة أخرى من عند الموضع الذي لم تثبته بعد، عندما فردت الجانب الأيسر رأى نصف متحف بوده الأيسر، وعندما فردت الجانب الأيمن رأى نصف متحف بوده الأيمن.

كانت زوجة ريتشارد ترسله دائمًا في الوقت المناسب إلى القبو أولًا ليحضر الكراتين التي تحوي الزينة الضرورية لعيد من الأعياد، ثم ليرجع مستلزمات العيد التي أدت وظيفتها: أرانب عيد الفصح، بيض زجاجي وخشبي، حشائش صناعية، نجوم عيد القدوم، كسارة البندق، ملائكة، الشرائط المضيئة، زينة شجرة عيد الميلاد، وألعاب نارية لرأس السنة، وللمهرجان الثعابين الملونة وعلبة الحلوى التي لا تفرغ أبدًا. بعد وفاتها قام بنفسه لأول مرة وللمرة الوحيدة بجمع زينة عيد الميلاد ووضعها في القبو ولكنه نسي إكليل عيد القدوم، ومنذ ذلك الحين وهو على طاولة غرفة المعيشة.

- هل هي هكذا جيدة؟

- ربما إلى اليسار قليلًا.

- هكذا؟

- وسنتيمتران لأعلى.

شعر ريتشارد في بادئ الأمر بعد وفاة زوجته بشيء من الراحة لأن تقلب الأعوام لم يعد يعنيه، فقد كان مثل ذلك العيد يمر قبل حتى أن يتذكر أنه قد اقترب، ولكن منذ فترة قريبة فقط طال عليه ذلك الزمن المنساب ولكي لا يسأم كان يقوم أحيانًا عندما يكون في القبو بقراءة أسماء الأعياد التي كتبتها زوجته على الكراتين بخط يدها وكان يحاول تصور كيف أن كل تلك الأشياء الغريبة تقف متراصة بعضها إلى جوار بعض عدا ما كان يتم رصه تبعًا لمعيار توفير المكان أو قابليته للكسر.

- لعلك تعرف متى يجب على الرجال الانتقال؟.

كانت السماء بيضاء ولبنية فوق متحف بوده والماء حول أساساته أخضر وأسود.

فقالت الأثيوبية الجميلة: ليس في القريب العاجل على أي حال إذ توجد حالتان جديدتان من الجديري المائي. ـ وكانت تتكلم بطريقة غير واضحة لأنها كانت تضع مسامير تثبيت الورق بين شفتيها في حين كانت تثبت الأخرى.

بعد أن فرغت ونزلت من على السلم قالت: الغريب أنه تم إعطاء الرجال نصف المبلغ المتفق عليه فقط، والنصف الآخر سيحصلون عليه في المأوى الجديد، حسب ما أخبرني به أحدهم؛ وكأن البكتريا قابلة للرشوة. ـ فقال: نعم، هذا أمر عجيب. ـ خطر بباله خنفساء البطاطس والبرطمان الذي كان يمسك به ونصفه مملوء بالخل.

فقالت: عليَّ أن أذهب الآن، في الحقيقة غير مسموح لي بالتواجد هنا، فقد أصدر المشرفون أمرًا بحظر دخولي، ولكنهم لا يأتون للتفتيش في مثل هذا الوقت المبكر.

- حظر دخول؟ ولكنك تدرسين مرتين أسبوعيًا هنا.
- مسموح لي بدخول غرفة التدريس، ولكن ليس بالصعود إلى الغرف، قالوا إني أتسبب في الكثير من الاضطراب في البيت.

كان بإمكانه توقع ما عناه المشرفون باضطرابات، ولكنه رغم ذلك قال: هذا غير معقول! ـ ولكنه شعر بالسعادة لأنها لم تقضِ الليلة مع الرجل شبه العاري.

- ربما تفكر في ما سألتك عنه أمس، التدريس للمتقدمين؟
- نعم سأفعل. ـ ولكنها كانت قد ألقت بالفعل كلمة وداعًا، وسمع صوت خطواتها الواثقة وهي تسير عبر الردهة إلى

الأسفل، ورحلت كعادتها بسرعة.

هل زار أحد هؤلاء الرجال متحف بوده من قبل؟

23

عندما وصل ريتشارد إلى بيته في المساء لم يكن يعرف كيف بدأ الحديث بينهما، لم يكن يرغب في طرق مزيد من الأبواب التي يوجد وراءها النائمون، في أثناء نزوله رأى الرجل النحيف الذي يمسك بالمكنسة، وكان يكنس الطابق السفلي غير المسكون وكأنه قد مُنح كل الوقت المتاح للعالم.

استغرق الحديث معه أطول من الأحاديث الأخرى، ولم يكن ريتشارد يعرف سببًا لذلك.

قال الصوت: أعرف السبب. ـ كان الرجل النحيف لا زال يرتدي البنطال الرياضي الأصفر الممزق ويمسك بالمكنسة، كان يستريح أحيانًا ويتكئ بكلتا يديه عليها، ثم يعود للكنس.

أم أنه لم ينتهِ بعد؟

نظرت أمامي وخلفي ولكني لم أرَ شيئًا.

كانت تلك أول جملة ينطق بها الرجل في الطابق الفارغ، وتفرع من تلك الجملة جمل كثيرة، جمل كثيرة كانت تدور في دائرة، وبعد أن عاد ريتشارد إلى بيته ظل صوت الرجل يتردد في أذنيه.

ـ تركني والداي وأنا في الثامنة أو التاسعة من عمري عند زوجة أبي، زوجته الأولى، ورحلا مع أخوَي وأختي إلى قرية أخرى، وحصلت وأنا في سن الحادية عشرة على أول منجلة -سكين أعمل به في الحقل مقابل ثلاثين سنتًا في الساعة-، وعندما بلغت الثامنة عشر كان لدي من المدخرات ما كفاني لفتح كشك صغير، وفي التاسعة عشر بعت الكشك لأسافر إلى كوماسي.

أضاء ريتشارد المصباح في غرفة المعيشة وفي المكتبة وفي المطبخ، كما يفعل دائمًا حين عودته إلى البيت.

ذهبت إلى والدي وأخواي وأختي وودعتهم، لم أستطع البقاء لديهم أكثر من ليلة واحدة، إذ كانت الغرفة التي يسكنونها صغيرة جدًّا. ارتحلت إلى كوماسي وبدأت في العمل مساعدًا لدى تاجرين يبيعان الأحذية في الشارع، وتعرفت على فتاة، ولكن والداها لم يوافقا على زواجنا لأني كنت فقيرًا جدًّا، وبعدها أفلس التاجران اللذان كنت أعمل لديهما. لم أكن أشعر بالرضا في تلك الفترة.

ذهب ريتشارد إلى المطبخ وفتح النافذة المطلة على الحديقة، نظر إلى سواد الليل وفكر للحظة في أن كل شيء كان ساكنًا في ذلك الوقت، ثم سمع من خلفه مجددًا حفيف المكنسة.

شيء ما تغير، ولكني لم أعرف ما إذا كان قد تغير للأفضل أم للأسوأ. ثم بدأت العمل في مزرعة، حيث كان عليَّ رعاية الحيوانات، ماعز وخنازير، كنت أقدم لها الطعام وأجز الحشائش

وأجمع الخشب وأوراق الشجر المتساقطة، ولكن مالك المزرعة كان يحتفظ بأجري ويقول: هذا المال يعادل ما أنفقه عليك.

أغلق ريتشارد بابَ النافذة مرة أخرى، واستدار، كان الرجل يقف متكئًا بكلتا يديه على المكنسة ويبتسم، ثم قال: رأيت ذات ليلة حلمًا، كان أبي راقدًا على الأرض وأردت أن أعانقه ولكني عجزت عن الإمساك به، فقد كان يفلت من يدي ويسقط إلى داخل الأرض، وفي الليلة التالية رأيت مرة أخرى حلمًا: ثلاث نساء كن يغسلن جثمان أبي، كنت أريد مساعدتهن ولكني لم أعرف كيف، ورأيت في الليلة الثالثة كيف تقف أمي بجوار جسد أبي وكأنها تحرسه، وفي اليوم التالي تلقيت من القرية خبر وفاة أبي.

ولكن من أين حصل على المكنسة؟

كنت أعرف أن ما معي من مال لا يكفيني للسفر إلى جنازة أبي الكبيرة بعد ثمانية أسابيع، ولكن على الابن أن يحضر لتلقي عزاء أبيه.

عاد ليكنس بحركات هادئة متقطعة، فكر ريتشارد في أنه لا ضرر من ذلك.

عملت الأسبوع الأول.

والثاني.

والثالث.

والرابع.

وفي نهاية الأسبوع الرابع قال لي صاحب المزرعة، أن ذلك الشهر كان للاختبار فقط، ومرة أخرى لم يعطني مالًا، ولكني وجدت عملًا في مزرعة أخرى، حيث كنت أحرث الأرض التي تُزرع فيها البطاطا، عملت أول أسبوع من الرابعة صباحًا حتى السادسة والنصف مساء.

والأسبوع الثاني.

والأسبوع الثالث.

والرابع.

ولولا أن إحدى الفتيات كانت تمنحني طعامًا لما كفى تمامًا ما كسبته من مال للسفر إلى تأبين أبي وشراء ماعز، لتقديمها أضحية هناك.

فكر ريتشارد أن شرب الجعة الباردة سيكون جيدًا، لذا ذهب إلى القبو.

سافرت ومعي الماعز في سيارة أجرة جماعية إلى نيكاو ـ كاو، ثم سافرت مع الماعز في حافلة إلى كوماسي، سافرت ومعي الماعز في سيارة أجرة جماعية إلى تيبا، ثم سافرت مع الماعز

من تيبا إلى ميم.

تذكر ريتشارد كيف ضحك عندما حكى له الرجل عن صعوبة حشر ماعز حي وسط الركاب الآخرين في سيارة.

وصلت في نفس يوم تأبين أبي، ثم ضحينا كما هي عادتنا بالماعز، ولم أتمكن من البقاء لدى عائلتي أكثر من ليلة، فقد كانت غرفتهم صغيرة جدًّا، ومنذ ذلك اليوم كان عليَّ أن أقوم وحدي برعاية إخوتي الثلاثة وأمي.

حصلت على عمل في إحدى مزارع الكاكاو في قرية مجاورة.

وقررت بعد عام أن أسافر بما جمعته من مال إلى أكرا، ذهبت إلى أختاي وأخي وأمي وودعتهم، ولم أتمكن من البقاء لدى عائلتي أكثر من ليلة، فقد كانت غرفتهم صغيرة جدًّا.

وفي حين كان يجلس ريتشارد وفي يده الجعة على الأريكة كان الرجل ذو البنطال الأصفر الممزق يكنس سجادة غرفة المعيشة.

ذهبت إلى أكرا واشتريت أول أربع أزواج من الأحذية لتجارتي الخاصة، وبحلول بعد الظهيرة كنت قد بعت زوجين، فاشتريت زوجين مكانهما، وبعت في المساء زوجًا آخر، واشتريت من مكسبي من بيع الأزواج الثلاثة طعامًا ومرتبة للنوم ومشمع لأنام في الشارع، ولكن أحدهم سرق المشمع في الليل.

وقع نظر ريتشارد على إكليل زهور عيد الميلاد القابع على طاولة غرفة معيشته منذ خمسة أعوام.

كان وقت سقوط المطر قد بدأ، وهكذا كنت أجوب المدينة، وكان لدي أحد عشر زوج من الأحذية، كنت أعرض أحدها وأحتفظ بالباقي في حقيبة ظهري، أحيانًا كنت أتبلل في الليل عندما لا يكون المشمع محكمًا، وكنت عادة أشعر بالإرهاق طوال اليوم حتى أني كنت أغفو جالسًا، وأخيرًا طلبت من أحدهم صنع طاولة لي، ووجدت من يحتفظ لي بحقيبة الظهر في الليل، ولكني ظللت أنام في الشارع، وكنت أخاف من التعرض للسرقة؛ لأني كنت أحمل المال في جيبي، أعطيت خمسة أزواج لرجل عمولةً ليساعدني في بيع الأحذية ولكنه سرقها واختفى.

قلَّب الرجل ذو البنطال الأصفر الممزق مكنسته وأخذ يخرج الوبر من بين شعيراتها ويتركه يسقط مرة أخرى على الأرض، فكر ريتشارد في غرابة فعله هذا ولكنه قال في نفسه: ما دام ذلك يمتعه فليفعل!

ثم ذهبت لأمي وأخوتي ولم أتمكن من البقاء لدى عائلتي أكثر من ليلة، فقد كانت غرفتهم صغيرة جدًّا.

سألت نفسي: ما الخطأ فيّ؟

سألت نفسي وسألت الرب أيضًا؟

يمكن أن تسوء أحوال المرء أحيانًا، ولكن حين لا يعرف المرء أبدًا أين سينام أو ماذا سيأكل؟ ألا يوجد في العالم كله مكانًا يمكنني الذهاب إليه لأنام؟

نظرت أمامي وخلفي ولم أرَ شيئًا.

قلت لأمي إني بخير.

وقالت لي أمي إنها بخير.

ولكني كنت أعرف أنها لا تمتلك أرضًا، عندما كنت لا أعطيها مالًا ولا يهبها أحد شيئًا لم تكن تتمكن من طهي طعام لها ولأخوتي.

كان صمتي وصمتها يتعانقان كلما التقينا.

ثم عملت مساعدًا في الحصاد في إحدى المزارع.

الأسبوع الأول.

والأسبوع الثاني.

والأسبوع الثالث.

قلب مكنسته مجددًا ولكنه وقف هادئًا.

فكرت: لو لم أعد موجودًا، لما أراد أحد شيئًا مني. جلست عند حافة الحقل وبكيت.

هكذا هو الوضع؛ كثير من الناس في غانا يشعرون باليأس، وبعضهم يشنق نفسه، وبعضهم يتجرع الدي دي تي ثم يشرب ماء ويذهب إلى بيته يغلق الباب دونه ويموت.

أرسلت طفلًا إلى متجر يبيع الدي دي تي، ولكن البائع سأله عمن أرسله؛ ثم بحث عني وتحدث إليَّ طويلًا وقال لي أن أفكر في الأمر مليًا.

جلست بعد حديثنا ذلك ثلاثة أيام في المسجد أفكر، ولم أجد بعدها طاقة لفعل ذلك، ومرضت بعد ذلك.

وقف ريتشارد وتوجه نحو المكتبة، حيث كان يجلس أحيانًا عندما يتحدث في الهاتف في مقعد له مسندان، ربما كان ينقصه كتاب يجعله يفكر في أمور أخرى قبل نومه.

لو لم يتحدث بائع الدي دي تي معي يومها لكنت مت منذ زمن بعيد.

وبالطبع كانت المكتبة -أيضًا- متربة، ظل ريتشارد ينظر لبرهة إلى الرجل النحيف وهو يقلب الكراسي من حول الطاولة ويرفعها فوقها، وفي تلك الأثناء كان قد أسند المكنسة إلى الأرفف بمحاذاة رف الكلاسيكيات الألمانية.

ثم عدت إلى أكرا واستخدمت مساعدًا لي، وقد بلغ ما معي يومًا جوالين ونصف من الأحذية، حوالي 300 زوج، وأصبح معي من

المال ما يكفي استئجار غرفة.

ولكنهم منعوا تجارة الشوارع.

نظرت إلى يميني ويساري ولكني لم أرَ شيئًا.

لذلك كنت أحمل خمسة أزواج من الأحذية معي وأبيعها سرًا، كنت أسير أيامًا طوالًا عبر المدينة، ثم أعطيت العشرين أو الثلاثين زوج المتبقية لمساعدي مقابل سعر زهيد، واشتريت بثمنها جوالًا من الـ Athfiadai، الذي علمت أنكم تصنعون منه في أوربا دواء: الباراسيتامول.

كان ريتشارد عند إصابته بالصداع يتناول ASS وهو البديل للأسبرين لمن جاؤوا من الشرق، ولم يكن يعرف إذا كان ذلك العقار فيه نفس المادة الفعالة مثل الباراسيتامول.

ثم ذهبت إلى البيت إلى أمي وإخوتي، ولم أتمكن من البقاء لدى عائلتي أكثر من ليلة؛ فقد كانت غرفتهم صغيرة جدًا، وشرحت لهم ما عليهم فعله لمساعدتي.

ذهبوا جميعًا إلى الأدغال لجمع تلك الثمار، التي تبدو مثل التفاح الصغير، وكان على المرء أن يجففها وعندها تنفتح ويجمع المرء البذور ويجففها ليومين أو ثلاثة في الشمس ثم يطحنها في الهون، حتى تتحول في آخر الأمر إلى مسحوق أسود، تلك الثمرة نادرة ويتطلب الأمر جهدًا كبيرًا للحصول على المسحوق، ولكن

امتلأ في آخر الأمر الجوال آخر، أرسلته لي أمي إلى أكرا.

رغب ريتشارد في إطفاء المصباح والخلود إلى النوم، ولكنه انتظر حتى قام النحيف بكنس تحت الأريكة وطاولة السكرتير وأنزل الكراسي من فوق الطاولة ورتب كل شيء.

ذهبت إلى السوق وبصحبتي الجوالان.

ولم أجد في اليوم الأول من يشتري مني المسحوق.

ولا في اليوم الثاني.

ولا في الثالث.

وعندها سمعت بتجار قاموا قبل عام بوضع مسحوق يشبه هذا في الأجولة ليغشوا المشترين.

أطفأ ريتشارد المصباح الآن، وكان الصوت ينتظره في الردهة.

تركت الجوالين عند أحد أصدقائي وتوجهت إلى أمي وإخوتي لأودعهم، ولم أتمكن من البقاء لدى عائلتي أكثر من ليلة، فقد كانت غرفتهم صغيرة جدًا.

أعطيت أمي نصف ما معي من مال، أما النصف الآخر فدفعته إلى المهرب لتوصيلي إلى ليبيا.

كان ذلك عام 2010.

فكر ريتشارد في أن عدم صدور ضوضاء من الكنس شيء جيد، وتساءل لماذا يقوم هو دائمًا باستخدام المكنسة الكهربائية.

كانت نقودي تكفي فقط للوصول إلى داكورو في النيجر، ولكن المهرب أقرضني الباقي، كنت أرقد مع آخرين داخل الأرضية المزدوجة لسيارة „بيك أب"، وكنا ممددين وملتصقين حتى أنه لم يكن بوسعنا أن نتقلب، وكان المهرب يعطينا قطع من البطيخ لتبقينا على قيد الحياة، وكان يمدها إلينا ونحن في مخبئنا عبر فتحة.

عملت أول ثمانية أشهر في موقع بناء في طرابلس لصالح المهرب، ولم يكد ديني ينقضي حتى اندلعت الحرب، لم يكن بوسعنا مغادرة موقع البناء، إذ كنا نسمع طلقات الرصاص في كل مكان من حولنا، وفي يوم ما انقطع مجيء الرجل الذي كان يمدنا بالطعام والشراب، تحملنا الوضع لمدة ثلاثة أيام ثم اضطررنا إلى الخروج، كانت الشوارع خالية تمامًا، لم يكن هناك أي أجنبي ولا ليبي، ولا أي إنسان، وأخيرًا وصلنا ليلًا إلى قارب؛ أقرضني صديق 200 يورو من أجل الإبحار إلى أوربا.

عندما اتصلت من صقلية بأكرا أخبرني الرجل الذي تركت عنده الجوالين بأن المسحوق أصبح قديمًا، فقلت له أن يتخلص منه.

والآن بدأ الرجل النحيف في كنس السجادة من أسفل إلى أعلى، على عكس ما كان يراه ريتشارد لدى والدته، إذ كان الرجل يكنس درجة درجة من أسفل إلى أعلى مما يجعل التراب يسقط من الدرجة الأعلى على الدرجة الأسفل التي انتهى من تنظيفها لتوه.

طوال المدة التي قضيتها في المعسكر في إيطاليا كنت أحصل على 75 يورو شهريًا، كنت أرسل منها 20 أو 30 لأمي.

ولكنهم أغلقوا المعسكر بعد عام، وأعطونا 500 يورو، وأصبحت مشردًا في الشارع، ذهبت إلى محطة القطارات لأنام هناك، ولكن شرطي أيقظني وطردني لأني لا أملك تذكرة سفر، قابلت بالخارج رجلًا من الكاميرون، أخبرني بأن له أخ في فنلندا، اتصلنا بهذا الأخ، فأخبرني بأنه بوسعي أن أحضر إلى فنلندا وأسكن لديه.

سافرت إلى فنلندا، ولكن أخ الرجل الكاميروني لم يرد على الهاتف بعدها.

نمت أسبوعين في الشارع في فنلندا، وكان الجو باردًا جدًّا جدًّا، ثم عدت إلى إيطاليا، كنت أجوب الشوارع وحقيبتي على ظهري ولكني تخلصت يومًا من زوج من الأحذية ومن بنطال لأن الحقيبة كانت ثقيلة جدًّا.

مكثت في إيطاليا إجمالًا عامًا وثمانية أشهر، ثم سافرت إلى ألمانيا.

ثم نفد كل مالي، الـ500 يورو.

نظرت أمامي وخلفي ولكنني لم أرَ شيئًا.

كان الرجل النحيف قد وصل إلى أعلى، وبدا أنه يتجه نحو غرفة الضيوف، ولكن عندما تبعه ريتشارد وفي يده كتاب لـ"إدجار لي ماسترز" وبحث عنه في الطابق العلوي، لم يجد أحدًا هناك.

24

كان ريتشارد قد اتفق مع أوزاروبو يوم الجمعة على اصطحابه في الحادية عشرة من يوم الأربعاء لعزف البيانو، ولكنه عندما دق باب الغرفة 2009 استغرق الأمر طويلًا حتى انفتح الباب أخيرًا، كان أوزاروبو يقف أمامه مبعثر الشعر ونصف نائم، ثم قال: كيف حالك؟ ـ عندما سأله ريتشارد عن عزف البيانو، اعتذر وقال: لقد نسيت الأمر. ـ فقال له ريتشارد: أنتظرك بالأسفل.

غضب، ولكن لماذا؟ هل لأن الإفريقي لم يبدُ سعيدًا وشاكرًا كما توقع منه؟ أم لأن الإفريقي نسيه بهذه البساطة، وهو الألماني الوحيد الذي يأتي من الخارج طواعية إلى هذا البيت؟ وربما لأن الإفريقي ليس يائسًا بما يكفي حتى يرى فرصته؟ أم بالأحرى لأنه بعدم اكتراثه أوضح لريتشارد أن عرض عزف البيانو لا يمثل فرصة، وإنما على أفضل تقدير وسيلة لتضييع الوقت قد تكون أفضل قليلًا من النوم؟ في تلك النقاشات التي سبقت انفصاله عن

عشيقته قالت له عدة مرات أن المشكلة لا تكمن في عدم تحقق توقعاته وإنما في توقعاته نفسها.

لم يكن هناك في ذلك اليوم من يقوم بالكنس في الطابق السفلي.

كان - على سبيل المثال - يرجو من عشيقته أن تتصل به يوم كذا وكذا في الساعة الخامسة عصرًا، أو أن ترتدي التنورة الزرقاء القصيرة عند لقائهما التالي لأنها كانت تعجبه جدًّا، أو أن تخبره عند عودتها من سفر ما من أي عربات القطار ستنزل، كانت سعادته بالحدث تبدأ مع الاتفاق عليه وبالتالي فقد كانت تستغرق أكثر كثيرًا من موضوع الحدث نفسه، حتى كانت تكاد تستبدل الحدث نفسه، إلا أنها كانت تظل مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بذلك الجزء من الواقع الذي ترتبط به، وإذا لم يتحقق ما توقعه كانت تنطفئ تلك السعادة وينطفئ معها ما شعر به من سعادة في الفترة السابقة، كانت صديقته في بادئ الأمر تمازحه وتسمي سعادته السابقة تلك بـ«نقاط الهرب»، وأصبحت تسميها بعد ذلك: «إرهاب النهايات السعيدة»، بل وأصبحت في آخر فترة من علاقتهما تقوم بإرهابه عن طريق سماحها لنفسها بمخالفة ما كانا يتفقان عليه.

أومأ ريتشارد برأسه ليحيي لاعبي البلياردو الذين مرَّ عليهم وهو في طريقه لأعلى، كان أحدهم يرفع أصبعيه إشارة إلى علامة

النصر.

كانت تتصل به متأخرة عن موعدها بثمانية دقائق ونصف، أو كانت لا تتصل، كما أهدت التنورة الزرقاء لأختها، وعندما كان ينتظرها في المقهى المعتاد لم تعد تأتي من محطة مترو الأنفاق عبر الميدان حتى يتعرف عليها من مشيتها المعتدلة وهي قادمة من بعيد، بل أصبحت تأتي على غير المتوقع بدراجتها من الجانب الآخر عبر الناصية وتنزل عن دراجتها وتربطها في أحد أعمدة الإنارة ثم تأتي لتجلس إليه مُتعرقةً ويداها متسختان.

قال له الرجل الذي يرتدي الزي الرسمي الخيالي: ماذا، ألا يوجد مجددًا من تتحدث إليه؟

فقال ريتشارد: بلى، بلى، ولكني سأنتظر بالخارج.

فتح رجل الأمن الثاني له الباب.

ظهر على السطح وقتها فقط السؤال عن ما إذا كان السبب في ما أضاعته عشيقته يكمن ببساطة في نظام آخر غير الذي ينطلق هو منه، مثلًا في علاقة حب جديدة تخفيها عنه، أو في مقاس ملابس مختلف أو ربما في طريق الدراجات الذي أنشؤوه مؤخرًا في وسط المدينة، ولكن في الأساس كان السؤال الذي كانت عشيقته تطرحه، حتى وإن لم تنطق به: ماذا سيتبقى أو ما زال متبقيًا بالفعل من علاقتهما إذا توقفت تلك الطقوس التي

يربطها بها، بالفعل كان من المؤكد أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف آخر بنسبة مائة بالمائة، كما كان للأسف من المؤكد -أيضًا- أنه -أي ريتشارد- لم يكن ليرضى بذلك، وخصوصًا في ما يتعلق بعشيقته.

صرخت في وجهه في آخر نقاش بينهما: اذهب بنقاط هروبك تلك إلى الجحيم! ـ ماذا لو اضطرت لمهاتفته ذات مرة في الساعة 23:27 لأمر عاجل وهو في فراش زوجيته اللعين، دون أن تكون قد تقدمت بطلب مُسبق للاتصال به؟ كان يجدها مثيرة وهي غاضبة، وابتسم حين رأى البقع التي تظهر عشوائيًا على رقبتها وهي متوترة، ولكن التبسُّم كان خطأً، بل كان آخر أخطائه لأنها لم تمنحه فرصة بعدها لارتكاب أي أخطاء أخرى.

ولكن، ألا تقوم العلاقات على وضع معيار مشترك للأمور؟

فضلًا عن ذلك كان يغضبه أن يكون عليه الانتظار دون أن يكون معه كتاب، ولا حتى صحيفة.

قرأ أمس مقالًا عن المساعدة الإنسانية الألمانية جاء فيه أن تلك المنظمة تبدأ عملها في الدول التي ترعاها مبدئيًا بوضع معايير ومقاييس تتماشى مع المعمول بها في المعهد الألماني للتوحيد القياسي وجمعية الفحص الفني، وذكر المقال أنه في مجال التجارة -على سبيل المثال- - لا يمكن الاستغناء عن وجود ترتيب تصاعدي ملزم، ولكن ريتشارد كان يعرف -أيضًا- أن مثل

تلك الآليات ما هي إلا وسائل سيطرة بالدرجة الأولى، على أي حال، فالسيطرة هي -أيضًا- نوع من أنواع العلاقات، إن ثورة «كوماندو الموت» اليهودي في تريبلينكا، معسكر الإعدام النازي، كان ممكنًا التخطيط له، بعد تعيين إدارة جديدة للمعسكر من قِبل وحدة إس إس، التي كانت تلتزم التزامًا صارمًا بنظامها الداخلي وبالتالي أصبحت خطواتها واضحة ويمكن توقعها من قبل، أي شيء يمكن توقع خطواته ويكون جامدًا يصبح قابلًا للكسر والهزيمة، وحدها الفوضى تخرج عن الأُطر وتبقى، وفجأة انتبه ريتشارد إلى أنه أصبح الآن يفكر مثل عشيقته.

فليكن!

كانت مؤخرتها تظهر في أيام السعادة الخوالي بيضاء وبارزة من أسفل التنورة الزرقاء التي كان يحب رؤيتها ترتديها.

أخيرًا انفتح الباب وخرج أوزاروبو وهو يرتدي مجددًا سترته الخفيفة جدًّا، وقال له: آسف!

لا عليك!

ثم انطلقا.

أشار ريتشارد إلى اليسار ناحية حلبة الرياضة المرصوفة بالحصى وقال له: أتعرف أنه يمكن لعب كرة القدم هنا؟

- أتعني أي شخص؟

- نعم، نعم، أي شخص.

- دون دفع رسوم؟

- بالتأكيد، دون دفع رسوم، ألديك كرة؟

- لا.

هل يراه أحد وهو يسير في الطريق مع الشاب الأسود؟ وماذا سيفكر من سيراه؟ في كل مرة ينعطفان فيها إلى شارع جانبي كان ريتشارد يتوقف لبرهة وينبه الفتى إلى لافتة الشارع حتى يتمكن في المرة المقبلة من الذهاب وحده.

- هل تعرف أن هنا كان الشرق بالسابق؟

هز أوزاروبو رأسه: الشرق؟

ربما كان طرح السؤال بهذه الطريقة غير مناسب بالنسبة لشخص يأتي من النيجر، لذلك فكر ريتشارد وقام بمحاولة ثانية:

- هل تعرف أن برلين كان فيها سور في الماضي، وكان يفصل جزء من المدينة عن الآخر؟

- لا أعرف.

- تم بناؤه بعد نهاية الحرب بعدة سنوات، هل تعرف أن حربًا حدثت هنا؟

- لا.

- حرب عالمية؟

- لا.

- هل سمعت اسم هتلر من قبل؟

- مَن؟.

- هتلر الذي بدأ الحرب وقتل كل اليهود؟

- قتل بشرًا؟

- نعم قتل بشرًا.

ثم قال ريتشارد بسرعة: بعض البشر فقط. ـ شعر ريتشارد بالأسف لأنه يحكي لفتى هرب لتوه من المذابح في ليبيا عن المذابح هنا، لا، لن يحكي ريتشارد للفتى أنه ـقبل عُمر إنسان تقريبًا ـ تم في ألمانيا اختراع قتل البشر بطريقة تشبه العمل في المصانع، شعر فجأة بالخجل الشديد من ذلك، وكأن ذلك الأمر الذي يعرفه الجميع هنا في أوربا سرُّه الخاص الذي يجب ألا يفصح به لأحد في العالم، وفجأة داهمه الأمل في أن تعيده سذاجة ذلك الفتى إلى ألمانيا التي كانت قبل أن يحدث كل ما حدث، ألمانيا التي كانت قد ضاعت للأبد منذ مولده، «ألمانيا جميلة» ليتها كانت كذلك، لا يمكن وصف الوضع بالجمال.

وصلا: الغرفة الأمامية، الردهة، المطبخ، غرفة المعيشة التي

تطل على المكتبة، الدرج المؤدي إلى أعلى.

- أتعيش هنا مع أسرتك؟

أجابه ريتشارد بأن زوجته قد ماتت.

- يؤسفني ذلك؛ ألك أطفال؟

- لا.

- أتعيش هنا بمفردك؟

فقال ريتشارد: نعم، تعالى سأريك البيانو.

كان البيانو في الغرفة الصغيرة بجوار المدخل، وكان ريتشارد وزوجته يسميانها غرفة الموسيقى، كانت زوجته عازفة كمان حتى تم حل فرقتها وكانت تتدرب هنا، وأحيانًا كان ريتشارد يصاحبها بالعزف على البيانو، ولكن ذلك كله كان قبل زمن بعيد، لم يعد يدخل الغرفة مؤخرًا إلا لجمع الفواتير والعقود لمستشاره الضريبي، في الأرفف على جدران الغرفة كانت توجد ملفات المستندات وألبومات الصور وإسطوانات وشرائط صوتية قديمة وبعض النوت الموسيقية.

فتح ريتشارد غطاء البيانو المُترب، ورفع كومة أوراق من فوق مقعد البيانو وسأله: أتحتاج إلى نوت موسيقية؟

لم يكن يعرف ما إذا كان الفتى يعرف العزف على البيانو فعلًا.

ولكن ربما يكون قد عمل نادلًا في ليبيا ويكون عازف بيانو البار قد أعطاه بعض الدروس في البيانو، أو يكون أوزاروبو قد حاول تعلمه بنفسه على بيانو وجده في مكان ما.

- باخ؟ موزار؟ جاز؟ أم بلوز؟.

- حسنًا، سأتركك هنا وحدك، تعالى واجلس.

جلس الفتى على المقعد وتبع ريتشارد بنظره، أومأ له ريتشارد برأسه ثم انصرف وأغلق الباب دونه.

وما أن وصل ريتشارد إلى غرفة المعيشة إلا وسمع أولى النغمات، كان أوزاروبو يعزف نغمة، نغمتين، ثلاث نغمات، نغمات متنوعة، مرة عالية ومرة منخفضة، المرة بعد المرة، لم يكن ذلك يوهان سباستيان باخ، ولا موزار، ولا جاز، ولا بلوز، من الواضح أن أوزاروبو لم يمس بيانو في حياته من قبل، جلس ريتشارد وفي يده صحيفة على أريكته، وقرأ مقالًا ثم مقالين، وشعر بالنعاس، ثم خلد إلى النوم تحت غطائه المصنوع من وبر الجمال، كان يسمع في أحلام قبل الظهيرة النغمات، مرة نغمة ومرة نغمتين ومرة ثلاث، كانت النغمات تتدافع، ثم تصمت، ثم تحاول مرة أخرى هنا وهناك، وكان الصمت بين النغمات مفعمًا بالحياة، وكأن كل نغمة نشاز تحكي للنغمة التي تتلوها شيئًا، وكأن النغمة التالية تطرح سؤالًا، والتي بعدها تنتظر، عندما استيقظ ريتشارد بعده تصفح الجريدة مرة أخرى، استغرق الأمر منه في طفولته سبع سنوات تقريبًا حتى تعلم أن ينصت لنفسه وهو يعزف البيانو

ويفهم أن ما يقوم به هو: موسيقى، ربما الإنصات للذات هو وحده الذي يجعل النغمات تتحول إلى موسيقى، ما يعزفه أوزاروبو لم يكن لا باخ، ولا موزار، ولا جاز، ولا بلوز، ولكن ريتشارد كان قادرًا على أن يسمع إنصات أوزاروبو لنفسه، وكان ذلك الإنصات هو ما يخلق من تلك النغمات النشاز المتعثرة غير الصافية شيئًا رغم كل عشوائيتها، ترك الصحيفة وذهب إلى المطبخ لتسخين الماء ليجهز القهوة، عندها فقط أدرك أن يومه أصبح منذ مدة طويلة دون أصوات أخرى غير التي تصدر منه هو نفسه، أكثر لحظات رضاه في حياته القديمة كانت عندما تقوم زوجته بعزف الكمان وهو يجلس في الغرفة التالية إلى طاولة مكتبه يكتب مقالًا أو محاضرة، كان يخبر زوجته دائمًا بأنه يسمي ذلك: سعادة الكون الموازي، ولكنها كانت دائمًا تصمم، وخصوصًا في آخر أعوامهما معًا، على أن السعادة الزوجية الكاملة تتطلب أن يقوم كلا الزوجين على الأقل بالنظر إلى الآخر، بل وبملامسته، ولكن للأسف لم تكن تلك النقاشات تؤدي إلى مزيد من سعادته أو سعادتها.

كانت أمه في طفولته تكوي أحيانًا الملابس في حين كان هو يتدرب على البيانو، لذلك ما زال يشعر حتى اليوم عندما يسمع مؤلفات باخ في الراديو بأنه يشم رائحة ملابس غُسلت لتوِّها.

عندما بدأ الماء في الغليان طرق الباب على أوزاروبو وسأله إذا كان يرغب في احتساء القهوة؟ أم الشاي؟ أم الماء؟

ولكن أوزاروبو هز رأسه بالنفي.

- هل يمتعك عزف البيانو؟
- نعم.
- سأحضر لك كوبًا من الماء.

وضع كوب الماء بجوار مفتاح A وأوضح لأوزاروبو كيف يتم العزف بأصابع اليد الخمسة بالترتيب على المفاتيح، كانت أصابعه ضعيفة وكانت تنحني، في حين كان ينسى الأصبع الأصغر، لا يهم، حاول مرة أخرى! ومرة أخرى! هنا في الوسط ثقب المفتاح لغطاء البيانو، والمفتاح C، يجب أن تكون اليد قوية، ولكن يد أوزاروبو لم تكن قوية، دعها تهوي بقوة، لم يجعل ذلك اليد قوية، لماذا؟ لأن أوزاروبو لا يتركها تهوي؛ دعها تهوي بقوة؛ لم يفلح الأمر، أخذ الرجل الأسود والرجل الأبيض ينظران إلى تلك اليد السوداء وكأنها شيء يسبب لهما كليهما مشكلة؛ يدك لها ثِقل، هزَّ أوزاروبو رأسه؛ بلى، بكل تأكيد؛ دعها تهوي؛ عدل ريتشارد وضع مرفقي أوزاروبو من أسفل ولاحظ الندبات على تلك الذراع التي يحاول صاحبها السيطرة عليها؛ كانت يده على استعداد للارتجاف في أي لحظة، كانت يده خائفة، كانت غريبة ولا تعرف طريقها هناك، دعها تهوي، تذكر ريتشارد كيف كان أوزاروبو يقوم يوم الجمعة الماضية في المقهى بفرك بشرة يده السوداء، تلك البشرة التي وضع بداخلها لمدة حياته، لم يفلح أوزاروبو رغم كل الجهد في جعل الجهد لا يتوقف، أين عسى موزار أن يبدأ؟

ولأن ثلاث ساعات تقريبًا قد مرت عليهما سأل ريتشارد أوزاروبو

إذا كان يريد تناول البيتزا، فأجابه: لا مشكلة. ـ خرج ريتشارد ووضع البيتزا المجمدة في الفرن وجهز المائدة لشخصين، كما لم يحدث منذ فترة طويلة، وفي تلك الأثناء سمع النغمات الخمس بترتيبها الصحيح، نغمة لكل إصبع، ثم استراحة، ثم النغمات الخمس مرة أخرى، اليد الأخرى أيضًا!، ولأن أوزاروبو لم يفهمه ذهب إليه ليريه أن اليد اليسرى - أيضًا - يجب أن تقوم بالتمرين مثل اليمنى تمامًا، غير أن النغمات تكون معكوسة.

أكل أوزاروبو قطعة صغيرة من البيتزا، لم يرد أكثر من ذلك، „شكرًا"، „وماء؟"، „نعم، من الصنبور، دون صودا"، „هل تعرف طريق العودة إلى البيت؟".

„لا أعرف".

أحضر ريتشارد خارطة المدينة ووضح للفتى اسم الضاحية على الجزء القابل للطي من خارطة برلين، ثم أشار إلى شارعه وسار بأصبعه فوق الخطوط: هناك يجب أن تنعطف يسارًا، ثم شارع ساوندسو من تلك الناحية عند الميدان، ثم يمينًا وأخيرًا إلى البيت، ثم لاحظ كيف يحاول أوزاروبو فهم الخارطة، ولاحظ -أيضًا- أن أوزاروبو، الذي جاء من النيجر عبر ليبيا إلى إيطاليا ومن إيطاليا إلى برلين، لم يرَ في حياته خارطة لمدينة ولا خارطة لدولة.

ثم قام مع أوزاروبو ولبس حذاءه البني، أكثر أحذيته راحة له، واصطحب الفتى في طريق عودته أيضًا.

25

كان شعر الإثيوبية مرفوعًا اليوم لأعلى، إلا أن بعض خصلاته كانت تتدلى على وجهها، وفي حين بدأت هي بتدريبات خاصة بالأميين من بين التلاميذ انشغل ريتشارد مع التلميذين المتقدمين في إحدى أركان الغرفة، فقد كلفته بالعمل معهما وتقديم دورة محادثة لهما، نهارك سعيد، كيف حالك، ما اسمك، من أي البلاد أنت، كم عمرك، منذ متى وأنت في برلين؟ يوسف من مالي وعلي من تشاد، كان ريتشارد يشعر بالسعادة لأنه يدرس في نفس الغرفة التي تدرس فيها المعلمة؛ لأنه كان يستطيع هكذا رؤية كيفية قيامها بشرح شيء ما أو إملاء كلمات على تلامذتها، أو مساعدتهم في الكتابة، أو كيف كانت تمسح شيئًا مما كتبت على السبورة بقبضة يدها، وتكتب مكانه شيئًا آخر، ثم تطرح سؤالًا على المجموعة، وتمر عليهم بناظريها بما في ذلك مجموعة المتقدمين، أما هو فقد وصل مع علي ويوسف إلى الحديث عن المهن والوظائف؛ قال علي: „كنت أعمل في ليبيا في البناء وفي إيطاليا ممرضًا"، „كنت تعمل فعلًا ممرضًا؟"، „نعم، ولفترة طويلة"، „ويوسف؟"، „عملت في إيطاليا في المطبخ"، „حسنًا"، „يوسف، أنت إذن طباخ؟"، وحرك ريتشارد يده وكأنه

يقلب الطعام في وعاء يتخيله، „لا!"، „وماذا كنت تفعل إذن في المطبخ؟"، „كنت أغسل الأطباق"، „إذن فقد كنت غسال أطباق Tellerwäscher"، "ما اسمه؟"، "غسال أطباق"، وضع التلميذ المتقدم كراسه أمام ريتشارد ليكتب له الكلمة، ثم قرأها يوسف: "غسال أطباق"، ساعده ريتشارد على تعديل نطق حرف الـ ة في الكلمة، حتى أصبح ينطقها بصورة ممتازة: Tellerwäscher! ، «أنا اسمي يوسف، من مالي، وكنت أعمل في إيطاليا غسال أطباق!».

نظر ريتشارد إلى يوسف الضاحك القادم من مالي، رجل قصير القامة بشرته سوداء كالفحم أو كالغرابيب السود، رجل كان يعمل في إيطاليا، قبل أن يحضر إلى ألمانيا، غسَّال أطباق، كان النطق رائعًا، والجملة رائعة، ولكنها كانت بكل تأكيد قدر يوسف المشؤوم، هذا ما فهمه ريتشارد من القوانين الأوروبية والألمانية، ودون أن يشعر ألحت عليه مقولة لبريشت: «الضاحك لم يتلقَ الخبر الفظيع بَعد!» ثم سأل يوسف: «هل درست قبل أن تصل إلى إيطاليا، ربما في ليبيا؟»، فقال يوسف: «لا»، «وفي مالي؟»، فأجاب يوسف: «لا، كنت أتمنى الذهاب إلى المدرسة، ولكن والداي لم يملكا ما يكفي من المال»، ثم ضحك مجددًا، «واليوم ها أنا ذا هنا وأستطيع الكتابة والقراءة وأتحدث العربية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية، وقريبًا الألمانية أيضًا، اليوم أصبحت أعرف أكثر كثيرًا من التلاميذ في مالي».!

أحب ريتشارد تصديق ذلك.

ثم سأل علي: وأنت؟

ـ أنا ذهبت فقط إلى مدرسة عربية، قال أبي إنه يتوجب عليَّ الانتهاء أولًا من المدرسة العربية حتى يُسمح لي بالالتحاق بمدرسة فرنسية، «وما هي المدرسة العربية؟»، «كنا نحفظ القرآن»، «هل تحفظ القرآن؟»، «لا، ليس كله، فقط ثلاثة أرباعه تقريبًا»، «أنت تحفظ ثلاثة أرباع القرآن كله باللغة العربية؟»، «نعم، ولكننا هربنا إلى ليبيا بعد ذلك، وبعدها تعلمت الإنجليزية وأنا في إيطاليا من أصدقائي، ثم الإيطالية من السيدة العجوز التي كنت أقوم برعايتها، في ثلاثة أشهر فقط، ولكن الألمانية أصعب».

كانت الإثيوبية تراجع مع تلاميذها ما درسوه في الأسبوع قبل الماضي: „كي نبني الماضي نحتاج دائمًا لفعلين"، هكذا عرفها ريتشارد، تسبح أمام السبورة (كنتُ أسبح)، تطير أمام السبورة (كنتُ أطير)، تسير أمام السبورة (كنت أسير)، سعادة العالم الموازي، \ وسأل علي: „ما المهنة التي تحب الآن تعلمها؟"، „أود أن أصبح ممرضًا حقيقيًا"، ثم سأل يوسف: „وأنت؟"، „أحب أن أصبح مهندسًا"، فكر ريتشارد وهو في فترة الاستراحة التي كانت قد بدأت لتوها ما الذي يمكنه قوله بوصفه أحد سكان دولة بها 70000 وظيفة معلم شاغرة فضلًا عن نقص العمالة المتخصصة

ورغم ذلك لا تقبل الاعتراف بالرجال السود كطالبي لجوء، علمًا بأنهم لا يستطيعون أن يصبحوا مثل الطير في الربيع فيطيروا فوق إيطاليا أو اليونان أو تركيا دون أن تطأ أقدامهم الأرض الخطأ، بل ولا تستقبلهم دولته ولا تؤهلهم وتمنحهم عملًا، في تلك الاستراحة القصيرة ألقى ريتشارد الغارق في أفكاره بنظره إلى المعلمة، كانت تختار دائمًا لشرح الماضي رجلين رجلين، وكانت تدعوهما للتقدم نحو السبورة، كان أحدهما يعرض الفعل المساعد sein أو habenوالآخر يعرض الفعل الأساسي الذي سيتم تصريفه، قالت: „خليل ومحمد صديقان، أليس كذلك؟"، فقال الجميع: „بلى"، „وموسى ويايا أيضًا، أليس كذلك؟"، فقال الجميع: „بلى"، كان موسى ذلك الرجل ذو الوشم الأزرق في وجهه، الذي رآه ريتشارد قبل ذلك في ميدان أورانين، ولأنها كانت ترغب في شرح الفرق بين تركيبة الماضي والحاضر سألتهم عن شخص دائمًا وحده وليس له أصدقاء ولا يتحدث مع أحد، وشابه الصمت الذي تبع سؤالها الصمت الذي اعترى ريتشارد عندما قال له يوسف: „مهندس"، حدثت جلبة في الفصل وخرج من تلك الجلبة بالتدريج اسم، وكان ذلك الاسم: روفو، خرج روفو إلى الأمام كمثال لشخص دائمًا وحده، خرج منكسرًا للأمام ليعرض نفسه الوحيدة أمام الجميع، قال ريتشارد في نفسه: „يا لها من فكرة، مهندس!"، ورأى كيف أصاب المدرسة -أيضًا- الصمت، وقف روفو إلى السبورة في الأمام كنموذج للحاضر الذي لا يحتاج إلى فعل مساعد، قالت المعلمة بطريقة أسرع وبصورة ملحوظة:

„أنا أسير، أنا أسبح وأنا أطير، أي أن الفعل في الحاضر يقف دائمًا وحده"، ثم قالت: „والآن يمكنكم جميعًا الجلوس"، فعاد الصديقان خليل ومحمد معًا، وعاد موسى ذو الوشم الأزرق في وجهه وصديقه يايا معًا، ولكن روفو عاد وحده، عادوا جميعًا إلى أماكنهم، أما ريتشارد فقال لتلميذيه المتقدمين: „بغض النظر عن المهنة التي تريدان العمل بها بعد ذلك، فمن الجيد لكما على أي حال تعلم الألمانية".

يالها من علامات ارتسمت على وجه روفو.

رأى ريتشارد ذات مرة في كاتدرائية فيسمار صورة للسيدة العذراء تطأ بقدميها رأس رجل أسود ملقى على الأرض، ولكنه قرأ بعد ذلك أنها ليست برأس إفريقي أسود وإنما صورة للقمر كانت مطلية عند بناء المذبح عام 1500 بالفضة، ولكن اللون الفضي دكن بمرور الأعوام، استغرق الأمر خمسة قرون حتى أصبحت السيدة العذراء تطأ بقدميها ذلك القمر الأسود لتدسه في التراب، وبعد خمسة قرون أصبح لذلك القمر وجه روفو الذي يعيش وحيدًا في هذا العالم، لا صديق له ولا يتحدث مع أحد.

لم يطُل التساؤل بالمعلمة ولا بريتشارد عن الكيفية التي سيسير بها ما تبقى من الدرس إذ دخل عليهم فجأة من باب الفصل المفتوح أبولو وشعره يقفز في الهواء بحيوية هنا وهناك، وتحدث إلى الآخرين بصوت مرتفع وبسرعة بلغة الهوسى ثم بالإيطالية

ثم بالفرنسية ثم بالهوسى مرة أخرى، وعندها بدأ الجميع يتحدث بعضه إلى بعض بلغات مختلفة، ثم حزموا أشياءهم وقاموا من أماكنهم، ثم تركوا الغرفة بعد ذلك، بدا وكأن الدرس انتهى من تلقاء نفسه، وفي الطريق إلى الخارج قال تريستان ـ عوض ـ لريتشارد:

- كيف حالك؟

- بخير، ولكن ماذا حدث؟

الانتقال إلى شبانداو، الذي كان مقررًا له الغد، سيتأجل مرة أخرى بسبب المرض.

- بسبب الجديري المائي؟

- نعم.

- ولكن أي انتقال إلى شبانداو؟

- إلى بيت آخر، لقد حزمنا جميعًا أمتعتنا.

- وأنت أيضًا؟.

- نعم.

- حقًا؟

قال تريستان: „اعتنِ بنفسك!"، وانتظر حتى أصبح ريتشارد ينظر إليه فعلًا، ثم أومأ له برأسه، وانطلق هو -أيضًا- إلى الخارج

واختفى، „اعتنِ بنفسك!”، لم يقل أحدهم تلك الجملة لريتشارد منذ أمد بعيد، في تلك الأثناء كانت المعلمة قد محت ما كتبته على السبورة، وبدأت في تجميع الحروف التي تستخدمها في الشرح، فسألها ريتشارد: هل كنتِ تعرفين بأمر الانتقال؟ ـ فأجابته بلا.

ثم ودعته وأخذت حقيبتها، فودعها وتعجب من أنها لم تغادر.

- يؤسفني أمر روفو.

فقال: لا عليك، حدثت لي مثل تلك الأشياء. ـ جُمل عادية تمامًا يصبح لها هنا فجأة معنى مختلف عن معناها المعتاد.

- ولكن رغم ذلك.

ثم غادرت بعدها الغرفة.

أعجبه شعورها بعدم الرضا عن نفسها وأنها تبوح له بذلك، ربما أعجبه ذلك أكثر من شعرها وصدرها وأنفها وعينيها، فكر ريتشارد في أن التفكير في الأخطاء غير المقصودة يكون دائمًا من نصيب الأشخاص غير المناسبين الذين يقترفون أقل الأخطاء ولكنهم يؤنبون أنفسهم رغم ذلك، كما كان يفعل زميله ذو اللحية الرمادية، المتخصص في علوم الحضارات القديمة، والذي وضع في اليوم التالي على سقوط السور ورقة على لوحة الإعلانات دون عليها نقدًا لذاته جاء فيه أنه كان يعتقد أنه يعمل على تحقيق ما اعتقد أنه رغبة الشعب، ولكنه اكتشف خطأه الآن، أما زميلنا

الشاب من قسم الأدب البيزنطي والذي كان يعمل بصورة غير رسمية في البوليس السياسي لألمانيا الشرقية فلم يعترف بذنب ولم يعلنه على لوحة الإعلانات لا بعد سقوط السور ولا في أي وقت لاحق، وكان ذلك الزميل قد كتب تقريرًا تآمريًا ضد ريتشارد ذكر فيه علاقته غير الشرعية، وجد ريتشارد هذا التقرير في ملفه عام 95 وفيه: توجد علامات على كونه من الأعداء لما يتسم به من غرور، كما توجد دلائل على وجود خيانة زوجية (علاقة قائمة مع المساعدة العلمية XXX، تقوم بنفس العمل لدى الأستاذ XXX)، كما يوجد لدى الشخص المذكور ميل كبير للجنس الناعم بشكل عام، ويميل لعقد العلاقات، يتسم موقفه السياسي الأيديولوجي بتذبذبات قوية، في أوقات التوترات السياسية يميل الشخص إلى التقييمات السياسية الخاطئة تصل إلى حد ما يوصف بالعدائية السلبية، لا يعد الشخص مؤهلًا للتعاون التآمري تبعًا للائحة عمل السلطة 79/1، يعمل ذلك الزميل البيزنطي اليوم أستاذ كرسي في جامعة بازل، أما صاحب اللحية الرمادية فقد مات بعد مرور ما يسمى في كل مكان بالتحول، فكر ريتشارد في أنه يمكن لتاريخ جمهورية ألمانيا الديمقراطية، إذا أردنا، أن نعتبره موضوعًا من مواضيع التاريخ القديم، وتخيل هونيكر وهو يلقي خطاباته بوصفه رئيس مجلس الدولة باللغة اللاتينية، وابتسم في الفراغ قبل أن يلاحظ أنه يبتسم، هل كانت تلك الابتسامة التي يلاحظها كثيرًا في الفترة الأخيرة أحد أعراض الخرف؟ أم أنها علامة على سكينة الكبر؟ ثم أطفأ المصباح.

26

في المتجر الذي يسمى اليوم بالسوبر ماركت قرر ريتشارد أن يقف في أقصر الطوابير ولاحظ وهو يضع مشترياته على السير أن روفو، قمر فيسمار الأسود، قد وقف خلفه مباشرة، تعرف عليه من علامات الألم حول فمه، وهو ما كان قد لاحظه عليه في غرفة الدرس، وعرفه من المرارة التي تُطل من ذلك الوجه، حتى أن المرء ليتعرف عليه كما يتعرف على شخص عن طريق جرح أو ندبة في وجهه، أومأ إليه ريتشارد برأسه وقال: صباح الخير، عرفه روفو -أيضًا- وسأله بالإيطالية: «كيف حالك؟»، كانت مشترياته شوال بصل وحسب، أما ريتشارد فكانت الخس والطماطم والفلفل الأخضر والجبن والمعكرونة وكان ثمنها 16,5 يورو، ولكنه عندما بحث عن حافظة نقوده لم يجدها، لا، لا يمكن للبائعة أن تقيد الثمن على حسابه، فقط يمكنها الاحتفاظ بالمشتريات له حتى يعود بالنقود، ألا توجد وسيلة أخرى؟ كانت تعرفه جيدًا، للأسف لا، قال روفو: «هل نسيت النقود؟»، «نعم»، استمر ريتشارد في البحث، جيب المعطف الأيسر، ثم الأيمن، وفي الداخل، وفي اللحظة التي فكر فيها إذا كان روفو ربما، لا لا، لا يحب أن يصدق ذلك، ولكن روفو كان يقف وراءه مباشرة وكان

بإمكانه أن يمد يده في جيبه، في تلك اللحظة مد روفو للبائعة ورقة بعشرين يورو، فقال ريتشارد: «لا ينبغي ذلك فعلًا»، فقال له روفو: «ردها عليَّ بعد ذلك»، «لا يمكن أن أقبل ذلك»، «لا توجد مشكلة»، فقالت البائعة: «هل ستصلان إلى اتفاق اليوم؟»، عندها شكره ريتشارد وتركه يدفع مشترياته.

عندما خرجا صمم ريتشارد على أن يرد له ماله فورًا وقال إنه سيطبخ الآن، وروفو مدعو على أي حال على الطعام، وبنفس الانصياع الذي قام به روفو إلى السبورة في الدرس ليكون مثالًا على شخص ليس له أصدقاء، بنفس الانصياع مشي بجانب ريتشارد، كانت حافظة النقود على أرض الردهة حيث قام ريتشارد قبلها بربط حذائه، أراد ريتشارد أن يعطي لقمر فيسمار ورقتين من فئة العشرة يورو، ولكن القمر هزَّ رأسه وأخذ واحدة فقط، «رجاء خذ الاثنين!»، هز روفو رأسه، إذن فخذ على الأقل 16,5 يورو، هزَّ القمر رأسه، «أو على الأقل 15!»، لم يقبل روفو تمامًا لا ورقة العشرة الثانية، ولا الـ6.5 ولا الـ5 بعد ذلك، وضع ريتشارد ورقة العشرة المرفوضة على المنضدة في الردهة وظلت هناك.

هل تود قراءة شيء حتى أنتهي من إعداد الطعام؟ فقال روفو: «نعم، بكل سرور»، كان الكتاب الوحيد لدى ريتشارد بالإيطالية هو «الكوميديا الإلهية» لدانتي، وكان قد نسي يومًا ما خطته القديمة لقراءته بلغته الأصلية، وكان القاموس يقف بجوار

الكتاب على الرف منذ سنوات «في منتصف مسيرة حياتنا وجدت نفسي في غابة مظلمة؛ لأنّني أضعت الطريق المستقيم»، ولكنه كان يحفظ البداية بالإيطالية عن ظهر قلب، فكر ريتشارد في أن الكتاب مناسب، وأعطى اللاجئ الذي ضل طريقه حول نصف الكرة الأرضية الجزء الأول من الكتاب المغلف بالكتان الأحمر النبيذي، وهكذا جلس الرجل في حين طهى ريتشارد الطعام، ولم يرفع رأسه عن الكتاب إلا مرة واحدة عندما داس ريتشارد على بدال صندوق القمامة فانفتح غطاءه لأعلى، قام روفو من مكانه وداس على البدال فارتفع الغطاء فابتسم الرجل الذي يشعر بالمرارة، الذي تعلو وجهه -دون ذلك- علامات الألم، ثم عاد وجلس واستغرق في القراءة، عندما أخبره ريتشارد أنه قد انتهى من إعداد الطعام وضع الكتاب إلى جواره وشكره.

- من أين أنت؟

- من بوركينا فاسو.

كان ريتشارد قد نسي أين تقع بوركينا فاسو، على الساحل؟ أم في داخل القارة؟

على أي حال كان روفو شديد سواد البشرة.

- أخبرني، هل تعرف الرجل الذي يقوم دائمًا بالتنظيف؟ ـ ثم قام عن المائدة وقام بحركة الكنس لأنه لم يكن يعرف كلمة مكنسة بالإيطالية.

- الرجل ذو المكنسة؟

- نعم، رجل نحيف من غانا.

- ما اسمه؟

- لا أعرف.

- لا، لا أعرفه.

بعد الطعام حمل روفو طبقه إلى المطبخ وأراد غسله، "لا، دع عنك ذلك".

ثم ارتدى روفو حذاءه مجددًا، وارتدى ريتشارد حذاءه البني، الأكثر راحة، وكانت ورقة العشرة يورو ما زالت موضوعة على المنضدة، ولم يوافق روفو الآن -أيضًا- على أخذها.

عندما تود قراءة المزيد اتصل بي، سأعطيك رقمي، كتب ريتشارد اسمه ورقمه في هاتف روفو المحمول، ثم انطلقا، أولًا يسارًا ثم شارع ساوندسو ثم عند جانب الميدان وهكذا حتى وصلا إلى البيت.

وفي المساء بحث ريتشارد على الخريطة عن المسافة إلى شبانداو، وكانت بعيدة، فقد كانت ثلاثة أرباع الساعة بالسيارة.

27

كاد رأسه ينفجر من الألم، لم يكن عوض يرغب في التفكير ولكنه كان مضطرًا إلى ذلك، كانت الأفكار محبوسة في رأسه وكانت تصطدم في الداخل بجمجمته، استمر ذلك منذ الثالثة والنصف صباحًا، شعر بالدوار من شدة التعب، رغم ذلك كان عليه أن يسلم رأسه لذلك التفكير المتخبط، كان مضطرًا رغمًا عنه للتفكير، مضطرًا للتذكر رغمًا عنه، منذ منتصف الرابعة صباحًا يشعر بالغثيان من ذلك التفكير وتلك الذكريات التي احتلت رأسه، كان مستيقظًا منذ الثالثة والنصف صباحًا، حتى أنه جلس على حافة السرير وتمنى أن يتوقف ذلك ويغفو، عند منتصف الثامنة بدأ في الذهاب والمجيء، المرة بعد المرة، ذهابًا وإيابًا، حتى أن ذلك أيقظ رفاقه في الغرفة، ثم نزل إلى غرفة البلياردو، وصلت الساعة إلى العاشرة والنصف ولم يكن هناك أمل لحلول السلام في جمجمته، ثم طرق الباب.

ولأن الباب لم ينفتح عقب الطرق مباشرة عرف عوض أن الطارق هو ذلك السيد المهذب كبير السن حتى قبل أن يراه، ألم يحكِ له بالفعل كل شيء عن نفسه؟

فتح عوض له الباب وحيّاه، «كيف حالك»، «بخير»، ثم دعاه لتناول الشاي، كانت صورة النافذة المحطمة التي هرب عبرها حبيسة في رأسه، وكذلك كانت صورة الدماء حبيسة فيه، جلس الرجل كبير السن وقال إن لديه بعض الأسئلة الإضافية إذا سمح له بذلك؛ وكانت صورة أبيه حبيسة في رأسه، وعجز عن دفع كل تلك الأفكار خارج رأسه، وعندما قام لإعداد الشاي ظلت الأفكار حبيسة رأسه وكأنها حيوان ممزق الأوصال، تمنى لو استطاع امتلاك رأس آخر، ولكن عندما تنشب الحرب لا يبقى سوى الضرب والرصاص، عندما تنشب الحرب يتحول كل شيء إلى حطام، عندما تنشب الحرب لا يرى المرء سوى الحرب ولا شيء عداها، كان الرجل كبير السن يريد أن يعرف منه ماذا سيأخذ معه عند الارتحال إلى البيت الجديد في شبانداو الذي كان مقرر له ذلك اليوم، وماذا سيكون متاعه الذي سيأخذه معه وتحدث عنه بالأمس، الانتقال الذي موعده اليوم! قال عوض: «هذه الحقيبة هناك»، سأله الرجل كبير السن وهو يُخرج مُفكرة: «هل هذه حقيبتك؟ وماذا عدا ذلك؟»، فقال عوض: «لا شيء عدا ذلك»، «هلّا أخبرتني ما في الحقيبة؟»، فأملى عوض وكتب الرجل كبير السن، المهذب والذي ربما يكون مجنونًا أيضًا، كتب وراءه بعناية:

4 سراويل، 2 منها من بيت اللاجئين في إيطاليا، و2 من المنظمة الخيرية الألمانية.

1 سُترة، أهداها إليه صديق في إيطاليا.

3 تي شيرت,

3 أزواج من الأحذية، 2 منها مما جمعته المنظمة الخيرية، وزوجان اشتراهما له رجل ألماني.

1 زوجان من الصنادل، 1 ليفة.

لوسيون زبدة الكاكاو.

كان عوض ينطقها: «زبدة الكوكو».

سأله الزائر: «الزبد؟»، فأخرج عوض الزجاجة من الحقيبة وأراه إياها.

- حسنًا.

ثم عدد عوض باقي المحتويات:

1 فوطة، 1 فرشاة أسنان.

1 إنجيل بالإنجليزية، أهداه له يومًا شهود يهوه.

- هل لديك بلوفر؟

- لا».

- هل لديك سترة شتوية؟

- لا.

الانتقال الذي موعده اليوم!

كان الرجل كبير يعيش يوم قُتل أبو عوض ضربًا أو رميًا بالرصاص وما زال ريتشارد حيًا.

أحدهم طرق الباب وفتحه في نفس الوقت، كان أحد المشرفين، وقال للرجل كبير السن: «معذرة!»، ولعوض: «مرحبًا، كيف حالك؟ إننا نأخذ عينات دم لنعرف من أصيب بالجديري المائي من قبل، هلا أتيت معي؟»، ثم قال لزائر عوض: «إننا نفحصهم لنعرف مَن قد تكون لديه أجسام مناعية في دمه، هل يمكنك شرح ذلك له؟».

فقال عوض: لا أفهم.

فقال المشرف: عينة دم، وهذا أمر اختياري، أي فقط إذا وافقت، عوض، إننا ننتظر بأعلى في غرفة 4015. ـ ثم اختفى مرة أخرى.

قال الرجل كبير السن: مثل هذه الفحوصات جيدة، بسبب المرض.

فقال عوض: لن أذهب إلى هناك.

يا ترى بمَ نصحه أبوه؟ يومًا ما سيكون لعوض زوجة وولد ويعطي ابنه اسم أبيه، وسينادي ابنه بـ: أبي، وعندها سيصبح أبوه حوله كل يوم بعد أن يتحول إلى صورة طفل.

أخذ الرجل كبير السن الزجاجة مرة أخرى وحاول قراءة المطبوع عليها بخط صغير وسأل: فيما يُستخدم ذلك اللسيون؟

أبي، كيف سيبدو المطبخ الذي سيطهو فيه الطعام لابنه؟

وكيف سيبدو الحمام الذي سيعلمه فيه كيف يجفف المرء ظهره بالفوطة؟ وبعدها سيعلمه حلاقة الذقن، وفي أي مدينة وأي بلد سيكون ذلك؟ في إيطاليا؟ في ألمانيا؟ في فرنسا؟ في السويد؟ في هولندا؟ في سويسرا؟ أم في ليبيا، حيث موطنه؟ وحيث ما زالت الحرب مستعرة؟ عندما تدور رحى الحرب لا يرى المرء سوى الحرب، عليه أن ينتبه الآن كي لا يبدأ في الذهاب والإياب مجددًا، كان يعرف أن رفاق غرفته يقضون أيامًا كاملة في لعب البلياردو؛ لأنهم لا يحتملون عندما يبدأ في الذهاب والإياب، يجب عليه أن يظل هادئًا، فلديه زائر، عندما يريد المرء الوصول إلى مكان ما يجب عليه ألا يخفي شيئًا، عن ماذا سأل الرجل الكبير لتوه؟ اللسيون، الذي أراه إياه عوض، وما زال يمسك زجاجته في يده.

قال عوض: إننا نصاب ببقع على الجلد من الضوء هنا في ألمانيا، الضوء هنا سيء لنا.

نظر الرجل كبير السن إلى الستارة ذات المربعات الزرقاء الذي تبدو السماء الرمادية مثل الوبر من خلفها، فقال عوض: «يصاب المرء ببقع بيضاء قبيحة ولا يساعد شيء على تجنبها سوى زبدة الكوكو».

نظر الرجل كبير السن عن غير قصد إلى يديه المليئة بالبقع البنية، وقال: «أما أنا فيصيبني الضوء الألماني بنوع مختلف

تمامًا من البقع»، ثم وضع الزجاجة وأراه يده، فوضع عوض يده الداكنة بجوارها، وبدت فعلًا في بعض المواضع وكأن أحدًا حاول محو اللون منها.

لن ينسى عوض أبدًا شكل يدي أبيه، ولكن أين عسى تلك اليدان تكونان الآن؟ تحت الأرض، أم افترسها الكلاب والطير؟

لو سمحت لي بسؤال آخر؟ ـ ومسح الضيف بيده على ظاهر الأخرى وكأن باستطاعته محو بقع التقدم في السن.

- تفضل!.
- قال أحدهم في اجتماع الأسبوع الماضي أن الأدشاش يجب أن يكون لها أبواب يمكن غلقها، هل هذه قضية تتعلق بالدين فعلًا؟.

مثل هذا الألماني لا يعرف أن عورة الرجل من السُرة إلى الركبتين، وأن لا أحد سوى الزوجة يحق لها رؤية الرجل المسلم عاريًا.

فقال ريتشارد: «لا، لم أكن أعرف ذلك، ولكنه أمر شائق»، ثم كتب كل شيء مرة أخرى بعناية في مفكرته.

عندما وصل عوض إلى إيطاليا، في المعسكر، لم يصدق في البداية أن على الرجال هناك أن يبولوا بعضهم بجوار بعض مثل الحيوانات دون حياء.

فقال الضيف: «حسنًا»، ثم أغلق مفكرته، «ربما عليك أن تذهب الآن لتحليل الدم».

- ولماذا؟.
- هل تعرف ما هو الجديري المائي؟
- لا.
- ألم تر المرضى الآخرين؟.
- لا.
- يظهر على المرء بثور وتصيبه بالحكة، إنه أمر غير مريح.
- هل هو مميت؟
- لا، ولكن رغم ذلك.

شعر عوض للحظات ببالغ السعادة لأن أباه أخبره بما عليه فعله، كان أبوه صارمًا ولكنه كان عادلًا، ولم يشأ لابنه إلا الأفضل وحسب.

عندما دخلا غرفة المشرفين، كان أحد الرجال السود يجلس على كرسي في وسط الغرفة، وكانت المشرفة العجوز تطهر الموضع في ذراعه الذي ستدخل فيه الحقنة.

فسأل عوض: كيف لا يوجد هنا طبيب؟

فقالت: كنت أعمل في الماضي طبيبة.

لم يفهم عوض ذلك، فقد كانت تلك المرأة حتى تلك اللحظة مشرفة وكانت تساعد في ملئ الاستمارات، هل ستصبح غدًا قاضية أو شرطية، إن لم يوجد من يقوم بذلك الدور؟ والرجل كبير السن سيصبح فجأة بائعًا أو سائق سيارة نقل؟ ما هذه التمثيلية الغريبة التي يمثلها عليهم الألمان هنا؟ ولماذا من الأصل؟

قال له الرجل كبير السن: «اجلس»، ونبهه إلى أن الكرسي أصبح خاليًا وينتظره، فكر عوض: «ماذا يفعل الألمان بنا هنا»، ولاحظ أنه بدأ يصاب بحالة من الهلع، هل سينجح في الهرب قبل أن يمسكوا به، ثم قال: «سأحضر مرة أخرى حالًا»، ثم أومأ برأسه لضيفه، ثم استدار بهدوء قدر استطاعته، وخرج من الغرفة ونزل السلم ببطء شديد إلى غرفته التي لا يمكن غلق بابها من الداخل، ولكنه على الأقل أغلق الباب من دونه ووقف ساكنًا وظهره إلى الجدار، كان يتنفس بهدوء، لو دخل عليه أحدهم فإنه سيكون واقفًا في الزاوية الميتة، ولعل ذلك أفضل من لا شيء، لم يهدأ إلا بعد برهة عندما لاحظ أنه لا يوجد من يتبعه، ثم جلس حيث كان يجلس قبلها، على حافة السرير.

28

قال ريتشارد بعد أن غادر تريستان الغرفة: «سيتم في وقت ما عمل فحص حالة لكل حالة مفردة، أليس كذلك؟».

فقال أحد المشرفين: نعم.

- هل بدأتهم في ذلك؟
- لا.
- ولما لا؟

فقال المشرف: لا نعرف.

- وستعتنون بالرجال حتى يتم قبول طلبات اللجوء الخاصة بهم؟
- سيتم بداية فحص ما إذا كان سيُسمح لهم أساسًا تقديم طلبات لجوء هنا في ألمانيا.
- أمزيل، دروسيل، فينك وستار اقترفوا خطأ الهبوط ترانزيت في إيطاليا. ـ كان ريتشارد قد نسي ذلك بالكاد. ـ أليست هذه مجموعة اضطرت لمغادرة ليبيا تحت نفس الظروف

بسبب الحرب؟

- نعم، ولكن كل واحد منهم جاء في الأصل من بلد مختلف إلى ليبيا.
- حسنًا.
- هل ترغب في احتساء القهوة؟ ـ وعادت ماكينة القهوة تصدر صوت غليان.

فكر ريتشارد إنه من الناحية الفيزيائية شيء ذكي أن يتم تقسيم مجموعة إلى حالات فردية، وقال: «نعم، رجاء».

- هل حصل الرجال في تلك الأثناء على النصف الثاني من نقودهم؟
- لا، فالانتقال لم يتم بعد.

وإذا سمحتم لي بسؤال: هل أنتم جميعًا تعملون فعلًا في رعاية كبار السن؟

أخذ ريتشارد مكعبات سكر من كيس السكر ووضع بعض اللبن في قهوته.

- لا، نحن أخصائيون اجتماعيون أو متقاعدون من نفس المجال، مثل السيدة الطبيبة، نحن نعمل بعقد مؤقت لستة أشهر، كان ذلك جزءًا من اتفاق ميدان أورانين، مهمتنا مساعدة اللاجئين في إنجاز أوراقهم في المصالح

الحكومية.

- أي مصالح حكومية؟

وضعت الطبيبة الكانيولا جانبًا وجاءت إلى منضدة القهوة: "مصلحة الأجانب، إدارة الحي، مصلحة الشئون الاجتماعية، أحيانًا إلى طبيب، وأحيانًا إلى محامي".

- هذا بالنسبة للأشخاص الذين اضطروا للاستدانة؟

- لا، بل بالنسبة للأشخاص الذين يستطيعون دفع أتعاب المحامي.

- وكم يتكلف ذلك؟.

- مسائل اللجوء 450 يورو، هذا ما يطلبه المحامون عادة، ثم يطالبونهم شهريًا بـ50 أو 100 يورو فقط.

حسب ريتشارد: 357 ناقص 57 لبطاقة المواصلات الشهرية، يتبقى 300، ناقص 100 للأم، مثلًا في غانا، يتبقى 200، ناقص المحامي الأرخص يتبقى 150، وربما كارت مدفوع مسبقًا للتليفون المحمول، إذن لا يتبقى للحياة اليومية حتى خمسة يورو.

- كم عدد المشرفين على المجموعة؟

- اثنا عشر يعملون نصف دوام.

وسمع في صوت أبولو ما يقول: نحصل على مال ولكننا نفضل

الحصول على فرصة عمل؛ في حين سمع في صوت تريستان قول: قليل من العمل، وفي صوت عازف البيانو كان هناك ما يقول: نعم، أريد أن أعمل ولكن ذلك ممنوع، وفكر ريتشارد في أن اللاجئين قد منحوا باعتراضاتهم على الأقل لاثني عشر ألماني عملًا لنصف دوام؛ ثم قال:

ـ إذا سمحتم لي بطرح سؤال في موضوع مختلف تمامًا. ـ فقالت المشرفة التي كانت تعمل في السابق طبيبة: "بكل تأكيد"، ثم خلعت قفازيها وجلست.

- لماذا يدفع الرجال كامل ثمن بطاقة ركوب المواصلات الشهرية؟
- لأنهم لا يحصلون على تسهيلات تبعًا لقانون اللجوء.
- لأنه لم يُسمح لهم حتى الآن أن يكونوا طالبي لجوء؟
- بالضبط.

فقال المشرف المسؤول عن ماكينة القهوة: ولذلك يحصلون على 357 يورو، وليس 300 يورو.

قلب ريتشارد قهوته ولم يقل لبرهة أي شيء؛ ثم بدأ مجددًا: هل كانوا يحصلون على تلك المبالغ وهم في ميدان أورانين؟

- لا.

- ومن أين كانوا يعيشون؟

- من التبرعات.

وعندها تذكر ريتشارد الكرتونة التي كان مكتوب عليها تبرعات التي رآها قبل ذلك في ميدان أورانين، وكان ورآها رجلان ينتظران.

وعندما ينتهي الفحص الفردي؟

عند ذلك سيرون من له حق ومن لا.

فقال ريتشارد: "مفهوم"، ثم أخذ رشفة من قهوة الماكينة التي كان مذاقها تمامًا مثل القهوة في غرفة انتظار الخبير الضريبي أو في صالة انتظار معرض سيارات أو في قاعة انتظار الموثق العقاري.

أشار برأسه نحو الباب وسأل: أتعتقدون أنه سيأتي مرة أخرى؟.

فقال المشرف: لا أعتقد.

- هل حضر كثيرون لأخذ عينة الدم هنا؟

- لا.

فقال الثالث الذي يجلس تحت الجزء المنحني من السقف ولم يقل شيئًا حتى تلك اللحظة: عندما يتعلق الأمر بالدم يتصرفون أحيانًا بغرابة.

في طريقه لأسفل ألقى ريتشارد مجددًا نظرة جانبية إلى الردهة الفارغة في الطابق الأول، لم يكن فيها أحد، عند المدخل أسفل كان أبولو يبرز للقائم بالخدمة تحقيق شخصيته وهو يهم بالخروج، "كل شيء تمام!"، لحق به ريتشارد في الخارج وسأله إن كان لديه في عطلة نهاية الأسبوع وقت ليساعده في أعمال الحديقة، وسيدفع له مقابل ذلك، "بكل تأكيد"، فقال أبولو بالألمانية: "لا توجد مشكلة".

كان قد اتفق مع عازف البيانو أن يحضر لزيارته يوم الأربعاء، وبالتأكيد سيزوره روفو -أيضًا- قريبًا، قمر فيسمار، ليقرأ المزيد من دانتي، لقد مر وقت طويل منذ قال مدير دار المسنين إنه ربما من الأفضل أن يتحدث إلى اللاجئين هناك في استراحة المسنين وليس في بيته، أليس كذلك؟ وقال: "أنا أخبرك بذلك وحسب"، ولكن ماذا كان يعني بمقولته تلك: "أخبرك بذلك وحسب؟"، لقد بدأ ريتشارد متأخرًا ستة أسابيع في الشعور بالغضب من تلك المقولة، وما زال الميت قابعًا في قعر البحيرة، إذا لم يكن قد تحلل بالفعل.

فكر ريتشارد في المساء عندما أراد الخلود إلى النوم وخلع ملابسه إذا كان لديه هو الآخر عورة كالتي ذكرها تريستان اليوم، وفكر عندما نظر إلى جسمه في أن المنطقة من سرته نزولًا إلى ركبتيه اللتان تبرز عظامهما كان شكلها أفضل في الماضي، حتى الشعر الذي ينمو هناك أصبح جميعه رماديًا، وفكر: هل

سيجمعه يومًا فراش بالإثيوبية، أو يقف معها تحت الدش أو يجمعهما عناق؟ أو يكون في أحد تلك الأوضاع مع أي امرأة أخرى مرة ثانية؟ ربما يكون أصعب ما على المرء أن يتعلمه في الكبر هو التخلي عن التمني، ولكن لو لم يتعلم المرء ذلك فإن الأماني ستسحب صاحبها بسرعة أكبر كالصخور إلى القبر.

29

في البدء كان كُلاً متشابهًا يحمل في طياته كل شيء: الأنثوي والذكوري، المكان والزمان، المتشابه والمختلف، ولكن هذا الكل هبط عبر الفراغ وظهر في صورة الأشكال المختلفة، الأنثوي كثيف وجسدي، يحمل بين طياته المادة الأولى وكان موجودًا أولًا، ثم جاء إليه الذكوري، وهو كيان أخف ومتحرك، وهكذا نشأ -أيضًا- المكان والزمان؛ ولكن كل من تلك المظاهر لا يظهر إلا بوجود الآخر، ليس منها ما هو في منزلة أعلى من الآخر، وهي تكمل بعضها البعض وتبقى في اختلافها ذلك الكُل، تبقى جسدًا واحدًا، وهكذا هم فرادى البشر في المجتمع، أجزاء كل حيوي؛ يقومون مثل أعضاء جسد واحد بوظائف مختلفة، ولكنهم مرتبطين بعضهم ببعض ارتباطًا وثيقًا، كما يوجد -أيضًا- جسد سياسي يتكون من القبائل المختلفة، يقول الطوارق: إن الفرنسيين قد قاموا في الستينات بتقسيم المنطقة التي كانوا يسكنوها منذ القدم إلى خمس دول مختلفة وبهذا قد مزقوا جسدهم السياسي،

هكذا قرأ ريتشارد.

بدأ قراءاته بهيرودوت، الذي وصف في القرن الخامس قبل

الميلاد الجرمنتيين، أسلاف الطوارق، لقد تعلم الإغريق توجيه عربات الحرب من رجال ذلك الشعب البربري، وتعلموا من نساءهم الشِعر، حتى اليوم ما زال نساءهم العجائز يجلسن في الليل قبل طلوع الشمس تحت السماء ويغنين:

حتى وإن كان المرء غنيًا ولديه ثروة،

فإن الموت منه قريب.

الموت أكبر من الزمن، ويحتويه.

إنه يلقي بسهامه الآن،

وستسقط في وسط القطيع.

يُقال إن أسلاف الطوارق قد جاؤوا قبل 3000 سنة من منطقة سوريا حاليًا، وربما من القوقاز عبر مصر إلى شمال إفريقيا، الذي كان يسمى كله في العصر العتيق بليبيا، أي ما يضم اليوم -أيضًا- تونس والجزائر، ثم انتقلوا مع مرور الوقت إلى الغرب والجنوب وصولًا إلى: تمبكتو وأجاديس وواجادوجو.

قرأ ريتشارد، وبينما هو يقرأ، ظهرت له سماء الآلهة الإغريق، التي تُمثل مجال تخصصه، في صورة جديدة وفهم فجأة معنى اعتبار الإغريق منطقة المغرب الحالية نهاية العالم، عند جبال الأطلس، هناك انفصلت السماء عن الأرض كي لا يغشى أورانوس

جايا، الأم الأرض، مجددًا ويؤذيها، كانت المناطق التي تسمى اليوم ليبيا وتونس والجزائر في العصر العتيق منطقة ما قبل نهاية العالم، أي كانت العالم، وقف ابن جايا على رمال ليبيا، العملاق أنتيوس، الذي حصل على قوته من ارتباطه بأمه، ولم يُهزم حتى حمله هرقل في الهواء حتى انمحى الارتباط بين أنتيوس وبين أمه، أما أثينا صاحبة عيون البومة، التي يسميها بعض العلماء الإلهة السوداء، فقد تربت عند الأب الذي تبناها تريتون على ضفاف بحيرة تريتونيس، في تونس الحالية، أما الأمازونيون، أول من قدس أثينا، والذين يسمون في الأصل أمازيج وهو اسم نساء البربر المحاربات، فكن يرقصن على ضفاف تلك البحيرة ومنها كن يخرجن للحرب، وكن يتحدثن لغة التماشق، وهي نفس لغة الرجل الذي قابله ريتشارد قبل أسابيع وسماه أبولو دون أن يكون على علم بالأسطورة: اللاجئ من الغرفة رقم 2019.

واستمر ريتشارد في القراءة.

وكذلك ميدوسا، الجورجون الذي تحول شعر رأسها إلى ثعابين من ينظر إليها، كما يُقال، كان يتحول إذا نظرت إليه إلى حجر، كانت يومًا ما فتاة ليبية بربرية جميلة ومحاربة ناجحة، ولكن عندما ضاجع بسويدون، إله البحر، الفتاة الجميلة في معبد من معابد أثينا على ساحل ليبيا تحديدًا قامت إلهة الأمازونيين الغاضبة بتحويلها إلى صورة مفزعة ثم أعطت بعد ذلك لبيرسيوس الدرع المنعكس الذي ساعده على تجنب نظرة الجورجون القاتلة

وقطع رأسها أخيرًا دون أن يتحول إلى حجر، وتحولت قطرات الدماء التي سالت على رمال ليبيا عند قطع رأس ميدوسا إلى ثعابين، حسب ما قرأ ريتشارد، لا، إنها ليست مصادفة أن تكون لنساء الطوارق اليوم قطعان الغنم والخيام، وأنهن يخترن الأزواج ويطلقن أنفسهن عندما يشأن، وأنهن يمشين دون حجاب في حين يرتدي الرجال الحجاب في سيرهم، وأنهن يقسمن الإرث، وأنهن مشهورات حتى اليوم بفن الشعر وبأغانيهن، وأنهن هن اللاتي تقمن بتعليم أولادهن نفس الكتابة التي رآها هيرودوت بعيني رأسه.

كثير مما قرأه ريتشارد في ذلك اليوم من شهر نوفمبر بعد أسابيع قليلة من تقاعده كان معروفًا له تقريبًا طوال حياته، ولكن اليوم فقط وبفضل ذلك الجزء من المعلومات الذي ينساب إليه يعيد الامتزاج والتكوين من جديد، كم يضطر المرء لإعادة تعلم ما يعرف وإعادة اكتشافه المرة بعد المرة، كم مرة يجب أن ينزع عنه القناع حتى عظامها حتى يفهم الأمور على حقيقتها؟ هل تكفي حياة واحدة لتحقيق ذلك؟ حياته ـ أو حياة أي شخص آخر؟

عندما ينظر إلى الطريق الذي قد يكون البربر قد سلكوها: من القوقاز عبر الأناضول وليفانتي وصولًا إلى مصر وليبيا، ثم إلى النيجر الحالية ومن النيجر رجوعًا إلى ليبيا المعروفة اليوم ومنها عبر البحر إلى روما وبرلين، إنها طريق يقارب ثلاثة أرباع دائرة

كاملة، استغرقت حركة البشر عبر القارات آلاف السنين دون توقف أبدًا، كان يوجد تجارة وحروب وتهجير، بحثًا عن الماء والغذاء تبع البشر عادة الماشية التي يمتلكونها، وكانوا يهربون من الجفاف والأوبئة، وكانوا يبحثون عن الذهب والملح أو الحديد، أو كان الوفاء لعقيدة الإيمان بالإله الخاص بهم يضطرهم إلى الشتات، كان يوجد انهيار لحضارات وتحول وإعادة بناء ومستوطنون، كانت توجد سبل أفضل وأخرى أسوأ، ولكن لم يوجد توقف وسكون أبدًا، لو أراد ريتشارد أن يشرح لأحد طلابه أنه لا يعني بذلك قانونًا أخلاقيًا وإنما بالأحرى قانونًا طبيعيًا فلن يكن عليه سوى أن يشير عبر النافذة إلى أوراق الأشجار الساقطة على الأرض، والتي كان يسعده رؤياها في الربيع، والتي كانت تحمل في طياتها بذور الربيع القادم، ولكن لم يكن هناك طالب ليسأله عن ذلك.

واستمر ريتشارد في القراءة.

قرأ عن مدن الجرمنيين المفقودة وقلاعهم المهدمة وأنظمة الري التي استحدثوها تحت الأرض في الواحات التي كانت يومًا كثيفة السكان عند بدايات طرق التجارة التي كانت تمر عبر الصحراء في اتجاه الجنوب، والآن بعد سقوط القذافي أثبتت صور الأقمار الصناعية أن السكان الأصليين لليبيا لم يكونوا قطاع طرق على هامش المدنية وإنما بشر كانوا على قمة التقدم التكنولوجي في عصرهم، كما يذكر موقع الحكومة الانتقالية الإلكتروني، رأى

ريتشارد أن الموقع عمره عامان، وفي ذلك الحاضر الممتد منذ سنتين كانوا يرجون أن تبدأ أبحاث جديدة حول التاريخ الليبي القديم، التي اقترفوا تحت حكم القذافي جريمة إهمالها، قريبًا ستتاح للشعب الليبي لأول مرة إمكانية البحث في تاريخه الأصلي الذي تعرض للقمع طويلًا، ورغم أنه قد تم حاليًا إجلاء البروفيسور المسؤول عن تلك الأبحاث بسبب القلاقل التي تشهدها البلاد، إلا أنه من المقرر بمجرد عودة الأمن في ليبيا فسيبدأ في أبحاثه بتمويل أوروبي، أصبح ريتشارد يعيش الآن في ذلك المستقبل الذي أصبح عمره عامين ولذلك يعرف أن الميليشيات المختلفة قد حولت ليبيا منذ سقوط القذافي ولأسباب مبهمة إلى ساحة حرب، منذ عامين لا ينشغل الشعب الليبي بسبر أغوار تاريخه الأصلي قبل الإسلام، وإنما فقط بالبقاء حيًّا، وكما أن القذافي لم يكن يمول الباحثين المحليين في التاريخ الليبي إلا تمويلًا متواضعًا فقد جمّد الأوروبيون -أيضًا- دعمهم، وربما يكون باحثو الحضارة القديمة في المنى منذ سنتين، في حين يقوم لصوص الآثار المسلحون بالبحث في قلاع ومدن وقرى الجرمنيين كلها ونهب كل ما يمكنهم بيعه منها، وأصبحوا في ليبيا ينظرون إلى جيران الجرمنيين على أنهم أجانب ولذلك تم قبل عامين وضعهم مثل باقي الأجانب في قوارب ومطاردتهم ليفروا إلى أوربا، ما هي الفترات الزمنية التي يجب على المرء أن يقيس فيها ما يمكن تسميته بالتقدم؟

قرأ ريتشارد وقرأ، ولذلك لم يكن قد تناول طعام الغداء عندما

اتصل به أصدقاؤه واقترحوا عليه الخروج في نزهة؛ قالت سيلفيا سيحل الظلام سريعًا، في حين كان ديتليف ينادي من خلفها: «سيأتي توماس - أيضًا - معنا»، ألن يكون توماس مضطرًا للبقاء في البيت طوال الأسبوع؟

لا، لأن ابنة عم زوجته تزورها حاليًا.

توماس السمين، كان يعمل في السابق أستاذًا لعلم الاقتصاد، وحاليًا متخصص في الكمبيوتر، وضع في فمه سيجارة وهو يمشي وقال: «ما زال بها ست»، وهزَّ علبة السجائر قبل أن يدسها في جيب معطفه مرة أخرى، على ما يبدو كانت هذه آخر العُلب الثلاث التي تسمح له بها زوجته أسبوعيًا.

وأضاف: لن أحصل على العلب الجديدة قبل يوم الإثنين. فأومأ الأصدقاء برؤوسهم.

كان ريتشارد وتوماس وسيلفيا وديتليف يسكن بعضهم بالقرب من بعض على مسافة لا يكاد المرء يقطعها في عشر دقائق، ولكنهم ربما لن يتقابلوا أبدًا لو لم تتصل سيلفيا به وبتوماس، كما فعلت في ذلك اليوم.

سأله ديتليف: كيف حال الأفارقة؟

- سينتقلون قريبًا.

سأل توماس: أي أفارقة؟ ـ واستمع إلى مختصر القصة التي حكاها ريتشارد للآخرين من قبل، كما حكى ريتشارد - أيضًا - عن الإلهة أثينا وميدوسا وأنتيوس وأخيرًا عن موعده مع أبولو.

فقال توماس: ولكن أبولو كان من ديلوس. ـ ورغم أن تخصص توماس كان تاريخ الاقتصاد إلا أنه كان يعرف كل شيء على الأقل بنفس درجة معرفة ريتشارد.

قال ريتشارد: نعم، نعم، ولكني أعني اللاجئ، سيأتي غدًا ويساعدني؛ لأني أريد إعداد الحديقة للشتاء، كما لن يمكنني إخراج قارب التجديف من الماء وحدي، أخرج السفينة إلى اليابسة واجعلها تستند إلى الأحجار بحيث تستطيع الأحجار مواجهة الرياح العاتية، واسحب السدادة أيضًا؛ وإلا فأمطار زيوس ستجعلها تتعفن.

قال توماس: الأعمال والأيام.

فقال ريتشارد: الأعمال والأيام. ـ كان توماس الوحيد من بين أصدقائه الذي ما زال يحفظ أعمال هسيود عن ظهر قلب.

وقال ديتليف: لولا آلام ظهري لعاونتك.

فقال له ريتشارد: أعرف ذلك.

سأل توماس: هل أبولو من الطوارق؟

- نعم.
- من النيجر؟.
- نعم.
- إذن يجب أن تفحصه بجهاز جايجر قبل أن تقول له صباح الخير.

فقال ريتشارد: أعلم.

فسألتهما سيلفيا: ولم ذاك؟

فشرح لها ريتشارد: يوجد في النيجر كمية من اليورانيوم أكثر من أي مكان آخر في العالم.

وبينما كانوا يمرون على أشجار الصنوبر والسندان، وبينما كان الكلب يأتي متبخترًا -وهو كلب الزوجين- اسمه كونياك، وكان كثيرًا ما يجري بعيدا عنهما، حكى ريتشارد لصديقيه ديتليف وسيلفيا، اللذان ربما لم يكونا يعرفان أين تقع النيجر تحديدًا، عن مجموعة شركات آريفا الفرنسية، التي تحتكر حفر المناجم وتلقي بمخلفاتها حيث كان الطوارق يرعون قطعان الجمال، وأضاف ريتشارد أنهم بالتأكيد يعيشون هناك أيضًا.

كانت في السماء مجموعة من الطيور تحاول تشكيل مثلث في الهواء لبدء رحلتها إلى إفريقيا، أما صندوق البريد عند قطعة الأرض المهجورة منذ أجرها مالك الشاليه لمجموعة طلبة من

برلين فقد تم طلاؤه باللون الوردي.

قال ريتشارد: إن الماء قد أصبح ملوثًا هناك، نفقت الجِمال وأصيب الناس بالسرطان دون أن يعلموا لماذا، ولكن التيار الكهربي يسري في فرنسا ولدينا هنا -أيضًا- في ألمانيا.

كرر ديتليف: «لدينا هنا في ألمانيا» ـ ولم يعلم ريتشارد هل يعجب ديتليف من محتوى الجملة أم من الطريقة التي صاغها بها ريتشارد، البلد الذي كان يسمى ألمانيا كان حتى عهد قريب على الجانب الآخر من السور، فقال ريتشارد: هنا على أي حال. ـ وكأنه يريد الاعتذار عن أنه قد وحد في كلماته البلدين.

فقال توماس: فضلًا عن ذلك فإن دخل تلك المجموعة الاقتصادية في العام أعلى من كل دخل دولة النيجر.

فسأله ريتشارد: وأنّى لك أن تعرف ذلك؟

فقال توماس: من تلك المعلومات التي يقرأها المرء هنا وهناك. ـ وأطفأ سيجارته في رمال براندنبورج.

قال ريتشارد: هذا أمر سيء فعلًا، فالطوارق قاموا بالفعل عام 1990 بحركة مقاومة تبعتها مذبحة، ومن ثم عمَّ الهدوء مرة أخرى، وقبل عدة أعوام تكرر ذلك مرة أخرى.

كان شخص ما قد قام بملء الفراغات في الطريق الرملي بحصى

الحجارة والصخور، بالتأكيد ليحافظ على مساعدي سيارته.

قال توماس: والحكومة الوحيدة التي حاولت طرد الفرنسيين حدث انقلاب سريع عليها، أيًا من كان من قام به.

سألت سيلفيا: ألا نعود الآن؟ ـ وكانت تسأل ذلك دائمًا عندما كانت تنتهي بهم النزهة عند آخر صف البيوت، لذا مشوا في قوس عبر الغابة التي كانت لا تزال تفوح منها رائحة الفِطر رغم أنه بالتأكيد كان قد ذبل وتعفن من فترة طويلة.

قال ريتشارد: القاعدة - أيضًا - سمعت باليورانيوم، والسؤال هو فقط هل سيتحالفون مع الطوارق ضد حكومة النيجر أم لا.

فقال ديتليف: ربما لا يوجد تعارض بين الأمرين.

فأردف ريتشارد قائلًا: بالتأكيد الصحراء كبيرة، كبيرة بما يكفي لعدة جبهات.

فقالت سيلفيا إن ما تفعله تلك المجموعة الاقتصادية هناك يشبه تمامًا ما حكاه ريتشارد قبل قليل: هرقليس يرفع أنتيوس من على الأرض مما يجعله يفقد قوته.

فقال ديتليف: ألا يرتدي فريق إف سي نورينبرج فانلة مكتوب عليها أريفا؟

قال ريتشارد: ربما! ـ وفكر في تلك اللحظة تحديدًا في أنهم هم

الأربعة هنا، وهو أحدهم، ينتمون لجسد واحد، يد، ذقن، أنف، فم، أقدام، عيون، مخ، أم ضلوع، قلب أم أسنان، لا يهم، فكر ريتشارد في ذلك طوال الوقت وهم يتحدثون معًا، وهم يمرون في طريق العودة مرة أخرى بقطعة الأرض التي تسكن فيها الموظفة التي تهدد على الفور مع كل خطأ يرتكبه الجيران بدفع 2000 يورو غرامة، وكذلك وهم يمرون مرة أخرى بقطعة الأرض التي رفع عليها رئيس اتحاد الصيادين علم ألمانيا، وكذلك عندما مروا مجددًا على المسبح الذي ظل يتيمًا طوال الصيف، وكان ريتشارد يشاهد كيف علقت سيلفيا يدها في يد زوجها ديتليف، وكيف ألقى توماس نظرة إلى علبة سجائره ثم وضعها مجددًا في جيب معطفه وهو مقطب جبينه دون أن يأخذ منها سيجارة أخرى.

كيف سيصبح الحال إذا جاء اليوم الذي لن تكون موجودة فيه سيلفيا التي تتصل أحيانا به أو بتوماس أو ببعض الأصدقاء البرلينيين؟

30

ظل القارب في مكانه في المرأب طوال الصيف، ولكن ريتشارد لم يستخدمه ولا مرة بسبب الميت القابع في البحيرة، لقد هطلت أمطار قوية في الأيام الماضية ومنذ ذلك الحين والقارب ممتلئ بالماء، ولم يبقَ الكثير حتى يغرق، سحب الرجلان القارب وكأنه حوت سكران إلى الشاطئ كي يستقر على الأرض ويتمكنا من الصعود إلى مقعد التجديف لإفراغ الماء.

سأل ريتشارد: هلّا أخبرتني، متى ولدت تحديدًا؟

فقال أبولو: 91.

وافق ذلك ظن ريتشارد.

- وفي أي شهر؟
- الأول من يناير.

أي ثمانية أشهر بعد المذبحة التي وقعت للقضاء على مقاومة الطوارق في النيجر والتي حكى عنها لأصدقائه بالأمس، فكر ريتشارد في ذلك ولكنه لم يقل شيئًا، ثم قال: حظك جيد فقد ولدت في الليلة التي تنطلق فيها الألعاب النارية.

- الإيطاليون يدونون هذا التاريخ إن لم تتوافر مستندات.

فقال ريتشارد: أفهم.

ثم عملا لبرهة على إفراغ الماء.

ثم بدء ريتشارد بعدها: أخبرني، فقد قرأت في الإنترنت أنكم تحفرون آبارًا عميقة جدًا، ثم يجذب حمار الدلاء الممتلئة بالماء لأعلى، هل الأمر هكذا حقًا؟.

فقال أبولو: نعم، ويجب على الحمار أن يمشي مسافة بطول الحبل المعلق به الوعاء، ثم يعود مرة أخرى، كل يوم عليه القيام بذلك ثلاث أو أربع ساعات.

- ولكن هذا مرهق جدًّا.
- الماشية تحتاج إلى الماء.
- ولكن لماذا لا تلفون الحبل عن طريق إطار وذراع مثلًا؟.
- لا يثبت ذلك في الرمال.
- إذن فبالتأكيد حفر مثل الآبار يكون خطيرًا.
- نعم، لقد رُدم كثيرون في أثناء القيام بذلك.

ثم قام الرجلان بجذب القارب فوق قطع من الخشب المقطوع من شجرة بعد أن وضعوه تحته، وسحبا القارب فوق الحشيش حتى حافة المرعى، قرأ ريتشارد في اليوم السابق أن كميات

المياه الضخمة التي تحتاجها المناجم لتخليص اليورانيوم من الأحجار أدت إلى انخفاض منسوب المياه الجوفية حول المناجم بصورة ملحوظة.

- هل تعرف أرليت؟

فقال أبولو: طبعًا، إنها منطقتي.

قريبًا سيجد العالم مجددًا مناسبة للحديث عن الطوارق لأن الوزير الفرنسي يريد بشدة استكمال المشروع الذي بدأ، عندما يتحقق عاجلًا أو آجلًا مشروع قطار الصحراء، ويصبح الحصان البخاري الهادر منافسًا للجمل السريع على رمال الصحراء فإن أبناء الصحراء سيمرون بخبرات سيئة، سيحاولون إيقاف الحضارة، ولكن المرء سيواجه هجماتهم بقذائف المدافع والنبيذ حتى يسلموا أرضهم للمتمدنين مثل ما فعل الهنود الحمر في أمريكا، هذا ما نشرته الـ«جارتينلاوبه» عام 1881 بعد اختراع الصحافة بفترة قصيرة، ورغم أن مشروع قطار الصحراء لم يكتمل إلا إنه وبعد أقل من قرن قام الفرنسيون بدلًا من ذلك بالبدء في استخراج اليورانيوم في مستعمرتهم القديمة.

فكر ريتشارد في كلمة «حضارة»، وكذلك في كلمة «تقدم».

وقال: انتبه، أنت تميل القارب وأنا سأديره على جانبه الآخر.

وبينما أمسك ريتشارد بالقارب أحضر أبولو الأخشاب المستديرة

ليضعها تحته، ثم تركاه معًا ببطء حتى أصبح على الجانب الآخر.

- ولكنك لم تعمل في منجم في أرليت، أليس كذلك؟

- لا، كان لدينا جمال.

- هل كنت تخرج بالقوافل؟

- نعم.

- وبمَ كنتم تتاجرون؟

- كنا نبيع الجمال في ليبيا.

- ومن أي سن بدأت في عمل ذلك؟

- تقريبًا من سن العاشرة، من تلك السن يخرج المرء مع الرجال.

- وكم تستغرق رحلة مثل تلك القوافل؟

- عدة أشهر، وأحيانًا سنة.

- في وسط الصحراء؟

- نعم".

- وكيف تجدون الطريق هناك؟

- إننا نعرفه.

- نعم، ولكن كيف؟.

هز ابن الطوارق الشاب كتفيه.

- إننا نعرفه.

أراد ريتشارد لو يفهم ذلك، وكان لا يزال واقفًا بجوار قارب التجديف المقلوب مع الشاب الذي قطع ثلاثة آلاف ونصف كيلومترًا كي يساعده في أعمال الحديقة.

- هل تعرفون الطريق من النجوم؟

- نعم.

- وفي النهار عندما لا تكون النجوم مرئية؟.

- يعرف الرجال ما حدث على الطريق.

- ماذا حدث في الطريق ومتى؟

- دائمًا.

- في كل وقت؟

- نعم.

- يحكون ذلك؟

- نعم".

- في أثناء السير؟

- نحن لا نسير بل نركب الجمال.

- نعم، بالفعل

- في الماء تُحكى الحكايات

- نعم، حسنًا.

- ولكن هل تتعرفون على الطريق من الحكايات؟

- نعم.

- تعرفونه من ذكرياتكم؟

- نعم.

سكت ريتشارد، كان بالتأكيد يعرف دائمًا أن الإلياذه والأوديسة قبل أن يكتبهما هوميروس، أي أحد آخر قبله، كانتا تنتقلان كحكايات مروية شفاهة في البداية، ولكن العلاقة بين المكان والزمان والشعر لم تتضح له قبل ذلك كما حدث في تلك اللحظة، فقد اتضحت الآن بقوة على خلفية الصحراء، إلا إنها لم تكن مختلفة عن ذلك من حيث المبدأ في أي مكان آخر من العالم: لولا الذكريات لما كان الإنسان أكثر من قطعة لحم فوق كوكب ما.

ثم هذَّبا المرعى، وبعدها أدخلا أثاث الحديقة إلى أسفل السقف المموج، وأفرغا الهواء من القارب المطاطي الذي لم يجربه ريتشارد هذا الصيف ولا مرة، ثم أحضرا قطع الخشب من الغابة إلى موضع إشعال النار وفكَّكا أدوات الشواء، ثم دفع ريتشارد خمسين يورو للاجئ الذي كان يبدو تمامًا كما تصور ريتشارد دائمًا شكل أبولو.

31

في يوم الإثنين ارتدى ريتشارد حذاءه الأسود الذي لم يكن مريحًا ولكنه كان مناسبًا للسروال الرمادي، ما هي الحكايات التي سيحكيها عن الطريق الذي يقطعه إلى دار المسنين؟ غرق رجل في البحيرة؟ هناك على قطعة الأرض في الأمام ربى أحدهم يومًا طاووسًا؟ كانت صرخات ذلك الطائر الغريبة مسموعة على مسافة كيلومترات، كان يتنزه مع أمه وصولًا إلى ذلك البيت الأصفر المستأجر، عندما كانت لا تزال حية وتستطيع المشي، وكان يحضرها من الدار كل يوم أحد؛ لتناول الطعام، ثم النزهة، ثم شرب القهوة. احتفل مع زوجته بعيد زواجهما الفضي في المطعم الموجود في الميدان بعد انتقالهما إلى ذلك المكان بفترة بسيطة، في المتجر الواقع على الناصية، حيث يوجد الآن مطعم للوجبات السريعة، كان يوجد في الماضي متجر عِدد وأدوات حتى وجدوا صاحب المتجر ذات صباح مشنوقًا في حبل، ولم يعرف أحد لمَ قرر إنهاء حياته، أما المبنى المسطح، حيث كان أحد فروع سلسلة «كونزوم» أيام جمهورية ألمانيا الديمقراطية، فيوجد فيه الآن فرع لمصرف الادخار، ثم يأتي بعد ذلك البيت الذي هُدم قبل فترة قريبة، والذي لم يعد يُرى مكانه سوى رمال

فاتحة اللون، والإشارة الضوئية التي تضيء دائمًا باللون الأحمر كلما تجاوز أحدهم السرعة المقررة عند مروره، سيفكر بعد ذلك كلما مرَّ سيرًا أو بالسيارة جوار المبنى المشيد بالطوب الأحمر: «هنا كان يسكن الأفارقة».

هل سيكون له مكانًا في قصصهم؟

ربما، وهل يعني ذلك شيئا؟

كان قد وصل إلى الدار، ففتح له أحد الحراس الباب ليس من قبيل الأدب ولكن لأن الباب كان موصدًا من الداخل كالمعتاد.

وعندها أخبروه بأن درس اللغة في صورته المعتادة مُلغى في ذلك اليوم وبصورة دائمة، فقد ذهبت المعلمة، والرجال يستعدون الأن الدورة الرسمية التي ستبدأ بدلا عنه في إحدى المدارس الليلية في حي كرويتسبيرج.

فقال ريتشارد متعجبًا: هكذا إذن!.

لم يكن لديه حتى رقم هاتفها.

قال أحد الحراس إنه يأسف لأن ذلك قد أزعج ريتشارد ودعاه للجلوس.

شكره ولم يجلس، بل ظل واقفًا ولاحظ فجأة أن الهواء أصبح له ثِقل، ماذا عساه يفعل الآن؟ وكان لا يزال واقفًا في الغرفة الأمامية

عندما ظهرت أول مجموعة من الرجال ليتجمعوا ويخرجوا معًا، ظهر الرجل ذو الحذاء الذهبي الذي لم يره من قبل في دار المسنين وإنما عند زيارته الأولى في ميدان أورانين: هيرميس، كان يضع نظارة ذات زجاج سميك، وكان مضفرًا شعر رأسه في ضفائر مشدودة ولامعة، ثم ظهر الصديقان الحميمان خليل ومحمد؛ الأول مرتديًا سلسلة من الذهب غير الحقيقي حول عنقه، أما الآخر فقد أنزل بنطاله حتى أن ردفيه كانا يظهران بصورة كاملة وليس جزئية، وظهر أبولو الذي كان قد لوَّن حول عينيه بقلم فحم أسود وربط حول رأسه منديلًا بحيث وقف شعره، وظهر الرجل الذي كان يقول بالإيطالية «كيف حالك، كل شيء على ما يرام»، وظهر رشيد مرتديًا تي شيرت عليه صورة فهد، كل شيء تمام؟ وجاء إيتمبا الطويل، من الغرفة 2017، وكان يضع نظارة شمسية عاكسة رغم أن الجو بالخارج كان جو شهر نوفمبر الغائم وفي الغرفة الأمامية كان ضوء المصابيح النيون يملأ المكان: مدرسة حقيقية، هذا أفضل كثيرًا، وظهر تريستان وفي قدميه الحذاء الجيد، الذي اشتراه له رجل ألماني ودود، حسب ما أخبر ريتشارد من قبل: «كيف حالك؟»، كان تريستان - أيضًا - يحمل نظارة شمسية، ولكنه وضعها بالعكس فكان زجاجها جهة الأسفل، وظهر أوزاروبو، ورآه ريتشارد لأول مرة وقد حلق ذقنه للتو، وكان يلف حول عنقه سلاسل فيها حبات من اللؤلؤ وذات أطوال مختلفة، ويرتدي بنطالًا له جيوب عملاقة، ومجددًا سترته الخفيفة جدًّا، ولكنه كان يرتديها هذه المرة

إلى منتصف جذعه كما تضع المغنية شالًا من الفرو، حتى أن الياقة كانت بمحاذاة مرفقيه، قال: „هذا جنون، أليس كذلك؟"، وابتسم عندما اكتشف وجود ريتشارد وسط الحاضرين، وظهر زعير الذي كان يومًا مع رشيد على ظهر قارب واحد، كان مرتديًا قميصًا أبيض وبنطال بدلة وسترة، وظهر يايا، كان ريتشارد قد تعرف عليه في درس اللغة الألمانية الأخير، وكان على التي شيرت الذي يرتديه صورة تمثال الحرية، وموسى صديق يايا، كان يلف شالًا حول وسطه لونه أزرق فاتح، تمامًا مثل الوشم على وجنتيه، وظهر عبد السلام، وكان رغم حول عينيه رافعًا رأسه في ذلك اليوم، كما ظهر يوسف، غاسل الصحون القادم من مالي، وعلي الممرض المستقبلي القادم من تشاد، وكلاهما كانا تلميذي ريتشارد المتقدمين، وظهر الرجال الثلاثة الصامتون الذين كانوا حتى الآن يلعبون البلياردو في سكون، ورآهم ريتشارد في ذلك اليوم لأول مرة وهم يتحدثون بعضهم إلى بعض ويضحكون، كانوا جميعًا يتكلمون ويضحكون ويحيي بعضهم بعضًا، وكانت تفوح في المكان رائحة „زبدة الكوكو" وعطور الاستحمام، كان يوجد كثيرون ممن يعرفهم ريتشارد شكلًا فقط، ولكنه رأى أخيرًا الرجل النحيف من الطابق الأول الفارغ بعد أن بحث عنه كثيرًا، كان يقف ساكنًا تمامًا عند طرف الغرفة وأرسل ابتسامة لريتشارد مرت فوق كل الرؤوس مضفرة الشعر وفوق رؤوس حراس الأمن وكذلك فوق رؤوس المشرفين الذين ظهروا فجأة.

ثم كان عليهم الانطلاق، كانت أول مرة يذهبوا فيها إلى مدرسة

ألمانية حقيقية، مباشرة إلى المستقبل، سأل أحد المشرفين إذا كان لدى كل واحد منهم تذكرة، وعندها لاحظ ريتشارد عدم وجود أحدهم: روفو، قمر فيسمار، فقال أحد المشرفين: „نعم، ولكن الوقت قد تأخر ويجب علينا الانطلاق"، سجل ريتشارد اسم المدرسة في دفتر ملاحظاته، وبدأ الموكب الاحتفالي في التحرك: رؤساء وأمراء ينظرون نظرات الفخر، وحول الأعناق سلاسل من الأصداف البحرية، وعلى الرؤوس ريش الطواويس يهتز في الهواء، وكانوا ملتحفين بالجلاليب المتلألئة، غادروا القصر البرّاق، كانت ضحكات السعادة تملأ الهواء، وانفتح الباب وكأن يد سحرية فتحته، وانضم للوفد ظباء مروضة ووحيد القرن، وتكونت خاتمة الموكب من ثلاثة أفيال بيضاء وعلى ظهورهم الضخمة كان يجلس فوق مقاعد مزينة بالأحجار الكريمة المشرفون الثلاثة، وحتى اختفى الموكب العظيم في الأفق كان من الممكن رؤية الخدم الذين فتحوا بوابة السعادة الكاملة وهم يدسون جباههم في التراب.

ودون أن يفكر طرق ريتشارد باب الغرفة 2018 في الطابق الثاني، عند الباب الذي لم يفتحه له أحد من قبل كانت توجد لافتة مكتوب عليها اسم هاينتس كروبكه، ماذا لو كان روفو قد مات؟ وماذا لو لم يفتقد أحد روفو، الذي كان دائمًا وحيدًا، ضغط ريتشارد بحذر على أكرة الباب إلى الأسفل، ولكن باب هاينتس كروبكه كان موصدًا، جرب ريتشارد حظه ونادى وهو في الردهة: روفو! ثم سار عبر الردهة ونادى: روفو! في تلك اللحظة انفتح

في آخر الردهة باب قبل المطبخ، حيث قام مؤخرًا بتعليق صورة متحف بوده مع المعلمة؛ وكان فعلًا روفو، قمر فيسمار، هو من أطل منه، فسأل ريتشارد عن سبب مجيئه، هل هودانتيه؟

فقال ريتشارد: لا، فاليوم تبدأ دروس اللغة الألمانية في مدرسة حقيقية، هيا بنا.

بدا روفو جادًا كالمعتاد، لكنه أومأ برأسه وقال: „لحظة!"، ثم أغلق الباب وظهر بعدها بخمس دقائق مرتديًا سترة وطاقية.

لم يعرف ريتشارد إذا كانا بالسيارة سيكونان فعلًا أسرع كثيرًا، وتمنى ذلك، لم يشترِ جهاز ملاحة للسيارة إلا بعد وفاة زوجته؛ لأنها -زوجته كريستل- كانت تضع الأطلس على ركبتيها، وتجلس دائمًا على الكرسي بجانب كرسي السائق، وتقول له متى عليه أن يتجه يمينًا ومتى يسارًا، كريستل، ما زال الاسم حيًا، ولكن الشخص الذي ينتمي له ذلك الاسم لم يعد كذلك، والآن أصبح صوت امرأة، ليست بزوجته، يقول له: „انحنِ إلى اليمين، انحنِ إلى اليسار"، أسدى له ذلك الصوت أولى خدماته الجيدة وهو في طريقه إلى روجين، أما المرة الثانية فكانت وهو مسافر إلى فايمار.

سأل ريتشارد روفو الجالس صامتًا بجواره: هل تعلمت قيادة السيارة؟

- لا.

احتاج ريتشارد فترات الانتظار عند أول ثلاث إشارات توقف عندها حتى يدخل العنوان، وفجأة قالت المرأة الموجودة في الجهاز الصغير: عليك الاستدارة عندما تتمكن من ذلك.

فزع روفو وسأل: ما هذا؟

- إنها تخبرني كيف علي أن أتوجه.

عقد روفو ما بين حاجبيه وقال: حسنًا.

- „بعد 80 مترا عليك التوجه للأمام".

أشار روفو مرة أخرى إلى جهاز الملاحة وسأل: ولم تحتاج هذا الشيء؟

فقال ريتشارد: لا أعرف الطريق جيدًا في الغرب. ـ وتذكر حديثًا أجراه مع أوزاروبو.

- استمر في السير للأمام.

- هل تعرف أنه كان يوجد سور لمدة ثلاثين سنة تقريبًا يفصل شرق برلين عن غربها؟

فقال: لا.

كان ريتشارد يعرف مصاعب ذلك الحوار لذلك اكتفى بقول:

كانت توجد حدود، ولم يكن مسموحًا بالذهاب من شرق برلين إلى غربها، وكان البعض أحيانًا يموت رميًا بالرصاص عند محاولته عبور الحدود.

- أفهم، لم يكونوا يريدونهم في الغرب.
- لا، بل لم يكونوا يريدون تركهم يخرجون من الشرق.
- حسنًا.

ثم قال الصوت الأنثوي المنبعث من جهاز الملاحة: „بعد 200 مترًا الزم اليمين"، قرأ ريتشارد في كتيب تعليمات الاستخدام اسمًا لصاحبة الصوت ولكنه لم يكن يذكره، ربما أناماري أو رجينا.

- ولكن هل كانوا يحصلون على جواز سفر إذا تمكنوا من الفرار إلى الغرب؟
- نعم، دون أدنى مشكلة، هكذا وكأنهم كانوا دائمًا مواطنين غربيين.
- لماذا؟
- الزم اليمين.

فقال ريتشارد: لأنهم كانوا ألمانًا، إخوة وأخوات.

ثم تذكر تزاحم مواطني ألمانيا الغربية والشرقية الذي كان عليه

أن يمر من خلاله بعد فتح الحدود.

- كانوا جميعًا إخوة وأخوات؟

- لا، بالطبع لا، كان بعضهم كذلك ولكن ليس جميعهم.

قال روفو: „حسنًا"، ولكن ريتشارد لاحظ أن روفو لم يفهم فعلًا ما كان يعنيه بالغرب والشرق والإخوة والأخوات وذلك السور الذي كان يومًا موجودًا.

- هل كان السور مرتفعًا مثل سور مليلة؟

- نعم تقريبًا.

فقال روفو: لقد أعاد الإسبان صديق لي إلى المغرب مباشرة، رغم أنه نجح في عبور السور، رغم أن أخاه كان يعيش في إسبانيا.

- هل كان أخوه إسبانيا؟.

- لا.

- لذلك، أرأيت إذن.

- رأيت ماذا؟.

نعم، ماذا على روفو أن يرى؟ حتى أناماري أو رجينه لم يكن لديها إجابة حاضرة على سؤال روفو، قالت فقط: „المُنعطف أمامك".

فكر ريتشارد في أن يشرح لروفو أن وراء الأشجار يقف النصب التذكاري السوفييتي، ولكنه عدل عن ذلك، هل يشرح له بالإيطالية ما يصعب فهمه حتى بالألمانية، ألا وهو أن هناك تمثال لجندي سوفييتي يحمل طفلًا ألمانيًا على ذراعه كإشارة للبداية الجديدة بعد تلك المعركة الأخيرة في الحرب العالمية التي مات فيها 80000 جندي سوفييتي لتحرير برلين التي لم تكن تريد أن تتحرر تمامًا؟ وأن الجنود السوفييت كانوا أبطالًا، من ناحية، لم يكن ريتشارد يعرف معنى كلمة اغتصاب بالإيطالية.

ثم عبرا بعد 500 متر أخرى الخط غير المرئي على الأسفلت، حيث كانت الحدود قديمًا، وبعدها مرّا بجوار برج حراسة، الذي يقف كأثر شاهد على عصر السور وسط المنتزه الذي كان يعسكر فيه الفرسان الإسبان قديمًا ويزرعون الألغام في الرمال.

ولم ينطق ريتشارد بكلمة عن هذا الأمر أيضًا.

وفكر في أن روفو يبدو لحد ما مريضًا أو ضعيف السمع، وفكر في أن زائره -أي ريتشارد نفسه- لا يبذل ما يكفي من الجهد في قول الجُمل التي قد يكون من شأنها جعل الحديث يدور بينهما، كان يوجد الكثير جدًّا مما يجب شرحه، والكثير جدًّا كان مفقودًا.

وبعد قليل جاء مرة أخرى صوت أناماري أو رجينا: „انعطف إلى اليسار".

في الخارج كانت توجد كنيسة وموقف تاكسيات ومركز إطفاء تم تجديده مؤخرًا وبيوت من القرن الماضي.

قال روفو: هذا جميل.

- كيف لم تأتِ إلى هنا من قبل؟ ميدان أورانين لا يبعد كثيرًا عن هنا.

- مترو الأنفاق يسير تحت الأرض ولا يرى المرء أين هو.

- حسنًا، أفهمك.

فقال روفو بالإيطالية: „تحت الأرض، تحت الأرض"، وصلا بالكاد في الموعد إلى المدرسة، حيث كان المشرفون يقفون مع مدير المدرسة في الردهة ويتحدثون عن المواعيد، عندما رأوا روفو وريتشارد أشار أحدهم بسبابته إلى أحد الأبواب، وبالفعل كان الرجال الأفارقة يجلسون في الداخل أمام الطاولات، كان عليهم ملء استمارة فيها أسئلة كي تعرف المعلمة التي ستقوم بتوزيعهم من منهم يستطيع أن يقرأ ويكتب بالحروف اللاتينية، شعر ريتشارد بأن الاعتراف بعدم القدرة على الكتابة، في هذا العالم الذي يتطلب وجودها، لا يقل في حساسيته عن خلع الملابس عند الطبيب، أراد أن يمشي ولكن تريستان سأله إذا كان عليه أن يكتب شيئًا في أحد المواضع بالاستمارة؟ ولم يكن لدى أوزاروبو قلم، والمعلمة، التي كانت كبيرة في السن لحد ما، لم تكن تفهم الإنجليزية الإفريقية إلا بصعوبة، سألت ريتشارد:

„هل يمكنك أن تساعدني بعد ذلك في جمع الأوراق منهم، فقط بسبب الأسماء؟"، „نعم، بكل تأكيد"، وهكذا جلس ريتشارد على كرسي في جانب الفصل، في حين كان الرجال ساكنين تمامًا وكل منهم يحاول ملء الاستمارة قدر استطاعته، وكانت المعلمة كبيرة السن تجلس إلى طاولتها وترتب أوراقها، وأخيرًا انتهى الجميع، قال رشيد: „أستطيع مساعدتكم"، فقد كان يعرف كل واحد منهم، وبدأ في التنقل مع ريتشارد من طاولة إلى أخرى وهو يحاول يساعد الرجال في الكتابة ويشرح لهم أي الأسماء هو الاسم الأول وأيها لقب العائلة: هذا عوض عيسى من غانا، هذا سالا الحقان من النيجر، هذا إيتمبا عوض من نيجيريا، هذا يوسف إدريسو من مالي، هذا موسى آدم من بوركينا فاسو، هذا محمد إبراهيم، إلخ، إلخ، وبما أن الألقاب كانت أسماء الآباء فقد كان بعض اللاجئين اسمه الأول مثلًا إدريسو، في حين أن نفس الاسم هو لقب لاجئ آخر، وكي يكتمل الارتباك فقد كان بعض الرجال يذكر اسم العائلة أولًا، كما يفعل الفلاحون في جنوب ألمانيا أو كما هو معتاد عند النمساويين، ما زال ريتشارد يذكر موستل توني، صاحب متجر نبيذ بالقرب من فيينا، كان يذهب إليه مع زوجته -كريستل- وظلا يطلبان منه نبيذ „ريسلينج" لسنوات طويلة، ولكن القائمة اكتملت أخيرًا، وعرف ريتشارد، رغم أن ذلك لم يكن يعنيه في شيء، أن 5 من مجموع الرجال الـ40 تقريبًا لا يعرف الكتابة ولا القراءة بالحروف اللاتينية، وكان من بينهم هيرميس، قصير النظر ذو الحذاء الذهبي، وكذلك خليل، أفضل

أصدقاء محمد، الذي كان يرتدي سلسلة لامعة ولكنها بالتأكيد لم تكن من الذهب فعلًا، وكذلك عبد السلام، المغني.

في طريق العودة اختار رشيد -بطبيعة الحال- الركوب في السيارة مع ريتشارد، وهل يليق بمفرق ضربات البرق أن يعود إلى البيت بالمترو؟ وانضم لهما عبد السلام أيضًا، أخذ ريتشارد بعض الزجاجات الفارغة من المقعد الخلفي ووضعها في صندوق السيارة، ولكن لأن المكان بالخلف كان يتسع لثلاثة فقد نادى رشيد بسرعة على إيتمبا طويل القامة، ونصحه بأن يخفض رأسه عند الركوب، وقال له: „السيارة أفضل كثيرًا من ركوب المترو!"، جلس النيجيريون الثلاثة في الخلف وهم يتدافعون ويضحكون، في حين جلس روفو ساكنًا وجادًّا في مكانه في المقدمة بجانب ريتشارد، وفي رحلة العودة تلك علم ريتشارد أن رشيد يستطيع قيادة ليس فقط السيارات ولكن الحفارات أيضًا، إلا أن رخصة القيادة خاصته لا تسري هنا؛ لأنه لا يملك لا إقامة ولا تعريف هوية، بدأ عبد السلام في الغناء وحكى ريتشارد أنه توجد أغنية ألمانية تحكي عن مثل هذه الانتقالات بالسيارة، وكانت بدايتها: „ملأت سيارتي عن آخرها، ملأتها بالأفارقة!"، كان يعرف طبعًا أن الأغنية الأصلية لا تتحدث عن الأفارقة ولكن تقول: „ملأتها بالفتيات الصغيرات"، ولكن كلمة الأفارقة كانت -أيضًا- مناسبة جدًّا، وعند توقفه في إحدى الإشارات لاحظ ريتشارد -وكان لا يزال يغني بقوة، والرجال بالخلف يصفقون ويضحكون وروفو يهز رأسه مع اللحن- مصادفةً توقف سيارة بجواره بها أسرة

يافعة: أب وأم وطفلان، وقد أداروا جميعًا رؤوسهم إلى سيارة ريتشارد وهم صامتون ومندهشون لرؤيتهم هذا العدد الكبير من الأفارقة المبتهجين وذلك الرجل الأبيض الذي على ما يبدو قد مسَّه الجنون، عندما تحولت الإشارة إلى اللون الأخضر كان ريتشارد يغني المقطع القائل: „هيا أيتها الخيول البيضاء!"، انطلق ريتشارد وسمع خلف سيارة الأسرة المندهشة أصوات حفل موسيقي من آلات التنبيه.

32

في اليوم التالي انشغل ريتشارد بترتيب بعض الأشياء هنا وهناك، ثم أخرج القمامة، كانت الساعة قد وصلت إلى قُبيل الحادية عشرة والنصف، رتب فراشه من جديد، بحث في الأرفف عن شريط للقياس، لم يكن مناسبًا أن يذهب إلى الرجال فترة الظهيرة، لذلك قرر التنظيف باستخدام المكنسة الكهربائية، وبما أنه ينظف فقد قرر -أيضًا- تنظيف المطبخ والحمام، وهكذا أصبح كل شيء نظيفًا ومرتبًا استعدادًا لاستقبال ضيفه عازف البيانو غدًا، وقبل أن يلاحظ مرور الوقت كان المساء قد حلَّ، شاهد مباراة كرة قدم، وبرنامجًا حواريًا، لم يترك فيه ضيف فرصة لآخر كي يتكلم، مطاردة، سيارة نقل مشتعلة، اثنين يتبادلان القبلات، آخبار آخر اليوم، النشرة الجوية، قبل خلوده للنوم مباشرة بحث في الإنترنت عن كلمتي: أثيوبي ومعلمة لغة، ولكنه كان يعرف وهو يكتب حروف الكلمتين أن ما يفعله أمر طفولي جدًّا.

في صباح اليوم التالي دقَّ جرس هاتف ريتشارد في الحادية عشرة وعشر دقائق، وكان المتصل أوزاروبو الذي كان يقف في تقاطع ما بالقرب من بيت ريتشارد ولكنه نسي كيف يصل من هناك إلى بيت ريتشارد، قال له ريتشارد: «اقرأ لي لافتة الشارع

الذي أنت فيه الآن»، ثم قال له: «سآتي لأحضرك»، ماذا كان الآخرون سيفعلون في مثل هذا الموقف: هيرميس وخليل وعبد السلام الذين لا يستطيعون قراءة لافتة شارع ولا اسم محطة مترو أنفاق؟

كان أوزاروبو يقف عند التقاطع ورأى ريتشارد من بعيد أنه لا يدرك تمامًا من أي اتجاه سيحضر ريتشارد لاصطحابه، فكر ريتشارد في أنه يقف هناك مثل الأعمى، قال أوزاروبو بعد أن سلم على ريتشارد: «أنا لست ذكيًا»، وضرب بمفاصل أصابع يده على رأسه، ذكرت تلك الحركة ريتشارد بأوزاروبو عندما كان يجلس في المقهى وكان يفرك الجلد الأسود فوق ظهر يده، قال ريتشارد: «إن الأمر لا يتعلق بالذكاء، الحياة مجنونة Life is crazy"، أصبح ريتشارد الآن قادرًا لحد ما على تصور ما يدور برأس أوزاروبو غير ذكرياته عن بعض شوارع الضواحي.

السلم الموسيقي، الدو الكبير، تحريك الأصابع لأعلى ولأسفل، ثم محاولة عزف نغمة بسيطة من نغمات القرار، أخذ ريتشارد يشرح ما هي النوتة الموسيقية، وأن لكل مفتاح ما يقابله على الورق، ومن حين لآخر كان يخرج ولا يفعل شيئًا محددًا، ولكنه كان يستغل فرصة وجود شخص حي يحوِّل من خلال أصوات يصدرها، في هذه الحالة كانت نغمات موسيقية، الزمن الذي يمر في داخل المنزل إلى ما يُشبه الحياة اليومية، يوجد اليوم شوربة قرع وخبز، ومرة أخرى أكل أوزاروبو كمية صغيرة وشرب ماء

من الصنبور، ثم حمل ريتشارد كرسيًا آخر إلى عرفة المعيشة ووضعه بجوار طاولة المكتب ودعى أوزاروبو للجلوس، وجلس هو أيضًا، ثم عرض فيلمًا ليُري الفتى طريقة العزف الرائعة لعازفة بيانو؛ فهز أوزاروبو رأسه متعجبًا، هل كان تعجبه من شوبين؟ أم من الفتاة الجميلة التي كانت تبتسم لعلمها بما ستفعله، حتى قبل أن تنتهي من عزف المقطوعة المتوحشة؟ سأله ريتشارد إذا كان يرغب في سماع موسيقي آخر؟، «نعم، بسررو»، ذلك الموسيقي الذي لا يخلع حتى ساعة يده وهو يعزف ومع ذلك يعرف الكثير عن شوبرت، أليس هذا رائعًا؟ نعم، وفي الختام بالضرورة -أيضًا- ذلك العازف الثالث، لا توجد مشكلة، الذي يجلس على مقعد البيانو المنخفض وينظر إلى أصابعه وهو يعزف، جلس الرجل العجوز والشاب لفترة بعضهما بجوار بعض إلى طاولة المكتب وهما ينظران ويسمعان كيف يقوم الأشخاص الثلاثة بحكي شيء باستخدام المفاتيح السوداء والبيضاء، شيء لا يمت بصِلة بلون تلك المفاتيح.

لم يجلس ريتشارد منذ زمن بعيد مع أحد ليستمع إلى موسيقاه، ومنذ فترة طويلة لم يهتم أحد بتلك التسجيلات التي يحبها ريتشارد، وهكذا مرت ساعتان أو ثلاث، ثم قال أوزاروبو: «أعتقد أن عليَّ أن أمشي الآن»، فأعطاه ريتشارد سترته الخفيفة التي كانت معلقة على شماعة في غرفة تعليق الأمتعة.

- هل ستعرف الطريق الآن إلى البيت وحدك؟

- لا توجد مشكلة.

وقف ريتشارد ينظر إليه ليتأكد من أنه قد سلك الطريق الصحيحة، ثم عاد إلى بيته، كيف سيكون أثر ذلك على شاب قادم من النيجر عندما يستمع لأول مرة في حياته لأبواق وطبول باخ؟ ثم جلس مرة أخرى إلى حاسوبه وطلب تذكرتين لحضور ترانيم عيد الميلاد في الكاتدرائية.

33

عندما ظهر ريتشارد في اليوم التالي في الدار مجددًا أخبره حارس الأمن أن وباء الجديري المائي قد انتهى أخيرًا، وكان على الرجال أن يحزموا أمتعتهم في ذلك اليوم؛ لأن الانتقال إلى شبانداو سيكون بالفعل في اليوم التالي.

مرَّ في تلك اللحظة رجلان إفريقيان فألقَيا التحية على ريتشارد وقالا: „كيف حالك؟"، ثم أحضرا من غرفة المخزن -الذي جلس فيه مع رشيد قبل مدة وجيزة بين أكوام من الكراسي- كراتين ليضعوا فيها أشياءهم استعدادًا للانتقال.

ذهب، يذهب، ذهابًا.

قام ريتشارد في ذلك اليوم بجولة حول البحيرة استغرقت ساعتين ونصف، بعد زيارته القصيرة في المبنى المشيد من الطوب الأحمر لم يعد مباشرة إلى البيت وإنما انعطف في شارعه إلى جهة اليمين، ربما تكون مثل هذه النزهة ذات المسار الدائري قادرة على الحفاظ على تماسك شيء ما؟ البحيرة؟ الرجل الغريق؟ ففي آخر الأمر سار ريتشارد في جولته -أيضًا- حول الرجل الغريق القابع في البحيرة أو الذي تحلل في مياهها، كما

دار - أيضًا - حول أسراب السمك التي تسكن البحيرة وحول الطحالب التي يعرف بوجودها ولكنه لم يرَها أبدا لأنها ممتلئة بالماء الذي يجعلها مختفية في القاع، ودار حول البجع والدجاج البري التي تظهر أعشاشها بالتدريج من بين الحشائش الذابلة، كما دار في جولته - أيضًا - حول البيوت الواقعة مباشرة على الماء وحول قطع الأرض التي تمتد من ضفافها الأرصفة إلى داخل الماء وكأنها تمد لسانها، سار وإلى يمينه حقول وغابات وإلى يساره البيوت، سار وسار، وربما رأته إحدى الجارات وهو يسير، ربما رأته حين ترفع رأسها إلى نافذة المطبخ، أو عندما تخرج لجمع أوراق الشجر المتساقطة، أو كانت تقف على سلم لتثبت جزءًا من السقف، كما دار ريتشارد في سيره حول أولئك -أيضًا- الذين لا يستطيعون رؤيته، وحول الكلاب النائمة في البيوت، وحول الأطفال الجالسين هناك أمام التلفاز، وربما دار -أيضًا- حول سكِّيرٍ ضائع يجلس في قبو بيته يرتب الزجاجات.

شبانداو.

في المساء قالت سيلفيا وهي تتحدث معه على الهاتف: ربما سيكون وضعهم هناك أفضل، ولكن هل الانتقال دليل على أنه قد تم قبولهم، فقد قلت إن المكان في شبانداو هو بيت لاجئين حقيقي.

فقال ريتشارد: لا أعرف.

- بالتأكيد تريد الحكومة أن يمر كل شيء في عيد الميلاد على خير.

فقال ريتشارد: ربما.

- سأعطيك ديتليف.

- نعم، نعم.

سأله ديتليف: ربما نجلس مجددًا للعب الورق، لعبة سكات، ما رأيك؟.

- فكرة جيدة.

- يوم الجمعة؟

فقال ريتشارد: يوم الجمعة سيكون جيدًا.

ثم قال ديتليف: أتعرف، سيكون الوصول إلى شبانداو أسرع الآن بعد أن انتهى العمل في الجزء الجديد من طريق المدينة الدائري.

- أعرف.

- سترى، سيكون الطريق أقصر بمقدار النصف إذا كنت تعرف الطريق.

- أتعرف، لقد كان أحدهم عندي بالأمس، ولكنه لم يكن يعرف أي شيء عن الانتقال.

- ربما سيسعده ذلك.

فقال ريتشارد: ربما!

34

أصبح لرشيد غرفة مفردة لذلك جلس في غرفة إيتمبا وزعير ورجل ثالث كان يرقد على السرير الخلفي وينام، 3 أسرة، 3 كراسي، 1 طاولة، 1 خزانة ملابس، 1 حوض غسيل، 1 تلفاز، 1 برادة.

- إن الوضع هنا طبيعي، نحن سعداء.

فسأل ريتشارد: ماذا تعني بطبيعي؟

قال رشيد: يوجد أطفال هنا، نحن سعداء، منذ فترة طويلة لم يكن حولنا أطفال وأُسر.

سأل زعير ريتشارد: كم عدد أطفالك؟ كم عدد أحفادك؟.

- لا يوجد.

فسأله مجددًا: أحقًا، ليس لديك؟

فهز ريتشارد كتفيه.

فقال زعير: يؤسفني ذلك لك. ـ وقالها بطريقة وكأنه يواسيه

في وفاة أحد، على ما يبدو فإن زعير كان ينطلق من ضرورة وجود مصيبة كبيرة، هي وحدها التي يمكن أن تحرم رجل في سن ريتشارد من أن يكون له ذرية.

- قررت وزوجتي ذلك.

فسأل زعير: حقًا؟! ـ ثم سكت، ولكن ريتشارد لاحظ عليه أنه لم يفهم كيف يمكن أن يقرر شخص طواعية أن يموت وحيدًا.

إيتمبا الضخم، الذي خرج من الغرفة لبرهة، عاد ووضع وعاء طعام ساخن ينبعث منه البخار أمام ريتشارد: لحم وأرز وسبانخ، وأحضر من الخزانة علبة عصير فواكه، ما زال ريتشارد يذكر جيدًا فاتورة الحساب خاصته بقيمة 5 يورو في اليوم، شعر بتأثر كبير، ولم يكن يتحمل نفسه عندما يشعر بالتأثر، يحب الأفارقة جهاز بيع تذاكر المواصلات الإلكتروني في ألمانيا، في حين يحب الألمان كرم الأفارقة أثناء السفاري.

سأل ريتشارد: أليس هذا كثيرًا جدًّا بالنسبة لي؟ ـ ولكنه كان يسأل دون أمل في أن يتوقف كرم الضيافة، الذي يضعه في ذلك الموقف السخيف، فجأة.

لا، لا، عليك فقط أن تأكل، الكثير أفضل، هذا طعام أفريقي حقيقي: فوفو.

حضر ريتشارد إلى هنا وكأنه في زيارة لسجن، وجلس في

بيت طالبي اللجوء في شبانداو وتناول الغداء، كان الطعام شهيًا، وبالخارج كانت تترامى أصوات الأطفال وهم يجرون ويلعبون، أطفال رومانيون وسوريون وصرب وأفغان، وكذلك بعض الأطفال الأفارقة، ثم اصطحب رشيد ريتشارد إلى الخارج ليودعه وكأنه يودع ضيفًا استقبله في بيته.

ثم ردد مرة أخرى: إن الوضع طبيعي هنا.

في خلال الأسبوعين التاليين دبر ريتشارد لرجاله أماكن عمل كمتطوعين، حيث كانوا يجمعون أوراق الأشجار المتساقطة مجانًا من حدائق برلين، وينظفون في رياض أطفال ومدارس، ويغسلون الأطباق في نادي بإحدى المناطق السكنية، كان رشيد يقول: نشعر بالسعادة عندما يكون لدينا مهمة نقوم بها.

ورغم ذلك كان ريتشارد يفكر في كل مرة يأتي فيها إلى ذلك البيت ذي الطابقين في أنه لا يمكن لشخص يائس من الحياة أن ينتحر بالقفز من أعلى مبنى مكون من طابقين، وحدة مرضى السرطان الميؤوس من شفائهم في مستشفى شاريتيه، حيث ماتت أمه، كان يمكن من الطابق الأعلى بها الحصول على أفضل رؤية على المدينة، ولكن في الوقت ذاته كانت به نوافذ غير قابلة للفتح.

بدأت في مصلحة الأجانب أولى اللقاءات لبحث الحالات الفردية.

حضرة الأستاذ XXX، أنتم مسجلون تحت رقم XXX بوصفكم „مشاركًا في اتفاق ميدان أورانين”.

تذكر ريتشارد الثلاثة أرباع الصفحة.

نرجو حضور سيادتكم يوم XXX في تمام الساعة XXX إلى مقر المصلحة في غرفة الانتظار C06، ونرجو إظهار هذا الخطاب عند الحضور لبحث موضوع الإقامة الخاص بكم.

سأل خليل ريتشارد يوم „أحد الموتى المؤمنين” عن معنى ذلك اليوم؟

فسأله له ريتشارد: وكيف سمعت بذلك اليوم؟

كان ريتشارد في صباح ذلك اليوم في مقابر برلين بانكوف حيث والداه مدفونان.

- لقد كان النادي الذي نذهب إليه دائمًا مغلقا ليلة أمس.
- أي نادي؟
- نرقص هناك، يسمحون لنا بالدخول دون دفع تذكرة، ولكن بالأمس كانت توجد لافتة على الباب مكتوب عليها „أحد الموتى المؤمنين.

فقال ريتشارد: يوم أحد الموتى المؤمنين يُمنع فيه الرقص والسينما أيضًا.

- لماذا؟

- لأننا نتذكر في ذلك اليوم الموتى.

- هكذا إذن.

وفي تلك اللحظة تحول وجه الشاب الذي كان يريد أن يرقص بالأمس إلى وجه شاب هرب عبر البحر ولا يدري إذا كان أبواه ما زالا على قيد الحياة أم لا، كان رشيد قد حكى لريتشارد مؤخرًا أن خليل قد فُصل عن والديه يوم أجبر على ركوب القارب، ولا يعرف خليل ما إذا كانا هناك حتى الآن، أم أنهما قُتلا رميًا بالرصاص، أم أنهما أُجبرا على ركوب قارب، وإن كان هذا ما حدث ففي أي البلاد يمكن أن يكونا الآن.

قرأ ريتشارد في الفترة الأخيرة عدة مرات عن قوارب لاجئين غرقت في البحر المتوسط، حتى أصبح البحر يدفع تقريبًا كل يوم بجثث أفارقة إلى سواحل إيطاليا، أين يُدفنون؟ من يعرف أسماءهم؟ من يخبر أسرهم بأنهم لم ينجحوا في الوصول إلى أوربا وأنهم لن يعودوا أبدا؟ كتب شخص يسمي نفسه „لا يعنيني" على الإنترنت: الوحيدون الذين أتعاطف معهم هم المسعفون! لماذا يضطرون للخروج لإخراج كل هؤلاء الموتى من الماء؟ وكتب آخر باسم „إله المعركة": الكوكب مكتظ على أي حال بمن فيه، قديمًا كانت الطبيعة بتنظيم ذلك الأمر (وباء الأنفلونزا، الطاعون، وغير ذلك)، وتحديدًا في ذلك الجزء من ألمانيا حيث كانت البروليتارية قبل خمسة وعشرين عامًا شعارًا

شديد الانتشار، أصبح اليوم أحد الأحزاب المحبوبة يرفع شعارًا انتخابيًا يقول: الأفضل تقديم النقود للجدة عن تقديمها لأقلية السانتي وروما، كان ريتشارد كلما قرأ مثل هذه الآراء يتذكر دائمًا قصيدة لبريشت تحكي عن سكان برلين بعد الحرب وهم ينتزعون اللحم من جسد حصان بعد أن وقع من الإعياء وكان لا زال حيًا ولم ينتهِ بعد من الموت، وبينما كانوا ينهشون لحمه وهو حي كان الحصان يهتم لأمر قاتليه: يا لها من برودة حلّت بالناس!، من الذي يطرق فوقها، فيجعلها تتوغل أكثر وأكثر؟ هيا ساعدوهم!، ولكن افعلوا ذلك بسرعة! ولكن من أي حرب خرج الناس الآن؟

حكى أوزاروبو مؤخرًا قائلا: „لقد رأيتهم وهم يغرقون"، كان جالسًا أمام البيانو ويديه على ركبتيه، وهزَّ رأسه وكأنه لا يريد ولا يستطيع تصديق ذلك، هل كان يعني أصدقاءه الذين كانوا معه في نفس القارب؟ هل تعذبه تلك الذكرى؟ لا، إنما رأى تقريرًا في التلفاز عن غرق سفينة قبل فترة وجيزة، فقط، رأى غرقى، ولكنه رأى في أولئك الغرقى نفسه وأصدقاءه الذين كانوا يجلسون معه.

قبل حوالي مائة عام وصف الشاب الثائر أويجن لفين نفسه وأصدقاءه الاشتراكيين في خطبته الأخيرة أمام القضاء قبل إطلاق الرصاص عليه بأنهم: „أموات في أجازة"، الفرق بين اللاجئين الذين يغرقون اليوم في مكان ما بين إفريقيا وأوربا وبين أولئك الذين لا يغرقون هو وليد الصدفة وحدها، وانطلاقًا من ذلك فكر ريتشارد في أن كل واحد من الأفارقة هنا هو حي وميت في نفس الوقت.

35

في الصباح قبل توجهه إلى شبانداو ذهب إلى قبر والديه وغطاه بأوراق الصنوبر الخضراء، تمامًا كما كان يفعل كل عام يوم الأحد السابق على عيد القدوم الأول، كانت زيارة القبور جزءًا من الحياة اليومية له ولأمه منذ صغره، إلا أن أباه لم يكن يذهب معهم إليها، عندما كان ريتشارد طفلًا كان يساعد أمه في ترتيب وتجميل الطريق الرملية أمام قبر جديه، وعندما كبر وقوي ساعده أصبح يحضر لأمه وعاء سقاية الزرع مملوءًا عن آخره من ماء البئر الموجودة هناك، أو كان يحمل أجوالًا من الطين لزراعة الورود يأتي بها من متجر ورود المقابر إلى موضع قبر جديه رقم A XIV/0058، كانت أمه تزرع البنفسج في الربيع وفي الصيف البيجونيا وفي الخريف كانت تقص البراعم الجافة، وفي يوم أحد موتى المؤمنين كانت تضع إكليل عيد الميلاد، ثم مات زوجها، أبو ريتشارد، ودفن هناك حتى تبعته بعد بضع سنين، وأصبح ريتشارد هو من يقوم وحده برعاية الزرع المحيط بقبورهم ويستخدم نفس المقص الذي أحضرته أمه لهذا الغرض ويرتب نفس الرمال أمام القبور باستخدام نفس الشوكة المعدنية التي كان يستخدمها وهو طفل، ويقطع الورود الجافة وجذورها

قبل دخول الشتاء، ويضع يوم أحد الموتى المؤمنين إكليل الزهور لوالديه، كان يعرف أن أمه تحب تسمية ذلك اليوم بيوم الخلود، وأحيانًا - أيضًا - يوم الحساب، لذلك كان يخاف وهو طفل دائمًا من ذلك اليوم، لأنه كان يظن أن الدور سيحين عليه في شهر نوفمبر من أي عام من الأعوام ليدخل الامتحان الأبدي.

كان يجلس مع أمه في الكنيسة ويسمع الأجراس وهي تقرع والقس يقرأ أسماء من ماتوا من سكان المنطقة، كان يمكن في أي لحظة أن يكون اسمه بين تلك الأسماء؛ كان يجلس صامتًا مع الآخرين حتى يتبدد صوت قرع الأجراس، فلنستمع إلى أصوات الأجراس وهي تتبدد، وليذكرنا جميعًا ذلك بأن لحمنا سيصير يومًا ترابًا.

أوراق شجر الصنوبر في آخر يوم أحد قبل عيد القدوم، وشمعة يشعلها فوق القبر ثم يطفئها الريح بعد ذلك، ثم سكون الشتاء، وبعد أسابيع لا يخضر سوى الزرع المحيط بالقبور وهو تحت الثلج، نفس الشيء يتكرر منذ زهاء الستين عامًا، إن امتلاك مكان دفن يتسع لثلاثة أجيال يُعد -إن شئت القول- رفاهية، ولكن ريتشارد لم يفكر في ذلك إلا في الأسابيع الأخيرة، أطول فترة في حياته ظل يتمنى في أبعد زاوية من روحه أن تقل مدة حزن الأفارقة على أمواتهم؛ لأن الموت يحصد أرواحهم جماعات جماعات منذ وقت بعيد، ولكن اليوم يقبع بدلًا من ذلك في تلك الزاوية الأبعد في روحه إحساس بالخجل من أنه ظن طوال حياته

أن ذلك أمرًا سهلًا.

لاقتراب وقت عيد الميلاد قامت المتاجر في المدينة كلها بإخراج أشجار عيد الميلاد ووضعها في نفس الأماكن التي كانت تقف فيها العام الماضي، وكانت جاهزة بالكرات والشرائط الملونة، في كل مكان كانت توجد الأكاليل وسلاسل المصابيح والأهرامات التي تدور بالكهرباء، عندما كان ريتشارد يحضر زجاجة بيرة من قبو بيته كان يقرأ كلمة „قبل عيد الميلاد" بخط يد زوجته على كرتونتين أو ثلاث في الرف السفلي.

أعار ريتشارد لروفو، قمر فيسمار، الجزء الأول من كتاب دانتيه.

حساء السمك الذي يعده إيتمبا كان -أيضًا- جيدًا جدًّا، أنا جيد حقًّا.

وهكذا جاء عيد القدوم الأول.

كان رشيد يصحب ريتشارد إلى المخرج بعد كل زيارة، وكأنه يزوره في بيته، ذات مرة قابلوا هناك امرأة قصيرة الشعر، فصافحها رشيد، وأخبر ريتشارد بأنها عضوة في البرلمان وأخبرها بأن ريتشارد أحد الداعمين، قالت عضوة البرلمان لريتشارد بالألمانية وبصوت خفيض إن موظفي مصلحة الأجانب لديهم تعليمات عُليا بأن يتخذوا القرارات بمنتهى الحزم في ما يتعلق بكل حالة مفردة، وأخبرته بأنها قلقة بشأن اللاجئين،

تساءل ريتشارد إذا كانت ستخبر رشيد بذلك، ولكن ربما يكون الأمر مجرد شائعة.

قال ريتشارد لأبولو: أتعرف، بغض النظر عن الوضع في ليبيا فأنت تنتمي في موطنك في النيجر إلى أقلية الطوارق المضطهدة عليك أن تقول هذا في المقابلة.

فرد عيله قائلا: „عندما تحين مقابلتي فسأحكي قصتي"، فقال له ريتشارد: „نعم، ولكن يمكنك - أيضًا - أن تحكي قصة الثورة"، „سأحكي قصتي كما حدثت"، فقال ريتشارد: „أفهم"، ثم قال أبولو: „إذا كان عليَّ أن أذهب فسأذهب، ليس لدي أسرة لأعولها، أنا حر: لقد عشت في إيطاليا ستة أشهر في الشارع."

فكر ريتشارد في أنه قد سمع كلمة الحرية في ألمانيا في سياقات مختلفة تمامًا.

جاء عيد القدوم الثاني.

سقطت أمطار خفيفة.

قال ريتشارد لإيتمبا الذي طهى الطعام وأجلس ريتشارد مرة أخرى أمام طبق مملوء لآخره: لم أكن أتوقع أبدا أن لحم الماعز شهي هكذا.

كان هذا الرجل أو ذاك يحيي ريتشارد الآن بالألمانية: „مساء

الخير؟ كيف حالك؟"، وريتشارد يجيبهم: „بخير".

طلب تريستان من ريتشارد أن يتصل له بمحاميه ويسأله عما وصل إليه موضوعه، فاتصل ريتشارد بالمحامي الذي قال: لقد جاء الرجل عبر إيطاليا، أليس كذلك.

فقال ريتشارد: نعم.

فقال المحامي: هذه للأسف مشكلة.

فأجابه ريتشارد: أعرف ذلك.

ـ وهو مولود في غانا.

فقال ريتشارد: نعم.

ـ وغانا تُعد بلدًا آمنًا، وهذا يعقد الأمر.

فقال ريتشارد: ولكنه نشأ في ليبيا.

فقال المحامي: ولكن هذا للأسف ليس له أي ثقل في هذه الحالة، الأخطاء الإجرائية التي وقعت فيها المصالح المعنية ربما ستمنحه بعض الوقت، ولكن الأمر سيصبح أصعب بعد ذلك.

ولأن خليل، الذي لا يعرف أين والداه، لم يكن يعرف القراءة والكتابة فقد رسم موقف هروبه في نوتة، رأى ريتشارد قاربًا

يبدو كهلال رفيع جدًّا وتحته الكثير من الماء.

ولاجئ آخر اسمه زانى، الرجل كبير السن ذو العين المصابة الذي رآه ريتشارد عند زيارته الأولى في ميدان أورانين وهو جالس على مقعد الحديقة الألماني، قدم زانى لريتشارد صورة من مقالات من جرائد، قرأ ريتشارد كلمة مذبحة، ثم قلب الورق، مذبحة، مذبحة، ثم قال زانى: كان ذلك في مدينتي لذلك هربت إلى ليبيا، لم يكن الحصول على تلك المقالات سهلًا هنا ولكني أحتاج إلى دليل في اللقاء المقرر في مصلحة الأجانب.

كان ريتشارد يعرف طوال فترة عيد القدوم أن معاهدة دبلن الثانية تنظم المسؤوليات، ولكنها لا تقول شيئًا محددًا.

36

رغم برودة الجو كان الرجال يجلسون معظم الوقت على المقاعد في الفناء يتابعون الأطفال وأحيانًا يلعبون معهم كرة القدم.

في اليوم الذي بلغهم فيه خبر أنه لن يتم احتجاز أي لاجئين جُدد في أماكن الترحيل في ألمانيا أصاب الرجال الجنون ولم يفهم ريتشارد سبب ذلك، كان إيتمبا، الطباخ، يلوح بيديه في الهواء، وزعير وتريستان يتناقشان، ولكن رشيد، مفرق ضربات البرق، ظل صامتًا بطريقة غريبة، جلس إلى الطاولة وكأنه تمثال، عندما سأله ريتشارد عن الأمر قال إن الاحتجاز للترحيل تم إلغاؤه ولكن هذا يوضح أن الترحيل من حيث المبدأ ما زال قائمًا، ثم قال: "إنهم فعلًا لا يريدوننا هنا"، وهز رأسه.

وبعدها قام ليوصل ريتشارد إلى الخارج.

عندما هبطت درجة الحرارة إلى ما دون الصفر قال تريستان: أنا سعيد لأني أجد مكانًا أنام فيه في داخل بيت، فالعام الماضي سقطت بعض خيامنا تحت وطأة الثلج.

في يوم آخر جلس الجميع حول جهاز لابتوب ليشاهدوا فيلمًا

لمزارع وهو يضع آذان حملانه المتدلية فوق أعينها لتهدأ قبل أن يذبحها، دون أي مقاومة تركته الحملان يقيد أقدامها ويرقدها وانتظرت بهدوء شديد نهايتها.

عندما تمر الفتاة الأفغانية التي تقطن الغرفة المقابلة يعطيها إيتمبا بعض الحلوى.

أحضر ريتشارد أوزاروبو مرتين أو ثلاثة ليعزف البيانو، وفي إحدى تلك المرات اصطحب معه تريستان لجمع أوراق الشجر المتساقطة، ساعتا عمل في مقابل عشرين يورو، عمل، عمل، كما يقول تريستان دائمًا.

حكت له صديقته أنّا، المصورة الفوتوغرافية، على الهاتف أن المرأة التي تقوم على رعاية أمها ستسافر في فترة عيد الميلاد إلى بولندا، إلى عائلتها، وأنها علقت ورقة في مدرسة الممرضات بحثًا عن بديل لها ولكن دون جدوى حتى الآن، قالت أنّا: "أنا لا أستطيع وحدي تمامًا رفع أمي من مكانها"، فأملى عليها ريتشارد رقم علي -أحد طلابه متقدمي المستوى- الذي يريد أن يعمل بعد ذلك ممرضًا إذا سمحت له أي دولة أوروبية بذلك.

أصبح مذاق الزمن مختلفًا منذ وصلت خطابات مصلحة الأجانب ومنذ أصبح كل رجل هنا إما ينتظر موعد المقابلة المحددة له أو قام بها بالفعل، في مرة حاول ريتشارد بدء إحدى أحاديثه فسأل: "كيف يتم دفن الموتى في الصحراء؟"، ولكن سؤاله جاء

وكأنه إشارة البدء لمسرحية صاحبها مجهول، إذ انطلقت صافرة الإنذار، وكان صوتها عذابًا، وربما انطلقت لتنذر الناس من عذاب؟ قبل سقوط قنبلة؟ هل تحترق المنازل بين جسر أوبرباوم وبين ألكس؟ جلست أم ريتشارد يومًا معه حين كان طفلًا رضيعًا في أحد المخابئ في برلين، هل يتذكر ريتشارد خوفه حين كان رضيعًا، أم يتذكر خوف أمه؟ قال مفرق ضربات البرق: "لا يوجد أي شيء، إنهم يفعلون ذلك من وقت لآخر"، وقال زعير الذي كان ما يزال يرقد في فراشه وأيقظه صوت الإنذار: "هذا مجرد تدريب"، سد ريتشارد أذنيه بيديه ولكن ذلك لم يساعده كثيرًا، كان صوت الصافرة قاتلًا، ربما يوجد حريق؟ جرى ريتشارد إلى الردهة الخارجية، فوجد امرأة بدينة تسرع في اتجاه المطبخ، هل توجد ريح حريق؟ هل يوجد حريق؟ ولكن لأن ريتشارد كان يسد أذنيه بيديه فلم يسمع ما أجابته به المرأة البدينة؛ هزت كتفيها ثم استمرت في المشي واختفت في داخل المطبخ، حيث يوجد عشرة مواقد متجاورة، لم توجد نار مشتعلة في المطبخ، والمرأة البدينة تركت المياه جارية وكانت منشغلة بأواني الطهي، والصافرة تصرخ وتصرخ، أسرع ريتشارد في هرولة خفيفة إلى المدخل وفي تلك اللحظة تحديدًا توقفت الصافرة فجأة، هل كان يوجد حريق فعلًا؟ فقال له الرجل الموجود عند المدخل: "لا، كان ذلك تدريبًا، أحدهم يترك دائمًا الموقد في المطبخ مشتعلًا، وهذا خطأ، يجب أن يتعلموا ذلك"، ثم أتى موظف آخر من موظفي البيت عبر الفناء وهو يجري ويصرخ في زميله: "لقد قص سلك

صافرة الإنذار!"، وبعد لحظة حضر يايا ومعه صديقه موسى صاحب الوشم الأزرق في وجهه، كان يلوح بذراعيه ويقول شيئًا ما، وبسرعة تجمعت حوله مجموعة، صرخ موظف الدار في المجموعة: "سيخرج هذا من هنا! سنحرمه من الدخول إلى هنا مرة أخرى! لقد دمر جهاز الإنذار متعمدًا من سيدفع إصلاحه؟".

كيف يتم دفن الموتى في الصحراء؟

كان ريتشارد سعيدًا لقيام يايا بقص سلك الإنذار القاتل، ولكن لا يمكن أن يقول ذلك، قاتل، هذا هو الوصف الصحيح، هل يتذكر طفل رضيع الحرب؟ قال تريستان: "كنا نجلس في الثكنات عندما سقطت القنابل الأوروبية على طرابلس، وكنا نخاف من أن تصيبنا إحداها"، وقف موظف الدار ويايا، الذي قص سلك جهاز الإنذار، في الفناء يتصارخان.

عندما عاد ريتشارد إلى الغرفة التي حاول أن يبدأ فيها حديث قبل قليل كان إيتمبا يسخن ماء ليعد الشاي، في حين كان زعير لا يزال راقدًا في الفراش، ما زال اليوم في بدايته، في ما قبل الظهيرة، وإن لم ينم المرء نصف اليوم فإنه سيصبح طويلًا جدًا.

37

في الأسبوع السابق على عيد القدوم الثالث كان ريتشارد قد عرف الطريق من الضاحية إلى بيت اللاجئين في شبانداو جيدًا.

قال إيتمبا: يُعد الموز المطهي في المقلاة من الأطعمة الشهية، يمكن الحصول عليه في أي متجر إفريقي، يوجد متجر بالقرب من هنا.

زيارة بعد زيارة يصاحب رشيد ريتشارد إلى الخارج.

في تلك الأثناء كانت أنّا قد قابلت علي، الطالب المتقدم في اللغة الألمانية عند ريتشارد، وكانت قد عرفته على أمها، حكت على الهاتف: "لقد خافت أمي من علي في البداية لأنه أسود، ولكن هذا سيمر"، قال ريتشارد: "إنه يتحدث الألمانية جيدًا بصورة مدهشة، أليس كذلك؟"، فقالت: "نعم، وينبغي ألا ننسى أنها تنتمي إلى جيل مختلف تمامًا"، أومأ ريتشارد برأسه، "إلا إنها لا يمكن أن تراه في الهاتف بطبيعة الحال"، ثم قالت: "لولاه لما عرفت كيف أتصرف في فترة عيد الميلاد، شكرًا!"، فقال ريتشارد بالإنجليزية مثل الرجال الأفارقة: "لا توجد مشكلة!".

عندما حضر ريتشارد في نهاية الأسبوع مرة أخرى إلى بيت اللاجئين، وقد وضع تذكرة حضور ترانيم عيد الميلاد ليوم الأحد في ظرف أحمر، لم يكن أوزاروبو موجودًا.

أين هو؟

في إيطاليا يُجدد أوراقه.

وتذكر ريتشارد فجأة قول رشيد قبل أيام عن موضوع الترحيل: "إنهم لا يريدوننا هنا حقًّا"، ولكن، ماذا لو لم يعد عازف البيانو أبدا؟ أو إذا حدث له شيء؟ عندما اتصل برقم أوزاروبو لم يجب أحد، في بيت ريتشارد كانت تنتظره هدية عيد الميلاد، أورج قابل للطي، يمكن وضعه في حقيبة الظهر، فكر ريتشارد في أنه يمكن عند الضرورة أن يتكسب أوزاروبو من العزف عليه في الشارع بضع يوروهات، ثم فكر ريتشارد في أنها فكرة سيئة، وكان واقفًا وفي يده الظرف الأحمر، وتذكر أغنية عيد الميلاد: Jauchzet, frohlocket، أم أن بيانو قابل للطي كان يمكن أن يكون خطة عمل ممكنة لمستقبل ابنه إن كان له ابن؟

مستقبل في مقابل 65.90 يورو؟ متى حدث ذلك التحول الذي جعل منه، وهو صاحب الآمال العريضة للبشر، شخص معطي للصدقات؟ بالتأكيد لم يحدث ذلك مباشرة مع سقوط السور، ولكن في وقت ما بعد ذلك، في يوم ما وهو في طريقه انهار وحاول أن يفعل الخير ولو في صورة أعمال خير بسيطة -كما يقولون- هل فقد فعلًا كل أمله؟

38

أفتقد أماكني.

أصبحت معتمدًا على نفسي فقط.

وحده ربي من يستطيع تقييم أعمالي.

عرف ريتشارد أن بعض الرجال الذين لديهم هاتف به خدمة إنترنت مجانية كانوا يرسلون بعضهم لبعض أخبارًا وصورًا وتسجيلات صوتية، كانوا يضعون صورًا شخصية لحسابهم ويكتبون في ما يسمى بالحالة عن شعورهم في تلك اللحظة، بعضهم كان يغير تلك الحالة يوميًا، في حين كانت تبقى لدى آخرين لمدة أسابيع أو أشهر.

أفتقد الوقت الذي كنت أقضيه مع أفضل أصدقائي باسا.

لا تهتم بما يعتقده الآخرون فيك.

أنا في المدرسة.

كان ريتشارد قد بدأ قبل فترة في كتابة تلك الجمل، أحيانًا عندما يقع أحد الرجال في حب فتاة من برلين، ولكنها لا ترغب

تمامًا في الزواج منه، كان يجد الجملة التالية مكتوبة: "أرغب فقط في التواجد معك".

ولكن أحيانًا - أيضًا - كانت توجد جمل مثل: "عليك أن تظل مؤمنًا بنفسك"؛ أو: "الخطأ كان في الاختيار".

قال ريتشارد لأبولو في الأسبوع السابق لعيد القدوم الرابع: أتسمح لي أن أطرح عليك سؤالًا.

- بالتأكيد.

- كيف استطعت دفع ثمن مثل هذا الهاتف النقال الغالي وكذلك اشتراك الإنترنت؟

- ليس لدي عائلة، وليس لدي من أرسل له مالًا.

رأى ريتشارد الطبق المغطى بورق الألومونيوم ما زال موضوعًا فوق الثلاجة، كان الطبق موضوعًا هناك قبل يومين عندما قام أبولو بناء على طلب ريتشارد بكشف الغطاء الألومونيوم ليري ريتشارد ما قام بطهيه، كان يوجد في الطبق شيء يشبه الكسكسي، كمية موضوعة بطريقة مسطحة وقد أُكل ربعها بالفعل، وفكر ريتشارد في الكميات الضخمة مثل الأبراج فوق الأطباق التي يقدمها له إيتمبا دائمًا عندما يحضر للزيارة.

قال أبولو: هذا يكفي لعدة أيام.

- هذا الطبق؟.

- نعم، إذا أكل المرء أكثر فسيصبح مثل الرضيع".

- مثل الرضيع؟.

- نعم، مُدلل جدًا.

- أفهم".

لا يمكن أن يعرف المرء المستقبل، ربما يضطر المرء مرة أخرى للجوع أو العطش وعندها يجب تحمل ذلك.

شاهد ريتشارد ذات مرة تقريرًا في التلفاز عن فتاة يهودية برلينية في العصر النازي، وكانت تعلم بأنهم سيرحلونها قريبًا إلى الشرق، لذلك كانت ترتدي حذاء خفيفًا بدلًا عن حذاء الشتاء وهي ذاهبة إلى المدرسة رغم انخفاض الحرارة إلى اثني عشرة تحت الصفر: "أريد أن أستعد للظروف الصعبة في بولندا"، حسبما كتبت في رسالة لوالديها.

هذا ما تذكره ريتشارد عندما أراه أبولو قبل يومين الطبق وبه كمية موضوعة بطريقة مسطحة وقد أكل ربعها بالفعل، وتذكر ذلك مجددًا عندما رأى أن الطبق ما زال في مكانه، وأن أبولو يأكل منه بمعدلات بسيطة مثل عقارب الساعة متثاقلة الحركة.

"ليس لدي أسرة، ولا أحد يجب علي أن أعطيه نقودًا".

لم ير ريتشارد أبولو وهو يشرب أي شيء سوى الماء؛ ماء من الصنبور، دون صودا، لا يشرب أي واحد من الرجال هنا الكحول، ولا يدخن أحد منهم، لا يملك أحدهم شقة خاصة ولا حتى سرير، وملابسهم تأتي من التبرعات، لا توجد سيارة ولا جهاز ستريو، ولا عضوية في نادي رياضي، ولا رحلات، ولا سفر، لا توجد زوجة ولا أولاد، ولا يوجد أمل في أن يصبح لهم زوجات وأولاد، بالفعل الشيء الوحيد الذي يمتلكه كل لاجئ هو الهاتف المحمول، بعضهم لديه هاتف محطم الشاشة، وبعضهم يحمل موديلًا حديثًا، وبعضها كان به اشتراك إنترنت، وبعضها دونه، ولكن لدى كل واحد هاتف محمول.

قال تريستان وهو يحكي لريتشارد كيف دمر الجنود كروت الذاكرة الخاصة بالسجناء في ليبيا: دمر الذاكرة!

فقال ريتشارد: أفهم.

حكى له تريستان أن صديق أبيه ربما يكون ما زال حيًا ويكون قد هرب إلى بوركينا فاسو، فقد أرسل إليه أحد المعارف رسالة، هو فعلًا نفس الاسم، وهو يأمل الآن أن يجد له ذلك الشخص رقم هاتف صديق والده، بوركينا فاسو، قال تريستان: "لو كان صديق أبي حي فعلًا ...."، ثم توقف في منتصف الجملة.

قال رشيد: "لم أرَ أمي منذ ثلاث عشرة سنة، فقط أحيانًا عندما نتحدث عبر فيسبوك"، "هل لديها كمبيوتر؟"، "لا، ولكن أحد

الجيران"، عندما كان رشيد يحادث أمه تلك المحادثات كان يجلس بحيث لا ترى الندبة الموجودة فوق عينه، "كيف حالك يا بني؟"، "بخير"، ثم قال رشيد: "أحيانًا لا أرد عندما تتصل، لا يوجد أي تقدم هنا منذ سنتين، فماذا عليَّ أن أخبرها؟!".

وأضاف رشيد: "أحاول منذ سنتين عبر فيسبوك أن أصل لوالدي خليل، مؤخرًا جلس لدي في الغرفة وبكى"، وتذكر ريتشارد رسمة خليل: قارب رفيع مثل الهلال وتحته الكثير من الماء.

لاحظ ريتشارد في كل زياراته أن الرجال يسكنون إلى موجات الاتصالات أكثر مما يشعرون بالسكن في أي بلد من البلدان التي ينتظرون فيها المستقبل، شبكة من الأرقام وكلمات السر تمتد عبر القارات وتقدم لهم بديلًا ليس فقط عما فقدوه للأبد بل -أيضًا- عن البداية الجديدة التي لا تأتي، ما يملكونه خفي ومجرد هواء.

قال الرجل النحيف: لقد تعرف رشيد عليَّ من خلال هاتفي، كان هاتفه من خامة صناعية رخيصة، مربوط بشريط لاصق، لونه وردي، كان ملكًا لفتاة وتخلصت منه، قال: معي هذا الهاتف منذ كنت في لامبيدوسا، ثلاث سنوات تقريبًا، ثم رفعه لأعلى، ولكن الخط أصبح غير مستقر الآن، لديه في قائمة الأسماء أرقام إيطالية وفنلندية وسويدية وفرنسية وبلجيكية أرقام أصدقاء أفارقة، يهيمون عبر أوربا على وجوههم تمامًا مثله، بعضهم في الأصل من غانا، أو كانوا يعملون في نفس موقع البناء في ليبيا،

أو كانوا معه في نفس القارب الذي أحضرهم إلى أوربا، أو تعرف إليهم في معسكر أو محطة ما في لامبادوسا أو في مقر جمعية خيرية، كلهم أصدقاء ليس لديهم عمل، وبالتالي ليس لديهم شقة، وبالتالي ليس لديهم عنوان، وليسوا مسجلين بأي مكان، وأسماؤهم الأولى وألقابهم مكتوبة بطريقة شبه صحيحة بحروف إيطالية على بطاقات هوية مؤقتة.

كيف يمكن أن أجدهم دون رقم هاتف؟

كان الرجل النحيف، الذي لم يكن اليوم ممسكًا بالمكنسة، يقف مستندًا إلى باب الشرفة، والمربع الأسود وراء ظهره كان يغطي ما يمكن في النهار تسميته ببساطة حديقة.

ثم قال: أفضل أصدقائي وأنا قررنا عند وصولنا إلى أوربا أن يسير كل منا في طريقه، فقد فكرنا أنه ربما يحالف على الأقل أحدنا الحظ، ثم يتمكن من مساعدة الآخر بعد ذلك.

تذكر ريتشارد حكاية الأخوين جريم التي كان يحب قراءتها وهو طفل: حكاية الإخوة الذين أرسلهم أبوهم ليبحثوا عن حظهم، وأن يجدوا ابنة الملك الجميلة، وكي يحلوا بعض الألغاز وأن يفعلوا ما يستحقوا في مقابله ميراثهم، كل واحد منهم رمى بسهم في اتجاه من الاتجاهات الأربعة وتبع سهمه، أمراء افترقوا عند تقاطع طريق، أو أجلسهم أبوهم على خيول، أكبرهم على حصان أسود والأوسط على حصان أحمر والأصغر على حصان أبيض،

وكان عليهم أن يثبتوا أنفسهم، وعادوا لبيتهم يومًا ما وفي متاعهم رؤوس تنانين مقطوعة وذهب، لقد أصبحوا رجالًا، وأمامهم على سُرج الخيل العرائس، أو لعلهم لم يرجعوا، أصابتهم لعنة مسختهم، وكانوا في انتظار الخلاص عن طريق أحد إخوتهم، وحتى يأتي ظلوا هم ممسوخين على هيئة حيوان في غابة غريبة، أو تحولوا إلى حجر، أو أصبحوا دون لسان، أو أصبحوا قطعًا ممزقة في وعاء طهي ساحرة شريرة، في تلك الحكايات كان العالم دائمًا ذلك الذي يبدأ عند تقاطع أو مفترق طريق: وانطلقت القصة من تلك النقطة إلى الشمال، إلى الجنوب، إلى الشرق، أو إلى الغرب، لم تفتقد تلك الحكايات أبدًا إلى الخلاص، عندما يصدأ السيف تعرفون أني في أزمة، الأمراء لا يحتاجون إلى جوازات سفر، وفكر ريتشارد في أن حكايات الرحيل بحثًا عن السعادة كانت قبل عهد قريب حكايات ألمانية.

39

في البداية حين كان يعيش الرجال بالقرب منه في ضاحية المدينة كان يعتبر أن وجود هواتف محمولة معهم هو لون من ألوان الرفاهية، رغم أنها كانت ربما من أبسط أنواع الهواتف، والآن - أيضًا - لا يمكنه تصور الفائدة من وجود بطاقة ركوب المواصلات مع كل واحد من اللاجئين، عندما لا يكون لديهم عمل أو معهم ما يكفي من المال لزيارة المتحف؟ لمَ لا يقومون مثلًا بالتنزه حول البحيرة؟ وعندما يرغبون في الذهاب إلى المدينة فلمَ لا يهربون من دفع التذكرة؟، هكذا كان يفكر في البداية ويبتسم في صمت، وتلك الابتسامة يلاحظها على نفسه منذ خرج إلى المعاش، ولكنه الآن يعرف: في الفترة التي امتدت عدة أشهر قامت فيها الحكومة بتقديم دروس لغة للاجئين وتحدد لهم المصالح الحكومية مواعيد ملزمة أصبحت الحكومة مضطرة لإعطائهم اشتراكات شهرية لركوب المواصلات، فقط حتى يتم البت في أمرهم وحسب.

القانون ينص على أنه لا يتم منح شيء، القانون الوقح، وماذا لو أخذ الرجل النحيف مثلًا الـ57 يورو وأرسلها إلى أمه في غانا بدلًا من شراء البطاقة؟

عندما يتم الإمساك برجل أسود وهو يتهرب لأول مرة من دفع التذكرة هنا فإنه سيدفع 40 يورو غرامة، تمامًا كأي شخص آخر، هكذا يقول القانون، أما في المرة الثانية، حسب القانون أيضًا، فإنه يتعرض لعقوبة: إما السجن أو دفع غرامة، وتحتسب الغرامة حسب دخل المخالف، في حال أفقر الفقراء تبلغ الغرامة 10 يورو، في المرة الثالثة يدفع 60 مرة أجر يوم عمل بقيمة 10 يورو، هذا ما سيدفعه ألماني يفضل الغرامة على السجن، وهي عقوبة مخففة، بدءًا من غرامة الـ90 يومًا يعد الألماني „سوابق"، أما الأجنبي فبدءًا من عقوبة 50 يومًا يمكن أن يتم ترحيله، وبالتالي يفقد أي حق في اللجوء، وبالتالي الغرامة المخففة لا تعد بالنسبة للأجنبي مخففة؛ لأنه لو تعرض لغرامة 60 يورو مثلًا فإنها ستكون حاسمة بالنسبة له، رغم أنها عقوبة مخففة.

القانون يعرف ذلك كله.

بعدما رأى ريتشارد على مدار أسابيع كيف يقضي الرجال يومهم أصبح يعرف أن اشتراك ركوب المواصلات بالنسبة لحياتهم لا يعد رفاهية تمامًا.

كان الرجال يقولون: „نتصل بأصدقائنا ونتواعد".

تذكر ريتشارد أن المجموعة قد تم تقسيمها على ثلاثة ملاجئ عندما فضّوا اعتصامهم في الميدان، ولم يكن في دار المسنين في ضاحية المدينة سوى مجموعة واحدة منها، المجموعتان

الأخريان كانتا في فريدريشسهاين وفيدينج، أصدقاء قضى المرء معهم سنة ونصف في الخيام تحت الثلج أو دونه، مع وجود وجبة ساخنة في اليوم أو دونها، ثمانية دورات مياه لـ476 شخص بعد أن هاجم الألمان عربة دورات المياه، مع قوائم انتظار لاستخدام الدش في مبنى الكنيسة، مع مصايد فئران تحت الخيام.

- وماذا تفعلون حين تلتقون؟
- نطهي معًا، نتحدث، أو نذهب إلى ميدان ألكس، يوجد سوق الآن هناك.
- سوق عيد الميلاد؟
- نعم.
- هل تركبون القطار الدوار أو المراجيح؟
- لا، إنها غالية جدًّا، لكن السوق جميل.

كانت صورة صفحة أحد الرجال تعرض صورته مع مجموعة من الأصدقاء أمام متجر مقانق وهم واقفين حول نار الشواء يدفئون أيديهم.

كنا نذهب أحيانًا في الصيف إلى الملعب، عندما تكون هناك مباراة، ولكن عادة نذهب إلى ميدان أورانين، ما زالت توجد هناك خيمة.

وكان الرجال يعنون خيمة المعلومات التي كان بقاؤها جزءًا من

الاتفاق مع الحكومة، ولكن أعداء الأجانب من البرلينيين أشعلوا فيها النار ثلاث مرات حتى الآن، وتم إقامتها ثلاث مرات.

- وماذا تفعلون هناك؟
- نقف ونتحدث.

قال تريستان في ذات مرة في إحدى المحادثات الأولى مع ريتشارد: سأظل أحمل لميدان أورانين كل التوقير والمحبة.

تذكر ريتشارد عندما فتح الجريدة يومين قبل عيد الميلاد أن ما يسمى بالاتفاق يذكر أنه في حالة الأشخاص الذين يجهلون القوانين الأوروبية وقاموا بتقديم طلبات لجوء في أي مكان آخر من ألمانيا سيتم البت في طلباتهم في برلين، كي تبقى المجموعة بعضها مع بعض.

وأضاف النص: „قدر الإمكان".

وطبعًا: „إذا سمح القانون بذلك"

القانون الوقح.

ولكن القانون للأسف لا يسمح بذلك، قبل عيد الميلاد بيومين كشَّر القانون عن أنيابه، قرأ ريتشارد في الجريدة أنه مع بداية العام سيتم نقل الرجال إلى الأماكن التي تقدموا فيها بطلبات لجوئهم سواء إلى ماجديبورج أو إلى بيت لاجئين في عربات نوم

على أطراف مدينة هامبورج أو إلى قرية جبلية في بافاريا.

حتى ريتشارد الذي لم يعرف ذلك القانون إلا قبل أسابيع كان يفهم ما يعنيه ذلك، كان ذلك يعني أن الرجال ستتم إعادتهم إلى ماجديبورج أو إلى هامبورج أو إلى قرية جبلية في بافاريا كي يخبروهم هناك بعد فترة قصيرة أنهم غير مسموح لهم بالعمل أو الحياة إلا في إيطاليا لأنهم حضروا عن طريقها، قدّر ريتشارد المدة بحوالي شهرين أو ثلاثة على الأكثر حتى يتم إحضار بصمات الأصابع من أمزيل أو دروسيل أو فينك أو ستار ويتم تحليلها، فقط شهرين أو ثلاثة على الأكثر يمكن لأحدهم أن يعيش كلاجئ شرعي ويحصل على راتب 300 يورو شهريًا في ماجديبورج أو إلى بيت لاجئين في عربات نوم على أطراف مدينة هامبورج أو إلى قرية جبلية في بافاريا، ثم يتم إرجاعه إلى إيطاليا، بلا عودة.

كتب أحدهم في غرفة المحادثة التابعة لفولكسموند: „سيتم جمع الفتية والفتيات وإعادتهم من حيث أتوا".

هل سيكون هناك فرق كبير فعلًا إذا سمحوا لأحد هؤلاء اللاجئين بأن يقضي الشهرين أو الثلاثة هنا في برلين مع أصدقائه حتى يتم البت في حالته، التي هي في الحقيقة ليست مجرد حالة وإنما حياة؟

على ما يبدو نعم.

قال الفتية، هؤلاء الزنوج المجانين، إنهم مستعدون للتخلي عن المال ولن يقبلوه كثمن لنقلهم إلى مدينة أخرى، وأنهم سيتخلون شاكرين عن تلك الـ300 يورو التي سيقبضونها مرتين أو ثلاثة، هل سيتخلون بهذه البساطة عن المال، هل هم تجار مخدرات، لقد فاض بهم الكيل، يعتبرونهم مافيا إفريقية.

على ما يبدو يوجد فعلًا فرق إذا بقت المجموعة معًا، هنا في برلين، أم أنه سيتم بعد تقسيمهم الأول إلى ثلاثة مجموعات للاستمرار في تقسيمهم.

وإلا فلمَ أيقظت المصالح الحكومية القانون من ثباته الآن؟

على ما يبدو فإن في ذلك فارق كبير.

الصديق، الصديق الجيد، هو أفضل ما يوجد في العالم.

قال الرجال فعلًا إنهم يفضلون البقاء دون مال إذا لزم الأمر، وأن يبقوا بصورة غير شرعية، في برلين، كي يبقوا جميعًا.

كتبت الـ"ناتسيون" على موقعها: مجرمون، منتهكون للقانون.

تم مؤخرًا اكتشاف أن مجموعة الرجال الستة التي غنت وقت الأزمة الاقتصادية 1930 „الصديق الصديق الجيد" كان نصفها من أصل يهودي، نجا ثلاثة منهم عن طريق الهروب إلى أمريكا، والثلاثة الآخرون تم تعيينهم في وزارة ثقافة الرايخ الألماني،

وهكذا انتهت الصداقة.

تدعي السياسة في برلين أنهم مجرد مجموعة من الباحثين عن مصالحهم الشخصية لا يتسببون سوى في المتاعب، وتقول أيضًا: لا توجد استثناءات، وتقول: يجب عدم السماح بحالات استثنائية يُقاس عليها، وإلا فسيجلس بعد عدة أيام 200 شخص جُدد في الميدان.

يتم انتخاب عمدة برلين كل أربع سنوات.

قال رشيد: ولكننا لا نريد هنا حلًا لأنفسنا وحسب، وإنما لكل اللاجئين في أوربا، لذلك سمينا معسكرنا في الميدان بمعسكر الاعتراض، لا يمكن أن يظل القانون هكذا على ما هو عليه.

وهنا يفتح القانون فمه العملاق ويضحك دون أن يصدر صوتًا، وبعد أن ضحك ضحكته الفظيعة ويكتفي من ذلك، أي يفحص كل الإمكانات كما يقولون، قال القانون الألماني: السبب الوحيد لنقل طلب لجوء إلى ولاية أخرى، برلين مثلًا، هو لمّ شمل الأسرة.

ولكن لا أحد من هؤلاء الرجال لديه عائلة هنا، ما أطيبك أيها القانون، فقط بعض الأصدقاء، فيجيب القانون: الأصدقاء ليسوا عائلة؛ ثم يجز على أسنانه.

عزيزي القانون، ماذا تنوي؟ ماذا سيحدث؟

ومـاذا تتوقعون!

سيفترس القانون اليوم على العشاء اليد والركبة والأنف والفم والقدمين والعينين والمخ والضلوع والقلب والأسنان، لا فرق.

40

سيحتفل ديتليف وسيلفيا بعيد الميلاد عند ابن ديتليف عند ماريون، أمه، وزوجها الحالي في بوتسدام، سألهما ريتشارد: "أترغبون جميعًا في الجلوس تحت شجرة عيد الميلاد معًا؟ الزوجة الأولى والثانية والابن من علاقة ديتليف الأولى، والرجلان؟"، فقالت سيلفيا: "أتعرف، لقد مرَّ الكثير من الوقت على ذلك، ولو جاء ماركوس من الصين لانضم إلينا.

وعد بيتر، عالم الأثريات، صديقته التي معه منذ عشرين عامًا، أن يسافر معها لأول مرة إلى والديها في بامبيرج، أخبره مرة أن والديها أصغر منه بخمس سنوات، فتعجب ريتشارد، "ولكن بامبيرج جميلة جدًّا"، فقال بيتر: "بكل تأكيد".

حجزت عالمة اللغويات مونيكا وزوجها ذو الشارب، يورج، رحلة إلى فلورنسا؛ لأن ابنتهما لم ترغب في استقبالهما في عيد الميلاد، تخيل، لم تقبل حتى الكعكة التي خبزتها بنفسي، ولكني أعطيت العلبة سرًّا بعد ذلك لصغيرها، قديمًا كانا يقضيان الكثير من الوقت في العطلات مع ريتشارد وكريستل، ولكن منذ أصبح ريتشارد يعيش وحده لم يعودا يسألاه، ربما لأن مونيكا لا تتحمل

رجلين في وقت واحد.

أصبح علي، تلميذ ريتشارد متقدم المستوى، يسكن لدى المصورة أنّا منذ عدة أيام، بعد سفر الممرضة البولندية إلى عائلتها قبل عيد القدوم الرابع.

سألها ريتشارد: وكيف تسير الأمور؟

- تخيل، لم يسكن يومًا في حياته في غرفة وحده.

فقال ريتشارد: لا يمكنني تصور ذلك، عدا ذلك، هل يعينكم جيدًا؟.

- نعم، نقوم معًا بحمل أمي بصورة جيدة.
- إنه يتعلم مني الكثير.
- حسنًا، أفهم.

فقالت: هو طيب فعلًا، ولكن أمي لا تزال تخاف منه.

فقال ريتشارد: "هذه هي التربية النازية اللعينة.

- ربما".
- مثل هذه الأشياء تعود في الكبر بقوة.
- ربما، رغم أنه يبذل الكثير من الجهد، لقد قبّل جبينها لأنه رآني أفعل ذلك.

- وهل صرخت أمك؟.
- في الحقيقة شرحت له أنه في ألمانيا يمكن فقط للابنة أن تفعل ذلك.

كان ريتشارد ما زال يعرف ذلك الإحساس الذي انتابه عندما ذهب أول مرة إلى أمريكا: كيف حالك؟ بخير، شكرًا، وكيف حالك؟ ولكن قبل أن يتم إجابته المهذبة كان البائع أو البواب أو النادل يختفي بسرعة، وعند دفع مشترياته في السوبر ماركت كانت الأشياء توضع في أكياس كثيرة جدًّا وكان البائع يعجب من أنه يساعد في تعبئتها، كان طعم ماء الصنبور سيئًا، والنوافذ يمكن رفعها فقط مقدار عشرين سنتيمترًا، ولا يمكن فتحها فعلًا، وفي بداية شهر أبريل كانوا يضعون الحشائش الصناعية أمام الفيلات، مما يجعل كل شيء يتحول فجأة إلى اللون الأخضر، كان يشعر ريتشارد بالارتباك من الغربة لمدة يومين أو ثلاثة فقط، هل عساه يعرف كيف يمكن الاعتناء بجدة إفريقية؟ أو كما يسمونها نانا؟

قضى ريتشارد وقتًا جيدًا في عيد الميلاد الماضي مع أندرياس، قارئ هولدرلين، دون شجرة عيد ميلاد ودون طهي الأوز، جلسا معًا وشربا الويسكي وشاهدا فيلم "البعض يفضلونها ساخنة"، لا يمكن أن يمل المرء من ذلك الفيلم، كان هذا دائمًا رأيهما، سافر هذا العام أندرياس في بداية شهر ديسمبر للاستشفاء الذي سيستمر إلى نهاية شهر يناير، رغم أن ريتشارد كان يعرف ذلك

إلا أنه لم يدرك أنه سيقضي ليلة عيد الميلاد وحده هذا العام، على خلاف كل أصدقائه، إلا عندما رأى الثلاجات في السوبر ماركت فارغة يوم 23 ديسمبر.

بمجرد أن اتصل برشيد، إلا وقال: "لا توجد مشكلة"، وأجابه ريتشارد: "حسنًا"، انطلق إلى الردهة وربط حذاءه، نظر إلى الساعة وتمنَّى أن يكون متجر أشجار عيد الميلاد لم يغلق أبوابه، وتمنَّى أن يجد في أي مكان أوزة حيوية، غير معالجة بالهرمونات، غالية جدًّا لدرجة أن أحدًا لم يشترِها، لا يجب بالضرورة أن تكون شجرة عيد الميلاد كبيرة، المهم أَن تكون لديه شجرة عيد ميلاد، شجرة صنوبر حقيقية في غرفة المعيشة، بالتأكيد لم يرَ رجل نيجيري شيئًا كهذا من قبل، لم تكن الشجرة التي وجدها صغيرة، ولكنه في المقابل لم يجد أوز، وجد فقط بعض الأوراك المقطعة والمطهية بالفعل والعجائن الجاهزة وبرطمان من الكرنب الأحمر الجاهز، وفيه بعض الخل وقرنفلتان، هكذا يصبح طعمها مثل المطهية في البيت، كانت تلك كلمات زوجته في عيد الميلاد عامًا بعد عام طيلة حياتها، كان يجب وضع شجرة عيد الميلاد ليلة 23 ديسمبر، وكان هو دائمًا يقول حتى خمس سنوات مضت: "يجب أن تقف الشجرة"، كان ضمن طقوس عيد الميلاد اللعنات التي يطلقها لأن الشجرة لا تقف ثابتة في الإناء المعدني رغم أنه قلَّمها بنفسه، وكذلك الزحف تحت الشجرة لإدارتها حتى تكون الأغصان الأكبر بعيدة عن الطريق فيسهل المرور بجوارها للوصول إلى الشرفة، وإحضار الكراتين من القبو وعليها كتابة

بخط زوجته كريستل، وما زالت تلك الكتابة موجودة حتى بعد وفاتها بخمس سنوات: وقت ما قبل عيد الميلاد، توزيع الملائكة على البيت، كسارة البندق، النجوم، كان يعرف كل تلك الأعمال، التي ربما لم يكن ليقوم بها هذا العام، كان يعرفها جيدًا بصورة مخيفة، يا ترى ماذا يوجد غير ذلك في ظلمات ذاكرته ولم يخرجه منها حتى الآن، قبل أن يغلق المتجر أبوابه؟

ورغم مرور عيد القدوم إلا أنه وضع أربع شموع حمراء في المكان المخصص للإكليل كي يشرح لضيفه الغريب في اليوم التالي ما هو عيد القدوم، وفي صباح الـ24 ديسمبر زيَّن الشجرة، وجهز الهرم الكبير ووضع عليه الملائكة التي كانت على شكل مروحة، عندما توضع على الطاولة، تعلوه بعشر سنتيمترات، في حين كانت أوراك الأوز تستكمل نضجها في الفرن، الملائكة الخشبية كانت توضع بالطابق العلوي، وعلى الرف الأوسط العذراء مريم ويوسف والأغنام والحمار والحمل والرعاة وملوك من الشرق وطبعًا مغارة الميلاد وفيها المسيح الصغير، وعلى الجزء الأسفل من الهرم كانت توضع مغارة العمال، إذا لم يتم تثبيت كل شيء جيدًا فإن ملك واحد من الملائكة المهتزة يمكن أن يفقد الجميع توازنه حتى عمال المنجم، أو ربما تسبب عامل، يحمل طبلة أثقل عدة جرامات من الناي الذي يحمله زميله على الجانب المقابل، يتسبب ليس فقط في سقوط زميله ولكن -أيضًا- سقوط العذراء مريم ويوسف وكل المخلوقات السماوية، نعم إن لم يكن المرء ماهرًا فإن التماثيل ستسقط من على الألواح الخفيفة على العائلة

المقدسة من أعلى إلى أسفل، أو ربما بدأ السقوط من أسفل إلى أعلى، حملان من الخزف تسقط على الطفل يسوع، وربما سقطت العذراء مريم في المنجم، وهي ترتدي فستانها اللبني، تسقط على الحشد المزدحم وعلى عازف البوق وحامل الطبل، ربما انزلق الطبل الكبير، وحطمت الأدوات الموسيقية تلك الهيئة المقدسة وسقطت الملائكة من السماء، كل ذلك لأن ريتشارد لم ينتبه للحظة، أو لأن يديه أضخم من يدي زوجته التي ماتت، والتي كانت تقوم هي في ما مضى برص تلك القطع، لأنه لم يكن يحسن ذلك أو يسيء تقدير وزن التماثيل.

41

كان العالم خاليًا تمامًا بعد الظهيرة قُبيل عيد الميلاد، سأل رشيد وهو ينظر من نافذة السيارة وهما في طريقهما من بيت اللاجئين إلى ضاحية المدينة: "هل تلك الحقول ملك الحكومة؟"، فقال ريتشارد: "لا، لا أظن ذلك، أراضي النبلاء في أيدي الفلاحين"، ثم شرح له الإصلاح الزراعي، إلا أنه لم يكن نفسه يعرف ما حدث بعد عام 89 بجمعية الإنتاج الزراعي، هل يمكن ببساطة تحويل كيان شيوعي جمعي إلى شركة ذات مسئولية محدودة؟ هل يوجد تشابه بين الاقتصاد الموجه والشركات القابضة؟ يجب أن يسأل صديقه توماس أستاذ الاقتصاد عن ذلك في أقرب فرصة، قال رشيد عندما انفتح باب حديقة ريتشارد المعدني بصورة تلقائية: "كنت أركِّب مثل تلك الأبواب، كان هذا عملي"، وعندما رأى البحيرة سأل: "منذ متى وهي هنا؟"، ولكن ريتشارد لم يفهم السؤال، "متى صنعوها؟"، "ولكن، من مِن المفترض سيقوم بصنع بحيرة؟"، "الحكومة طبعًا!"، فقال ريتشارد: "لا، البحيرة موجودة هنا منذ عدة ملايين من السنوات، منذ نهاية العصر الجليدي"، فسأل رشيد وهو يهز رأسه غير مصدق: "منذ عدة ملايين من السنوات، فعلًا؟".

ثم وقف ريتشارد، الملحد الذي كانت أمه إنجيلية، مع صديقه المسلم أمام شجرة عيد الميلاد الوثنية المضيئة، والتي عليها، كعادة ريتشارد وزوجته، شموع طبيعية فقط، كانت جوقة توماس تغني، وقام بتسخين أوراك الأوز، المعجنات كانت على وشك النضج، والكرنب الأحمر يغلي وهو في الخل والقرنفل، ولأن ريتشارد لم يجلب لضيفه هدية فقد عرض عليه اختيار سترة شتوية من خزانة الملابس ويجربها، توجد واحدة كان ريتشارد يجدها دائمًا كبيرة المقاس ولكنها جاءت مناسبة لمفرق ضربات البرق، كما أنها أعجبته، "أشكرك، أنا أقدر ذلك فعلًا"، جلسا في المطبخ لتناول الطعام؛ لأن ذلك كان عمليًا أكثر، ورغم أن الأجواء لم تكن احتفالية جدًّا، إلا أن رشيد قال: "ما رأيك، يعجبني هذا، إنه جميل!، ولكن ماذا عن الشموع المشتعلة على الشجرة"، "لا تقلق ستنطفئ الشموع من تلقاء نفسها عندما تحترق حتى النهاية"، قال ريتشارد تلك الكلمات وكأن ذلك كان اختراعًا غربيًا وبديهيًا تمامًا بالنسبة له، بدا أن الطعام يعجب رشيد، هل يزرع الكرنب الأحمر في النيجر أيضًا؟ بعد ذلك اصطحب ريتشارد ضيفه، وكأنه في سوق عيد الميلاد، في جولة من غرفة لغرفة ومن ملاك إلى ملاك وشرح له معنى النجم وأهمية الإكليل ثم أشعل في النهاية شموع الهرم الموضوع بجوار التلفاز، لم يصدق رشيد أن الهرم يتحرك بحرارة الشموع فقط لذا نظر خلف الطاولة الصغيرة الموضوعة، وتفقد وجود مصدر كهرباء أو سلك كهرباء، شرح له ريتشارد طريقة عمله عن طريق الهواء الساخن المتصاعد

الذي يحرك ريشات المروحة المنحنية فتدور، ظل رشيد يحملق فيها لوهلة وهي تدور ويدور معها عمال المنجم والأغنام والرعاة والملوك القديسون الثلاثة والعذراء مريم والطفل في المغارة ويوسف والملائكة من فوقهم ويمرون من أمامه المرة بعد المرة.

- أتعرف، القرآن -أيضًا- يذكر أن المسيح كان نبيًا.

فقال ريتشارد: أعرف، أعرف. ـ وتذكر أركان الإسلام الخمسة.

- إن أحدهم أسود. ـ وأشار رشيد إلى أحد الملوك الثلاثة.

فقال ريتشارد: نعم، إنه كاسبر.

فسأله رشيد: هل ركبت الهرم بنفسك؟

- لا.

ثم شرح لرشيد وهو يطفئ الشموع مرة أخرى الأمر الخاص في الأعمال الخشبية القادمة من جبال الجنوب، ثم قاما ليستنشقا بعض الهواء العليل في الشرفة.

تذكر ريتشارد كيف وضعت زوجته قبل سنوات الإوزة المشوية بالخارج على طاولة لتبرد قليلًا لأنها كانت أكبر من أن توضع في الثلاجة، وعندما أرادت إحضارها من الخارج كانت قد اختفت، يومها فكر في أنه أصبح هناك أشخاص في وسط ألمانيا، وكان ذلك بعد إعادة توحيد الألمانيتين ببضع سنوات، فقراء جدًا لدرجة

أنهم يسرقون طعام العيد من الآخرين، وقد سرق يومها -أيضًا- شواء العيد من بيت جيرانه الذين يسكنون بعده ببيتين، وكانت آثار اللصوص واضحة في الثلج، ولكن بطبيعة الحال لم يقم لا هو ولا جاره بإبلاغ الشرطة.

لم يوجد ثلج هذا العام، فقد كانت درجات الحرارة فوق الصفر بعدة درجات، وبالأمس سقطت بعض الأمطار الخفيفة، ولكن السماء كانت صافية في تلك الليلة وكانت النجوم واضحة.

قال رشيد: كان ابني تقريبًا ثلاث سنوات وابنتي خمسًا.

فسأله ريتشارد: أما زالا هناك؟

قال رشيد: في البداية عندما هربت من كادونا ووصلت إلى أجاديس وأردت منها الذهاب إلى ليبيا، لم أكن أعرف معنى كلمة حدَّاد بالعربية أو الإنجليزية، أنا أعمل حدادًا.

سأل ريتشارد: هلّا عدنا إلى الداخل؟

استكمل رشيد بعد أن دخلا وجلسا على الأريكة: كان لدينا في طرابلس - أيضًا - غرفة معيشة، وصالون مثل هذا، وثلاث غرف نوم، وردهة ودورة مياه ومطبخ.

كان الهرم ساكنًا، ولأن رشيد لم يرغب في شرب الجعة فقد أعد ريتشارد لهما شايًا بالنعناع، وأشعل الشموع الحمراء الأربعة رغم

أن عيد القدوم كان قد ولى بالفعل.

استطرد رشيد: كان يوجد على الإفطار دائمًا اليام ومنتجات الألبان والبيض، وكنا نخرج من البيت في الثامنة، حيث كنت أوصل الطفلين إلى المدرسة، أحمد، تقريبًا ثلاث سنوات، وأمينة خمس سنوات، كانت المسافة من البيت إلى المدرسة تقريبًا مثل المسافة من ميدان أورانين إلى فيدينج، وكانت زوجتي تعمل في حي آخر. كانت شركتي بالقرب من المدرسة، كانت تتكون من مبنيين، غير مدهونين من الخارج، وإنما من الداخل فقط، وفناء، تقريبًا بنفس حجم شركتي في كادونا، كان الإيجار 500 دينار، أي تقريبًا 300 يورو.

في منتصف الواحدة أو في الواحدة بعد نهاية المدرسة كان الأطفال يأتون إليّ - أحمد وأمينة -، كانا يخلعان ملابس المدرسة ويرتديان ملابسهما العادية كي يلعبان عندي حتى يحين موعد العودة إلى البيت، كنت أنتبه دائمًا كي لا يلعبان في الورشة حتى لا تصيب برادة الحديد أعينهما، وأحيانًا كانت تمر علينا زوجتي بعد الظهيرة، وأحيانًا كنا نلتقي جميعًا في البيت، كنت دائمًا أعد طعام العشاء، وكان مسموحًا للصغير أن يأكل من طبقي، وبعدها كان الصغيران يخلدان إلى النوم، وكنا نحن ننام تقريبًا في العاشرة والنصف، أحيانًا كان يأتي الصغير إلينا في الليل فقد كانت تراوده أحلام كثيرة، أحمد، فكنت أتركه ينام بجواري وكانت زوجتي تذهب باقي الليل إلى غرفة الأطفال، إلى ابنتنا، أمينة.

ربما يكون النعناع قد برد، جلس ريتشارد ساكنًا وهو يستمع ولم يفكر مجرد التفكير في أن يمد يده إلى فنجانه، كان يعرف أن القصة التي يحكيها له رشيد الآن تعد بمثابة هدية.

وأكمل قصته: حدثت قبلها بعض الاضطرابات فبقينا خمسة أيام في البيت لم نخرج فيها، ولكن في اليوم الموعود كان كل شيء طبيعيًا في البداية، كنت قد انتهيت من صنع بوابة حديدية لمدخل، يحتاج ذلك إلى يومين، تم تسليمها قبل الظهيرة وحصلت على الدفعة الثالثة من الثمن، 500 دينار، وكان الطفلان يلعبان لدي في الفناء. ثم اتصلت بي زوجتي من عملها، وقالت إن شيئًا ما يحدث وإنها خائفة من الذهاب إلى البيت وحدها، قلت لها إني سأمرّ عليها، ولم أكن أعرف أنهم قد أغلقوا أجزاء من الحي الذي به عملها، ولم نستطع الوصول إليها، قام جنود بنقلي وطفليَّ وثلاثة عمال سود معي إلى معسكرهم، كان أحمد وقتها ثلاث سنوات تقريبًا وأمينة خمسًا.

كان ريتشارد يعرف بعض أجزاء الجمل التي يسمعها الآن من حكايات تريستان: في كل مكان قتلى في الشوارع، في كل مكان دماء، في كل مكان ثكنات، ليس فقط رجال، بل - أيضًا - نساء وأطفال وعجائز وحتى رضع، دمر الذاكرة.

ثم قال رشيد: أخذ مني الجنود النقود التي حصلت عليها مقابل البوابة وأخذوا حتى النقود القليلة التي كانت في جيبي، كنت ما

زلت أرتدي ملابس العمل، في الحقيقة كان لدي حساب في بنك ليبي، ربما يكون ما زال موجودًا، رقم حسابي كان 2074.

كان ريتشارد ينظر إلى الشموع الحمراء التي تحترق في صمت، وكان يومئ برأسه، رغم أن إيماءه في تلك اللحظة لم يكن له معنى.

ثم قال رشيد: مكثنا خمسة أيام في الثكنة وكان هناك قصف جوي من الأوروبيين، وكنا خائفين من أن يعتقد المهاجمون أن المعسكر الذي كنا محبوسين فيه مخزن أسلحة، كان الطفلان في شدة الخوف، ولم أجد ما أشرح لهما به سبب عدم وجود أمهما معنا، بعد خمسة أيام أجبرونا على ركوب القارب، حوالي 800 شخص، كان زعير معنا أيضًا، قال القذافي وقتها: „الأوروبيون يقصفوننا بالقنابل وسوف نقصفهم بالسود، نحن نقصف أوربا بالسود".

بدا رشيد مرهقًا أكثر، مرهق لدرجة أن ريتشارد سأله إذا كان يريد أن يرقد قليلًا.

فقال رشيد: لا، لا، أنا لا أستطيع عادة النوم في الليل، لا توجد مشكلة. قفز أحدهم من القارب وحاول السباحة عائدًا إلى الساحل، لكنهم أطلقوا عليه النار وهو في الماء. كفى الطعام والماء لأول سبعة أيام على ظهر القارب، لم يكن لدينا الكثير، ولكن الكبار توقفوا عن الأكل والشرب كي نعطي ما تبقى للأطفال.

ثم تلفت البوصلة.

سرنا بالقارب ثلاثة أيام على غير هدى، لم يلحظ القبطان في الليل الصخور واصطدمنا بها، تلف المحرك وأصبنا بالهلع. ظل القارب يتأرجح في الماء لمدة يومين، لم نستطع توجيهه ولم نعرف إلى أين، خمسة أيام كاملة دون طعام أو شراب، كانت حالتنا جميعًا سيئة جدًّا، مات البعض، ومن بقوا على قيد الحياة خارت قواهم، كنت ضعيفًا جدًّا، ضعيفًا جدًّا، كنت أرى كل شيء غير واضح، وفجأة ظهر قارب الإنقاذ، كان هناك هرج ومرج، كان رجال الإنقاذ يريدون مساعدتنا وألقوا إلينا بزجاجات المياه والطعام وحاول الجميع التقاط أي شيء وبدأ القارب في التأرجح، وفجأة انقلب، بهذه البساطة، بين لحظة وأخرى، كل شيء حدث بسرعة، في غضون خمس دقائق لا أكثر مات المئات، المئات، كانوا يجلسون بجواري قبلها وكنت أتحدث إليهم.

فكر ريتشارد في أن عليه أن يقول الآن: توقف، توقف!.

لا أعرف السباحة ولكني وجدت حبلًا تمسكت به، وكنت أجدني أحيانًا تحت الماء وأحيانًا فوقه، كنت أرى كل الجثث تحت الماء.

سكت رشيد للحظة، ولم يكن على ريتشارد أن يطرح أي أسئلة، كانت شموع الإكليل ما زالت مشتعلة، والهرم مظلم وثابت في مكانه.

غرق تقريبًا 550 من الـ800، معظمهم لم يكن يجيد السباحة، ومن كانوا تحت سقف المركب لم يخرجوا بسرعة لأن المكان امتلأ بالماء بسرعة، حضر الصيادون بمراكبهم لإنقاذنا ولكن كان كثيرون قد ماتوا بالفعل، ولم تستطع سفن الإنقاذ الكبيرة الاقتراب منا بسبب المنحدرات، جذبنا الصيادون إلى قواربهم، كان الجميع يصرخ ويبكي، نحن والصيادون أيضًا، تم إنقاذ فتى ولكن والداه وأخوه غرقوا، كثيرون كانوا يبحثون عن أزواجهم، وزوجاتهم، الجميع كان يصرخ ويبكي.

وبعد أن قضينا أسبوعًا على اليابسة كنت أفزع ليلًا ظنًا مني أني ما زلت تحت الماء، نجت زوجتي يوم كنت أحاول إحضارها من العمل في طرابلس بهروبها إلى مكتب من مكاتب الأمم المتحدة، واضطررت إلى أن أحكي لها على الهاتف كل ما حدث، كنت أقف في كابينة هاتف في أجريجنتو، لقد انفصلت عني قبل عام، إنها تعيش الآن في كادونا ولديها زوج جديد، وهي حامل مرة أخرى. حتى اليوم ما زلت أتخيل أن أحد طفلينا يأتي إلى الباب.

وبعد لحظة صمت طويلة ظل الرجلان خلالها يحملقان إلى شاشة التلفاز السوداء وكأن هناك ما يتابعانه قال ريتشارد: هل يمكنك رسم البوابة التي كنت قد انتهيت من صنعها في ذلك اليوم؟.

فقال رشيد: نعم، أتعرف، هذا عملي.

ثم بدأ يرسم أولى الخطوط في نوتة ذات أوراق مربعة أعطاها له ريتشارد، وقال: أتعرف، القياس هو أول شيء يجب عليك أن تقوم به.

ثم رسم وعدّل ورسم، حتى اتضح لريتشارد كيف كانت البوابة تبدو، تلك البوابة التي كانت آخر عمل قام به رشيد كحداد، والتي بالتأكيد ما زالت تستخدم في قطعة أرض ما في ليبيا.

قال رشيد، الذي كان يسميه ريتشارد „مفرق ضربات البرق"، وكان محقًا في تسميته تلك: في النهاية أضع التصميم في الوسط، لو رأيتني وأنا أعمل، فسترى رشيد مختلف تمامًا، أتعرف، إن العمل بالنسبة لي أمر طبيعي مثل التنفس.

42

قبل يوم رأس السنة عادت الممرضة البولندية إلى عملها عند أنّا في برلين، حسب ما حكت أنّا ذلك لريتشارد.

قالت أنّا: رغم أنها كانت تود البقاء لبضعة أيام أطول لدى أسرتها في بولندا، ولكنك تعرف طبعًا أمي وعلي.

فقال ريتشارد: نعم، يالها من خسارة.

قالت أنّا: في الحقيقة كان عيد الميلاد لطيفًا، سأرسل إليك صورة.

وفي المساء وجد ريتشارد الصورة على الكمبيوتر الخاص به: على اليسار وإلى جانب شجرة عيد الميلاد تجلس أم أنّا ذات التسعين عامًا على كرسي متحرك واضعة غطاء على ركبتيها، وتميل رأسها بحيث يعتقد من يراها هكذا أنها تنظر من خلال نظارتها السميكة ببهجة إلى علي الذي كان يجلس على يمين شجرة عيد الميلاد، كان علي يبتسم، تبدو الصورة سلمية، صورة سابقة الإعداد لعيد الميلاد مع الملك الأسود القادم من الشرق، صورة سلمية مثل كافة صور احتفالات أعياد الميلاد الألمانية

الأصيلة التي لا تختلط بها أجناس أخرى، حيث لا يرى المرء فيها قبل أو بعد الضغط على ذر التصوير إلا القليل بشأن ما تم السكوت عنه أو ما تم التشاجر بشأنه قبل التصوير.

كتبت أنّا في الرسالة الإلكترونية إلى ريتشارد أنه حينما سألت علي ذات مرة لماذا يتحدث الألمانية جيدًا هكذا، أجابها قائلًا: "إن اللغة الألمانية بمثابة جسر إلى هذا البلد"، "لقد قال حقًا جسرًا إلى هذا البلد"، قالت أنّا" "إنه موهوب للغاية، في ظروف أخرى كان لا بد أن يدرس الطب منذ زمن".

في الأسبوع ما بين عيد الميلاد والسنة الجديدة عادت مونيكا ويورج من إيطاليا؛ قاما بدعوة ريتشارد وديتليف وسيلفيا لتناول القهوة، لكي يرياهم صورهم ويحكيان عن فلورنسا، حكيا عن برج جيوتو وعن تمثال داود الجميل لمايكل أنجلو ومغارات الميلاد المبنية في كل مكان في الكنائس: مشاهد كاملة، كما هو الحال في نماذج السكك الحديدية! حكيا عن الطعام: مطعم به أربعون صنفًا مختلفًا من الجبن الموتزاريلا!، كما حكيا عن احتفال عيد الميلاد ذاته الذي نظمه الفندق بصورة رائعة: ولا يتطلب ذلك إلا القليل من العمل! سلاسل الأضواء التي تتزين بها كافة الشوارع: وهناك يشعر المرء حقًا بالدوار! أشجار عيد ميلاد ضخمة مزينة بشكل يفوق الخيال! ومع ذلك، كما قالا، يوجد كثير من الأفارقة في كل مكان، ثم قالا: "قمنا باستئجار سيارة لنتجه إلى آريزو، كان يورج يريد بصورة ملحة أن يرى

اللوحات الجدارية بييرو ديلا فرانشيسكا، قمنا بجولة جميلة بالسيارة خلال توسكانا، وفكرنا أن نأخذ خصيصًا إحدى الطرق التي تمر بالمناظر الطبيعية، وكانت هناك ثلوج على الطريق، ولكن تعرفون، كان هناك نساء إفريقيات يقفن على حافة الطريق ويقدمن أنفسهن، في وسط هذا المكان الريفي الطبيعي، حيث لا أحد يمر، بأحذية ذات عنق طويل وسترات قصيرة، يقفن في هذا الصقيع، في وسط الثلوج، وكان عددهن كبيرًا! كان هذا الأمر مريعًا نوعًا ما".

قالت سيلفيا - في أثناء ما كانت تمرر الحاسوب اللوحي وبه الصورة إلى زوجها -: لقد تعرف ريتشارد مؤخرًا على بعض اللاجئين الذين يحاولون الدخول إلى هنا.

فقال يورج ذو الشارب: حقًّا؟

وأضافت مونيكا: عليك توخي الحذر، حيث إنهم غالبًا يجلبون معهم أمراض التهاب الكبد الوبائي والتيفود والإيدز، هذا على الأقل ما سمعته.

قالت سيلفيا: إنهم رجال.

قالت مونيكا: حقا.

ولم يعلق ريتشارد، حيث إنه يركز في الشاشة التي أعطاها إليه ديتليف، حيث يرى المرء في هذه الصورة المعروضة أشكالًا

لنساء تبدو وكأنها تصطف على رقعة شطرنج، على أسطح ثلجية واسعة وهي تنتظر على جانب الطريق أو على قمم لتلال متدرجة بلطف، وقالت مونيكا، إنه لم يكن هناك عميل واحد في المنطقة كلها.

وكانت الصورة التالية تعرض واحدة من اللوحات الجدارية لآريزو: سيدة تقف وراء سيدة راكعة، وهناك ذيل أبيض طويل مثبت على ثوبها، والسؤال الذي تطرحه على الأخرى لا يمكن قراءته إلا من خلال وضعية يدها.

قال يورج: لم أكن أتخيل أبدًا أنني في يوم من الأيام سأذهب ببساطة هكذا إلى هذه الكنيسة، هكذا ببساطة!

وقالت زوجته مونيكا: إنها حقًّا حرية السفر.

في الأسبوع ما بين عيد الميلاد ورأس السنة عاد - أيضًا - عالم الآثار من زيارته لدى أسرة صديقته البالغة من العمر عشرون عامًا، وجلس عند ريتشارد على الأريكة وفي يده كوبًا من الويسكي.

ثم قال: تعالَ معي في ليلة رأس السنة إلى الحفل المقام عند صديقة ماري، وإلا سأكون أنا العجوز الوحيد.

- كيف كانت أسرتها؟

فرد قائلًا: صعبة، أعتقد أنهم يرونني شاذًا.

- إنها ابنتهم.

قال بيتر: الأب غيور على أي حال، والأم ربما كانت تتمناني لنفسها.

- إذًن فإنه من الأفضل أنهم بعيدون بعضهم عن بعض.

- نعم، بالتأكيد. ـ ثم أخذ بيتر رشفة أخرى.

- المهم أنكما تتفاهمان مع بعضكما جيدًا.

- أجل، معك حق، هل قررت الآن أن تأتي معي إلى الحفل؟

فقال ريتشارد: حسنًا.

في الأسبوع ما بين عيد الميلاد ورأس السنة عاد - أيضًا - أوزاروبو أخيرًا من إيطاليا.

دعاه ريتشارد إليه وعزف أمامه مقطوعة "الثلوج تتساقط بهدوء" وصاحبها بالغناء، بقدر ما يمكنه أن يغني، ثم غنى لا يزال صامتًا الحزن والكرب وترجم كلماتها لأوزاروبو، وقال: ينبغي أن يكون عيد الميلاد عيدًا للأصدقاء.

قال أوزاروبو: حسنًا.

- كيف كانت إقامتك في إيطاليا؟

فقال أوزاروبو: على ما يرام.

- أخبرني مرة أخرى، في أي مدينة كنت؟

- ميلانو.

فقال ريتشارد: جميل.

فقال أوزاروبو: على ما يرام، في مترو الأنفاق يقوم الإيطاليون ويجلسون في مكان آخر حينما أجلس إلى جانبهم.

تذكر ريتشارد أن أوزاروبو قد حكى هذا -أيضًا- في أول لقاء جمعهما.

- إنهم يعتقدون أنني مجرم، كل أسود مجرم.

- لا أعتقد هذا.

- بلى، ليس هناك فارق سواء كنا كذلك أم لا.

قال ريتشارد: ولكن هناك فارق، هل حصلت على الأقل على أوراقك؟

- أجل، في غضون ثمانية أسابيع يمكنني أن أستلمها.

- كيف إذَن عليك أن تذهب إلى هناك مرة أخرى؟

- نعم.

- كم يكلف هذا؟

- رحلة بالحافلة تكلف 100 يورو.

- إذً، ذهاب وعودة 200 يورو؟.

- نعم! ـ ثم علا صوت أوزاروبو، وقال: و80 يورو للتمغة.

- للمستند؟

قال أوزاروبو: نعم، وإضافةً إلى ذلك يحتاج المرء إلى عنوان إيطالي.

- ماذا يعني ذلك؟

- هناك أشخاص يعطون للفرد عنوانًا، وهذا يكلف 200 يورو إضافية.

- أشخاص يحصلون على أموال منكم؟

- نعم شباب أفارقة لديهم غرف، ولكن يجب عليَّ أن أعيش هناك -أيضًا- حتى الموعد، حيث إن هناك عمليات تفتيش تتم.

ود ريتشارد معرفة إذا كان قانون العرض والطلب قانونًا طبيعيًا.

وارتفع صوت ريتشارد قائلًا لأوزاروبو: هذا يعني أن المرء يحتاج إلى إجمالي مبلغ 680 يورو لرحلتي الذهاب والعودة والعنوان والرسوم؟.

- نعم.

- وماذا تأكل في هذا الوقت؟

هز أوزاروبو كتفيه.

- هذا يكلفك أكثر مما تحصل عليه هنا في شهرين للعيش.

- لقد انتهى "البيرميسو" في الربيع الماضي، ولكن لم يكن معي أي نقود.

- أي "بيرميسو"؟

- إنه تصريح الإقامة الإيطالي.

- وهل هناك حاجة إليه حقًا؟

- دونه لن يكون لدينا هوية، ودون البيرميسو لن يكون هناك تأمين صحي.

- هل أنتم مؤمن عليكم عن طريق إيطاليا؟

- نعم.

- مفهوم، إذًان لقد عشت لدى شاب إفريقي؟

- حتى الموعد.

- وبعد ذلك؟

فقال أوزاروبو: كل شيء على ما يرام ـ وأخذ يضرب على نغمات عميقة على البيانو، "الحياة مجنونة".

- هل نمت في الشارع؟

لم يُجب أوزاروبو، بلينج بلينج بلينج، الخامسات المتوازية ممنوعة بالفعل منذ 600 عام في التقليد الموسيقي الغربي.

والآن فقط خطر ببال ريتشارد أنه لا يزال لديه هدية عيد الميلاد لعازف موسيقى الشوارع المستقبلي: آلة الكيبورد، لقد كاد أن ينساها.

- أقدر ذلك كثيرًا.

وضعاه على منضدة المطبخ ووصلاه بالكهرباء ثم جرّبا أصوات الآلات المختلفة المسجلة على الكيبورد: الدرامز والبوق الإنجليزي والساكسفون أو الهارب.

قال ريتشارد: ويعمل - أيضًا - بالبطاريات.

- أوه، جيد جدًّا.

قال ريتشارد: وبهذه المفاتيح يمكنك أن تثبت لحنًا مستمرًا مثل تشا تشا تشا أو التانجو.

ومع الفاصل بين الفالس والمارش سمع أن أحدًا يقرع الباب: إنهما سيلفيا وديتليف اللذان قالا إن الفكرة واتتهما تلقائيًا بأن يزوراه.

- ما الذي يجري هنا حفلة رقص مع تناول الشاي؟

قال لأوزاروبو، حينما أدخلهما إلى المطبخ: إنهما سيلفيا وديتليف، أقدم أصدقائي، وهذا أوزا روبو.

وقف أوزاروبو وصافحهما، ولكن نظرته كانت حائرة هنا وهناك، حيث بدا الأمر وكأنه كان يفضل أن يكون في مكان آخر لا يأتي إليه اثنان غرباء مرة واحدة.

قال ريتشارد: استمر في العزف كما تشاء، سنجلس نحن في غرفة المعيشة ونتحدث قليلًا وبعد ذلك سأصطحبك إلى البيت.

قال أوزاروبو: لا، لا، على ما يرام، سأستقل المترو السريع.

- هل معك اشتراك شهري؟

هز أوزاروبو رأسه.

أحضر ريتشارد - في أثناء ما كان أوزاروبو يرتدي حذائه في الردهة - 60 يورو من حافظة نقوده؛ حيث إن ثمن أرخص اشتراك شهري 57 يورو لهؤلاء الذين لا يستقلون الحافلات أو القطارات قبل الساعة العاشرة صباحًا، يحصل المتلقون للإعانات الحكومية وطالبو اللجوء على تخفيض، ولكن ليس هؤلاء اللاجئون الذين لا يسمح لهم حتى التقدم بطلب لجوء، وضع ريتشارد في يد أوزاروبو ورقتين نقديتين وأعطاه حافظة بها آلة الكيبورد القابل للطي.

- هل تعرف الطريق؟

- نعم نعم. ـ ثم نظر أوزاروبو إلى الأرض وقال: باركك الرب.

- كل شيء على ما يرام.

حين عودته إلى غرفة المعيشة سأل ريتشارد صديقيه: كيف كانت ترانيم عيد الميلاد؟

لقد أعطاهما ريتشارد بطاقتي دخول بعد خيبة أمله تجاه السفر المفاجيء للشاب.

قالت سيلفيا: أخ، كانت جميلة حقًّا.

وقال ديتليف: لقد أدّوا النغم مع صدى الصوت بشكل رائع، وكانت المطربة الأخرى تقف على المدرج في شرفة صغيرة.

فقال ريتشارد: فكرة لطيفة.

43

تساقطت الثلوج في اليوم الذي سبق رأس السنة، قام ريتشارد بشراء ثلاثة سترات شتوية بألوان مختلفة ليهديها لكل من رشيد وأبولو وإيتمبا، حيث إن عيد ميلاد الثلاثة كما يعرف يوافق الأول من يناير، وحينما أراد أن يخطو إلى مدخل المنزل عبر الفناء ومعه حقيبة مشتروات كبيرة، وجد شخصًا يجلس على مقعد في الجو البارد، إنه النحيف، "كيف حالك؟"، " جيد"، "أليس الجو باردًا لكي تجلس بالخارج على مقعد هكذا؟"، "كنت أنتظرك"، كيف عرف النحيف أنه سيأتي اليوم تحديدًا عبر الفناء وهو لم يره منذ أسابيع؟ على أي حال.

- هل من الممكن أن أريك شيئًا؟
- بكل تأكيد.

أخرج النحيف من جيب سترته جواب استدعاء للشرطة، لإجراء تحديد الهوية.

سأل ريتشارد: ماذا حدث؟

- لقد قاموا بتفتيشي أمس في ميدان ألكسندر وقالوا إنني

لست الشخص صاحب الصورة.

- يبدو شكل الرجل في الصورة مختلفًا حقًّا. ـ ولكن ربما لم يكن النحيف نحيفًا كما هو الآن، قرأ ريتشارد الاسم: قارون أنوبو.

- هل اسمك حقًّا قارون؟

قال النحيف: نعم.

قسم شرطة وسط المدينة، حجرة 104، السيدة/ لوبكه، من الإثنين إلى الجمعة من الساعة 9 إلى 16، دون موعد مسبق، هذا ما كان مدونًا على الورقة.

قال ريتشارد: سأصطحبك إلى هناك بالسيارة.

المدينة مزدحمة، كما هو الحال دائمًا حينما تتساقط الثلوج لأول مرة في السنة في برلين، خطوط الترام متوقفة وأبوابها مفتوحة في أي مكان على القضبان، وقائدو السيارات يصرخون في أوجه بعضهم بعض، هنا وهناك يمكن سماع الصفير الحاد وبعد ذلك بقليل يُسمع دوي انفجار أحد الصواريخ؛ لأن هناك البعض الذين لا يستطيعون انتظار ليلة رأس السنة، ساعة ونصف استمرت قيادة ريتشارد مع قارون السيارة عبر برلين، من حي شبانداو إلى قسم الشرطة في وسط المدينة، إلى اليمين، إلى اليسار، إلى الأمام عبر الدوران، المخرج الثاني.

قال قارون: شكرًا على أنك أحضرتني إلى هنا، وإلا كنت اضطررت لشراء تذكرة.

- ألا تملك اشتراكًا شهريًا؟

- بطبيعة الحال أرسل 150 يورو إلى أمي وأختي وإخواني، ولكن في هذا الشهر أرسلت 50 يورو إضافية؛ لأن أخي أصاب نفسه بالمنجلة وهو يعمل في الحقل ووجب عليه الذهاب إلى المشفى.

- أشعر بالأسف، ولكن ألا يوجد أي شخص آخر يمكن أن يساعده؟

قال النحيف: ثقافة.

- ثقافة؟

- هذا يعني أن الأمر هكذا: يجب أن يرعى الابن الأكبر الأسرة.

بسبب زوجته كان ريتشارد ذات مرة عضوًا في أحد اللقاءات السرية لمدمني الكحوليات، وهناك - أيضًا - كان للرجال والنساء قصص مشابهة، دائمًا ما تبدأ عند نقطة بسيطة ثم تنتهي بمواقف صعبة، وهناك كانت قصة حيوان القداد المتسلل إلى وراء الدولاب الحائطي ولا يريد أن يخرج، ما أدى إلى تفكيك الدولاب كاملًا، وماذا وُجد في الرف الأسفل الذي لم ينظر إليه أحد منذ سنوات؟ زجاجات فارغة لا حصر لها تم إخفاؤها في فترة الإدمان، وبعد

ذلك وبشكل مفاجيء عاد العطش مجددًا.

تأتي المؤثرات غير المباشرة بصورة غير مباشرة، هذا ما فكر فيه ريتشارد كما كان دائمًا يفكر في الآونة الأخيرة.

- وما سن أخيك؟

قال النحيف: ثلاثة عشر عامًا.

مدون على خطاب الاستدعاء: "قسم شرطة وسط المدينة": من الاثنين إلى الجمعة من الساعة 9 حتى الساعة 16، دون موعد مسبق، وحينما وصلا، كان يوم الثلاثاء الساعة 15:25، "ولكن السيدة/ لوبكه لم تكن موجودة في هذا اليوم"، حسبما قالت السيدة عند نافذة الاستقبال، "ولمَ لا؟"، "لديها مهمة خارجية"، "ولكن مدون هنا: من يوم الإثنين إلى الجمعة من الساعة 9 إلى الساعة 16 دون موعد مسبق"، غضب ريتشارد، لدرجة أنه كان ينطق اختصار كلمة مسبق كما هي مدونة وأخذ يرفع صوته مركزًا على أحرف كلمة "مسبق"، "لقد قلت لك إن السيدة/ لوبكه ليست موجودة"، "والآن؟"، "عليك أن تأتي مرة أخرى"، "للأسف، وماذا إذا كان السيد/ أنوبو قد جاء إلى هنا بمفرده؟ من شبانداو؟ ذهابًا وإيابًا، منطقة "أ" و "ب"؟ يؤسفني ذلك كثيرًا"، لم تكن ضابطة الشرطة شاعرة بالأسف كثيرًا ولا حتى تشعر به بالمرة، هذا ما استطاع ريتشارد رؤيته، ولكن على أي حال السيدة/ لوبكه غير متاحة للحديث.

وحينما عادا إلى شبانداو مرة أخرى، كان الظلام قد حل، وبعد التخطيط للاحتفال مع الشباب الثلاثة بعيد ميلادهم لم يعد الآن ريتشارد في الحالة المزاجية المناسبة لذلك، فقد قرر في أثناء رحلة العودة أن يؤجل تسليم السترات الشتوية إلى العام الجديد، وقبل أن يدع النحيف ينزل من السيارة، جلسا لبضع دقائق بالسيارة وتحدثا.

إذا لم يكن في استطاعتي البقاء في ألمانيا بعد المقابلة الشخصية، إلى أين علي أن أذهب؟ أين يمكنني أن أجد عملًا في إيطاليا؟ وكيف أطعم أمي وإخوتي؟ أين يوجد في هذا العالم مكان يمكنني فيه أن أنام بطمأنينة؟

ثم قال قارون: إن المشكلة كبيرة جدًّا، ليس لدي زوجة وأطفال، إنني صغير، ولكن المشكلة كبيرة جدًّا ولها زوجة وأطفال كثيرون جدًّا.

سمع ريتشارد في الآونة الأخيرة أناسًا يقولون إنه على الأفارقة أن يحلوا مشاكلهم في إفريقيا، وسمع أناسًا يقولون إن هذا لَسخاء كبير أن تستقبل ألمانيا لاجئي حروب بهذا الكم، وفي ذات الوقت يقولون: "ولكنه لا يمكننا أن نطعم إفريقيا بأسرها هنا"، ويقولون إضافة لذلك: "لاجئو الفقر وطالبو اللجوء المزيفون يأخذون أماكن لاجئي الحروب الذين يأتون إلى ألمانيا بشكل مباشر في دور إيواء طالبي اللجوء". "من الأفضل أن تُحل

المشاكل في إفريقيا."

تخيل ريتشارد للحظة طويلة، كيف ستبدو مفكرة كل رجل من هؤلاء الذين تعرف عليهم في الأشهر الماضية.

في حين أن مفكرته هو سيكون مدونًا فيها على سبيل المثال:

"استدعاء فني لإصلاح غسالة الأطباق".

"عمل موعد مع طبيب المسالك البولية".

"قراءة العداد".

سيكون بدلًا من ذلك مدونًا في مفكرة قارون:

"التخلص من الفساد والمحسوبية وعمل الأطفال في غانا".

ولكن عند أبولو:

"رفع دعوى ضد شركة أريفا (فرنسا)".

"تعيين حكومة جديدة في النيجر، لا تتقاضى رشاوى من مستثمرين أجانب ولا تخضع للابتزاز".

"إقامة دولة أزواد المستقلة للطوارق (مناقشة مع يوسف)".

وعند رشيد سيكون مكتوبًا:

"مصالحة المسيحيين والمسلمين في الجزائر".

"إقناع بوكو حرام بالتخلي عن استخدام السلاح".

وأخيرًا يتعين على هيرميس، الأمي ذو الحذاء الذهبي، وعلي، الممرض المستقبلي، أن يتوليا أمر المهام التالية:

"حظر توريد السلاح إلى تشاد (الولايات المتحدة والصين)".

"حظر استخراج النفط في تشاد وإخراجه من البلاد (الولايات المتحدة والصين)".

سأل ريتشارد قارون: أخبرني، ما حجم قطعة الأرض في غانا التي يمكن أن تستخدمها أسرتك هناك لإطعام نفسها؟

فكر قارون للحظة وقال بعد ذلك: ثلث ميدان أورانيين تقريبًا.

- وكم يكلف هذا؟.

فكر قارون مرة أخرى وقال: أعتقد ما بين 2000 و3000 يورو.

في الصيف قبل سنة ونصف كاد ريتشارد أن يشتري لوح تزلج على الماء (1495 يورو)، ولكن قبل أن يقرر، جاء الخريف، وفي الصيف الماضي، بعد أن غرق الرجل في البحيرة ولم يظهر مرة أخرى، أصبحت فكرة شراء لوح التزلج بطبيعة الحال أبعد ما تكون بالنسبة له، في المقابل كانت فكرة شراء المكنسة الكهربائية ذاتية التنقل والحركة (799 يورو) بالتأكيد جيدة، وأيضًا جهاز العارض الضوئي لعرض الأفلام مساءً مع

صديقه أندرياس، الذي سيعود قريبًا من رحلة الاستشفاء، كان يمكنه أن يستخدمه جيدًا (1167 يورو)، وإذا كانت كريستل لا تزال على قيد الحياة، ربما كان من الممكن أن يتحملا معًا شراء كاميرا فيديو لعيد الميلاد (1545 يورو) أو كمبيوتر لوحي بسعة تخزينية كافية (709 يورو) يمكن حمله في الرحلات بطريقة أسهل من الكمبيوتر العادي ولكن كلها أمور يمكن أن يتنازل عنها بسهولة، في المقابل كان راسخًا في خطته أن يشتري في الربيع عربة لقص الحشائش من وضع الجلوس (999 يورو إلى 2999 يورو).

على كل حال كان ذلك حتى خمس دقائق مضت.

سأل ريتشارد: ما حجم أسرتك؟

- أمي وأختي ولي أخوان يصغراني.
- إذَن أربعة أشخاص؟
- نعم.
- وماذا يمكنهم زراعته في مثل هذه الأرض؟
- موز الجنة والكسافا.
- وبذلك يكونون مستقلين؟
- جزء من المحصول يمكن لأمي أن تبيعه أو تقايض به للحصول على أشياء أخرى تحتاجها، والباقي يظل للأسرة

لتأكله.

- وماذا رأيك، إذا اشتريت مثل قطعة الأرض هذه لك من أجل أسرتك؟

انتظر ريتشارد رد فعله، ربما في البداية لا يصدق، ثم بعد ذلك لا يستطيع التعبير من شدة الفرح، وفي النهاية يكون رد الفعل لإفريقي سعيد جدًّا هو القفز في الهواء من الفرح، ثم يعانق ريتشارد أو على الأقل ينفجر في البكاء من التأثر.

ولكن لم يحدث شيء من كل ذلك.

ظل قارون هادئًا جدًّا وجادًّا جدًّا وبدا وكأنه يفكر باجتهاد.

- على الأقل لن تكون قلقًا على أسرتك.

ولكن قارون لم يقل شيئًا.

- ما المشكلة؟

- سيستغرق الأمر عامًا حتى يمكن حصد المحصول لأول مرة.

كان قارون محقًّا.

ولكن ريتشارد فهم شيئًا آخر في هذه اللحظة: أن قلق قارون أثر عليه بشدة لدرجة أنه يشعر بالخوف حتى من الأمل في ذلك.

44

ثم جاء العام الجديد، كانت صديقات صديقة بيتر، وكن جميعًا في العشرين من أعمارهن، يرقصن ويشربن ويتحدثن عن قصات الشعر والفيلم الجديد المعروض في سينما "إنترناتسيونال"، وعن شارب مغنية بوب وعن الفرق الموسيقية التي لم يسمع عنها ريتشارد في حياته، وعن ريتشارد فاجنر -أيضًا- وهاري بوتر وكيركجارد وفيرجينيا فولف ورجال وسيمين والمتجر الكبير الجديد في ميدان ألكس، كان بعض الضيوف يتبادلون القبلات الساخنة وبعد فترة يدب بينهم الشجار، انهارت إحدى الفتيات قبل منتصف الليل في البكاء وجلست صديقتها الحميمة تُسَرِّي عنها وتحتضنها، أسرف أحد الشباب في الشراب وعندما أراد الخروج تعثر في عتبة الشرفة ووقع ونزف واحتاج في اللحظات الأخيرة من العام المنصرم إلى وضع ضمادة على أنفه، كم مضى من الوقت منذ كان ريتشارد في مثل تلك السن اليافعة؟ كان صديقه بيتر يتمتع بجسد رياضي، وكان يرقص مع صديقته، صاحبة الاسم الجميل ماري، على أنغام أغنية الملكات "نحن الأبطال"، وتساءل ريتشارد إذا كانت ماري تتسم فعلًا بهذا الود حتى أنها تعزف الموسيقى التي تذكِّر صديقها الذي يكبرها بثلاثين عامًا

بأيام شبابه، أم أن الأغنية تعجبها فعلًا.

عند منتصف الليل فتحوا زجاجات الشمبانيا وتعانق الضيوف وانطلقت الصواريخ ولوَّحوا بالشموع، في حين كان ريتشارد يقف وحده ويتساءل في نفسه: يالها من بداية للعام الجديد، لم يفهم أبدًا ما الذي يشعر به شخص في اللحظة الحاسمة عندما يقترب منه شخص ما لا يعرفه، قديمًا كان يحاول أحيانًا أن يركز في منتصف الليل على المستقبل الذي يبدو أنه حضر في تلك اللحظة، ولكن كيف يمكن للمرء أن يركز على شيء لا يعرفه؟ من سيموت؟ من سيولد؟ كلما تقدم في العمر أصبح أكثر امتنانًا لأنه -مثله مثل الآخرين- لا يعرف ماذا سيحدث.

وافق اليوم الأول من ذلك العام الأربعاء، لذلك حاول معظم موظفي مصلحة شؤون الأجانب في برلين أخذ أجازة ليومين حتى يكون لديهم عطلة ممتدة لمدة أسبوع تقريبًا، لم يرجعوا إلى أشغالهم إلا يوم الاثنين 6 يناير، وأداروا أرقام الأختام لتوافق العام الجديد، وأخذوا يكتبون على أجهزة الكمبيوتر أشياء مختلفة، وأرسلوا بعض الخطابات يوم الثلاثاء، يوم الأربعاء وصلت في شبانداو وفيدينج وفريدريشسهاين قوائم جديدة بأسماء 108 شخص ليتركوا يوم الجمعة 10 يناير البيوت التي كانت تأويهم حتى ذلك التاريخ، كي ينتقلوا مثلًا إلى ماجديبورج أو إلى بيت على عربة نوم في أطراف هامبورج أو إلى قرية جبلية في بافاريا، حيث تقدموا مصادفةً بطلبات لجوء قبل عامين

وهم جاهلين بالقوانين الألمانية والأوروبية، وحيث توجهوا من هناك إلى برلين كي يعترضوا على القانون الذي يحرمهم من تكوين حياة مستقلة أو حتى من أن ينتقلوا داخل ألمانيا في أثناء فحص طلبات لجوئهم، القانون هو دائمًا القانون وسيحتفل يوم الجمعة بداية من الساعة الثامنة بلحظة انتصاره الكبير، ورغم أنه لا يُسمح بإجبار اللاجئين على الانتقال إلى الأماكن المسؤولة عنهم في أماكن بعيدة، إلا أن القانون يعطي الشرطة الحق في إجبارهم على إخلاء الأماكن التي كانوا يسكنونها في برلين حتى تلك اللحظة.

قام رشيد بتصوير القائمة وإرسالها إلى ريتشارد، ضمت القائمة 12 من سكان شبانداو من بينهم عبد السلام، ذو النظرة الفضية، الذي كان يحاول تعلم القراءة والكتابة، وكذلك زعير، الذي جمعه مع رشيد قارب واحد، ونجا من انقلاب القارب فقط لأنه تسلق ظهر القارب عندما انقلب، وضمت القائمة -أيضًا- اسمًا كَرِهَ ريتشارد رؤيته فيها: أوزاروبو، عندها فقط فهم رشيد لماذا أصرت الحكومة على أن يذكر اللاجئون أسماءهم عند توقيع الاتفاق؛ لأنه لا يمكن ذكر اسم في مثل تلك القائمة إلا إذا كان معروفًا للسلطات، فقط عندما تكون الأسماء معروفة يمكن إعداد مثل تلك القائمة، قضى ريتشارد ليلة غير هادئة من الخميس إلى الجمعة واستيقظ قبل الخامسة، أين عسى أوزاروبو أن يذهب الآن؟

عندما وصل ريتشارد إلى شبانداو كانت توجد 20 سيارة من سيارات الشرطة أمام بيت اللاجئين وفي مرفأ السيارات، كان مدخل البيت مغلقًا بحواجز حديدية، وكان بعض اللاجئين يقف أمام تلك الحواجز على الرصيف، وكذلك بعض الأطفال والنساء، أخبره الحراس أنه غير مسموح له الآن بدخول البيت، وسألوه لمن يريد الدخول، إلى رشيد، وأشار إلى مفرق ضربات البرق، الذي رآه يقف في الفناء في وسط مجموعة من اللاجئين يتحدث ويحرك يديه في الهواء، "لا، اليوم ممنوع الزيارات"، وفي تلك اللحظة اكتشف رشيد وجوده وبدأ في الصراخ غاضبًا من أنهم يمنعون ضيفًا من الوصول إليه، وقال لهم إنه ليس في سجن هناك! وإنه ليس مجرمًا! لا يمكنهم منع صديقه من الوصول إليه! في تلك اللحظة نزل أول فريق من الشرطة من سيارتهم وهم في كامل عتادهم: ملابس الاشتباك والخوذات التي يغطي جزء زجاجي منها أعينهم وفي أيديهم عصي ومعهم مسدسات، كانت الأرض تقعقع عاليًا تحت أقدامهم وهم يمشون مشية عسكرية، ثم اتخذوا وضعية الاستعداد في صفوف من أربعة رجال في كل منها أمام بيت اللاجئين، وتساءل ريتشارد إذا كانوا فعلًا بحاجة لأربعين رجل بكامل عتادهم لإخراج 12 لاجئ إفريقي من مثل ذلك البيت، هذا بغض النظر عن حوالي 150 شرطي آخرين ينتظرون في سياراتهم لإشارة الانطلاق، كان ريتشارد يتوقع أن تكتب الصحف في اليوم التالي كم كلفت تلك المهمة، وأن التكاليف سيتحملها الشعب الذي كل أفراده محاسبون ماليون، فهذا ما كان

يحدث دائمًا عندما تقوم ألمانيا بنقل أي شخص آخر.

فكر ريتشارد في أن الحدود يمكن أن تصبح فجأة مرئية، يمكن أن تظهر فجأة في مكان ما حيث لم تكن موجودة قبل ذلك تمامًا، ما كان يحدث على حدود ليبيا أو المغرب أو النيجر يحدث الآن في منتصف برلين شبانداو، حيث كان دائمًا بيت ورصيف وحياة برلينية يومية أصبح يوجد فجأة حدود، خرجت من الأرض كزرع شيطاني فجأة، ظهرت كما يظهر المرض.

في حفلة رأس السنة حكى له صديقه بيتر، حين كانا يقفان في شرفة صديقة ماري وهما ينظران إلى ظلام العام المنصرم الذي كان سيتحول قريبًا إلى ظلام العام الجديد، حكى له أن شعب الإنكا لم يعتقد في أن مركز الكون نقطة وإنما خطًا يلتقي عنده شَطْرا العالم، هل كان ما رآه ريتشارد أمام بيت اللاجئين خطًا كهذا؟ وهل كان الأشخاص المتواجدون على جانبي الخط شيئًا يشبه شطري الكون، ورغم أنهم ينتمون بعضهم لبعض إلا أن فصلهم أمر حتمي؟ هل كانت الهوة بينهم عميقة لا قرار لها ولذلك تسببت في اهتزازات عنيفة؟ وهل كان الخط يسير بين الأسود والأبيض؟ أم بين الغِنى والفقر؟ أم بين أولئك الذين مات آباؤهم وبين الآخرين الذين ما زال آباؤهم على قيد الحياة؟ أم بين أصحاب الشعر المجعّد وبين أصحاب الشعر الناعم؟ أم بين مَن يسمون طعامهم فوفو ومَن يسمونه جولاش؟ أم بين مَن يفضلون ارتداء التيشيرتات الصفراء والحمراء والخضراء وبين

مَن يفضلون لف ربطة العنق حول أعناقهم؟ أم بين مَن يفضلون شرب الماء وبين أولئك الذين يحبون شرب الجعة؟ أم بين هذه اللغة وبين تلك؟ كم يوجد من حدود في داخل الكون الواحد؟ أو بصيغة أخرى، ما هي الحدود الحقيقية الحاسمة؟ ربما تلك الفاصلة ما بين الموت وبين الحياة؟ بين السماء بنجومها وبين كتلة الأرض التي تطل السماء عليها كل يوم؟ بين اليوم وبين الآخر؟ أم بين الضفادع وبين الطيور؟ بين الماء وبين الطين؟ بين الهواء الذي يحمل الموسيقى وبين الهواء الذي لا يحمل موسيقى؟ بين سواد الظل وبين الأسود سواد الفحم؟ بين فرع البرسيم ذي الأوراق الثلاث وبين الفرع ذي الأوراق الأربع؟ بين الفرو وبين الوبر؟ أم ملايين المرات بين الداخل وبين الخارج إذا اعتبرنا إنسانًا واحدًا أو حيوانًا واحدًا أو نباتًا واحدًا بمثابة كون؟ كان ريتشارد منسجمًا مع أعضائه، ويعيش في سلام مع اللحم النيء بداخله الذي يبقيه حيًّا، كما كان متعايشًا في سلام مع أفكاره حول جمال هيلينا أو مع الطريقة المُثلى لتقطيع البصل.

رأى ريتشارد أننا إذا راعينا كل هذه الحدود الممكنة فإن الفرق بين إنسان وآخر سيكون ضئيلًا بصورة مضحكة، وأنه لن يمثل هوةً تفصل الناس فجأة عند مدخل بيت اللاجئين، وأنه ربما لا يوجد على هذا المستوى من الكون اختلاف ولا شطران؛ لأن الأمر لا يتعلق سوى ببعض الأصباغ الملونة الموجودة في ما يسميه كل إنسان حسب لغته بشرةً، وبالتالي فإن العنف الذي بدأ يظهر هناك ليس بنذير عاصفة في مركز الكون وإنما عنف ينتج عن

سوء تفاهم غريب يقسم الناس إلى قسمين ويمنعهم من فهم أن أنفاس أي كوكب أطول كثيرًا من أنفاس أي شخص منهم، ما إذا كان المرء يرتدي بنطالًا وسترة من ملابس التبرعات، أو يرتدي بولوفر من ماركة عالمية، فستان غالٍ أو رخيص، أو يرتدي زيًا رسميًا وخوذة وغطاء واقيًا للعينين فإن المرء يكون تحت أي من تلك الملابس عاريًا، ولعله، إذا سار كل شيء على ما يرام، يكون قد استمتع عدة مرات بالريح أو بالثلج أو بالماء، ولعله أكل هذا الطعام الشهي أو ذاك، أو شرب هذا الشراب اللذيذ أو ذاك، ولعله أحب يومًا شخصًا ما، وربما أحبه شخص آخر مرة أخرى قبل أن يموت، ما ينمو في العالم ويسيل يكفي الجميع، رغم ذلك رأى ريتشارد أن ما يحدث هنا، بوجود عشرين سيارة شرطة، ما هو إلا صراع من أجل البقاء، هل الشرطة موجودة هنا فعلًا من أجل فقراء الألمان الذين لا يجدون ما يأكلونه في العيد سوى الإوز المشوي المسروق؟ فكر ريتشارد، أنهم بالأحرى ليسوا هنا من أجل أولئك، وإلا لكان من باب أولى سيرى عشرين سيارة شرطة أمام فرع بنك من البنوك، ورجال الشرطة يقومون بكامل عدتهم وعتادهم بالقبض على المدراء الذين اختلسوا المليارات، فكر ريتشارد في أن ما رآه هناك يشبه المسرح، وقد كان عرضًا مسرحيًا فعلًا إنها جبهة صناعية تخفي وراءها جبهة حقيقية موجودة فعلًا، الجمهور يصرخ طلبًا في مزيد من الضحايا والمصارعون يلبون النداء ويحملون حياتهم إلى داخل الحلبة، كيف ينسى المرء في برلين تحديدًا أن الحدود لا تقاس على حجم

العدو وإنما تصنعه أيضًا؟

صرخ فيهم رشيد أن هذا يكفيه، وأنه سيشعل كل شيء، وسيهدم البيت، سيحطم الأثاث، سيدمر السقف، كان رشيد يصرخ بأمور كتلك وهو داخل الفناء، في حين كان ريتشارد يقف بالخارج ويستمع كيف يتشاور مدير البيت ومساعدته حول ما إذا كان الوقت قد حان لمنع ذلك الرجل الذي فقد أعصابه من دخول البيت، ثم تحرك طابور من أربعين شرطي مدجج بالسلاح وفي خطوة منتظمة اتجهوا نحو رشيد ولكنهم انعطفوا قبل أن يصلوا إليه في اتجاه المبنى الأمامي الذي كان يعرف ريتشارد أنه لا يوجد به لاجئون وإنما فقط مكاتب موظفي الإدارة، وبعد دقائق عادوا إلى حيث أتوا مرة أخرى وبنفس الخطوة المنتظمة، ثم سألت عضوة مجلس الشعب، التي كانت قبل فترة قريبة هنا في البيت، ريتشارد: "أين رشيد؟"، لم يلحظ قبلها أنها كانت تقف بجواره، كان يعرف مثلها أين ذهب الرجل الغاضب، فقد مسح رجال القوات الخاصة ما كان موجودًا بالمشهد كما تمحو الممحاة ما هو مكتوب على السبورة، ولم يعد أحد يرى مفرق ضربات البرق، فقال لها إنه لا يعرف، فقالت: "ولكنه مصاب بمرض عضال في القلب، أشعر بالقلق عليه"، وتذكر ريتشارد أن رشيد أثناء الاجتماع في بيت المسنين كان يحمل حول معصمه ضمادة مكتوب عليها شاريتيه، يومها تعجب ريتشارد وظن أنه اسم مؤسسة خيرية تحمل نفس اسم مستشفى برلين الضخم شاريتيه.

فسألها ريتشارد: هل يخضع للعلاج هنا؟

نعم، كان يجب أن يخضع لعملية جراحية قبل ثلاثة أشهر، ولكنه هرب من غرفة الإعداد للعملية كي يرعى قومه، ومنذ ذلك الحين ينتظر موعدًا جديدًا.

فقال ريتشارد: يمكننا الاتصال به.

فقالت: ولكن الشبكة مقطوعة منذ صباح اليوم، لقد حاولت ذلك بالفعل.

- أي شبكة؟
- الشبكة التي يستخدمها جميع اللاجئين في اتصالاتهم.

فقال ريتشارد: تحديدًا اليوم، هذا أمر غريب.

فقالت: نعم، أمر غريب بالفعل.

وفجأة حضر يوسف، غاسل الصحون من دورة اللغة التي كان يدرس فيها ريتشارد للتلاميذ المتقدمين، ولم يكن ريتشارد قد رآه منذ فترة طويلة، كان يصرخ بكلمات باللغة الفرنسية ثم بالإيطالية وكذلك بعض أنصاف الكلمات بالألمانية: اللعنة، دعونا وشأننا، وكان يلكم كل من يحاول محادثته، وضرب ريتشارد -أيضًا- عندما ذهب إليه وحاول تهدئته، كان يصرخ: "يكفيني هذا"، واستدار حول نفسه مثل شخصية رامبيل ستيلتسكين

الأسطورية ووجه حديثه لرجال الشرطة، ولكنهم لم يدعوا شيئًا يخرجهم عن هدوئهم، وضعوا أمامه حائطًا من دروعهم وحسب، تذكر ريتشارد كم كان يوسف سعيدًا بتعلم كلمة غاسل الصحون، وتذكر كيف قال إنه يود أن يصبح مهندسًا، اليوم أصبح مجرد شخص هائج لو لم يهدأ سريعًا فسيلبسونه سترة المجانين وينقلونه.

بعد فترة ظهر رشيد مرة أخرى في الفناء، لم يكن يصرخ ولا يزمجر، كان يبدو مجهدًا فقط، قال الحراس إن بإمكانه طبعًا الخروج من البيت، وهكذا خرج إليهم في الفناء الأمامي.

وقال: يبدو الأمر سيئًا اليوم، سيئًا جدًّا. ـ وصافح عضوة مجلس الشعب وريتشارد ولم يفته أن يسألهما: "كيف حالكما".

فرد ريتشارد بحكم العادة: بخير.

وقالت هي أيضًا: بخير.

- إنهم يعاملوننا كالمجرمين، ولكن ماذا اقترفنا؟

هز ريتشارد كتفيه.

أخرج رشيد هاتفه الصغير من جيب بنطاله وضغط على بعض الأزرار.

- الهاتف ما يزال لا يعمل.

- نعم، لاحظنا ذلك أيضًا.

- هل ستأتون بعد ذلك إلى المظاهرة؟ سنسير من ميدان أورانين إلى مبنى الحكومة".

أومأ ريتشارد وعضوة مجلس الشعب برأسيهما.

ثم ذهب رشيد إلى يوسف الذي كان لا يزال يتحدث إلى الحائط الذي يقف وراءه الشرطيون وكان يشير بأصبعه السبابة إليهم بقوة وكأن وراء تلك الأقنعة يختبئ تلاميذ شديدو العناد، ربت رشيد على كتفه بود عدة مرات وقال له: "كل شيء على ما يرام، كل شيء على ما يرام"، ركل يوسف مرة أخرى الحاجز الحديدي الذي وضعوه صباح ذلك اليوم، وسب ولعن رجال الشرطة المتحصنين وراء دروعهم وهو يستدير عائدًا للبيت.

سأل ريتشارد مفرق ضربات البرق عندما عاد إليهما: هل اسمه - أيضًا - على القائمة؟.

- لا، ولكن كل ما يحدث هنا يضغط على أعصابه، روفو - أيضًا - كان في المصحة النفسية في فترة عيد الميلاد.

فقال ريتشارد: فعلًا، يا إلهي.

- نعم، وهو الآن بالخارج ولكن حالته ليست جيدة.

- ماذا به؟

- لم يعد يستطيع الأكل، إنه لا يستطيع أو لا يريد فتح فمه.

شعر ريتشارد للحظات بأنه أصيب بحالة من الهلع، هل وصل الأمر هنا إلى وضع لا يمكن إنقاذه؟

سألت عضوة مجلس الشعب: ولكن أين الرجال الاثنا عشر؟

- بعضهم رحل بالأمس والباقون سيأتون حالًا.

سأل ريتشارد: هل سيتركون البيت طواعية؟.

- هل عليهم أن يقاتلوا مجددًا؟ إنهم رجال جاؤوا إلى هنا هربًا من الحرب.

ثم حضر الرجال وعلى ظهورهم حقائبهم وفي أيديهم حقائب أو أكياس بلاستيكية، مشوا مرورًا بسيارات الشرطة الكثيرة جدًّا في اتجاه محطة الحافلات، ولكن لم يكن بينهم أوزاروبو ولا زعير، صافح عبد السلام، المغني، ريتشارد وعضوة مجلس الشعب مودعًا قبل أن يلحق بالآخرين، لقد أرضوا غرور القائمة.

45

التظاهر مسموح به في ألمانيا من حيث المبدأ.

ولكن هناك ثلاثة أسئلة مهمة:

1. من الذي سيقوم بإخطار السلطات بالتظاهر؟
2. ما هي المسافة التي ستقام عليها المظاهرة؟
3. ما هو الشعار؟

من سيقوم بإخطار السلطات بالتظاهر يجب أن يكون لديه بطاقة تحقيق شخصية ألمانية، وهذا من النادر وجوده في حالة لاجئي الحرب من ليبيا، أحد الألمان المتعاطفين، وهو طويل القامة وأصلع الرأس، كان واقفًا في مكان ما في الخلف، أعطى بطاقة هويته من أجل تسجيل المظاهرة، "إلى أين تريد أن تتجه؟"، قال رشيد: "إلى مقر الحكومة"، بعد عشر دقائق مضت كان الناس يأتون من هنا وهناك ويقولون لريتشارد: "لا فائدة، الجمعة بعد الظهر لم يعد أحد من الحكومة في مكتبه"، أتت إليه عضوة مجلس الشعب وقالت إنها سمعت بأنه لا أحد يتمكن من الدخول إلى المبنى بأي حالة من الأحوال، كل ما هنالك هو

الوصول إلى حرم المبنى، جاء المسؤول عن الحركة قائلًا: "إذا أردتم الاتجاه إلى بوابة براندنبورج، فإنه يتعين غلق طريق آخر"، قال رشيد: "لماذا بوابة براندنبورج؟"، "هذا ما قاله الشخص الذي قام بتسجل المظاهرة، ذلك ذو الرأس الأصلع هناك"، "أي شخص أصلع؟ لم أره قط في حياتي"، مرت عشر دقائق أخرى، قال رشيد: "إذا لم نتمكن من الوصول إلى مقر الحكومة، سنتجه بالمسيرة إلى السفارة الأمريكية"، وسأل رئيس العمليات: "وماذ الآن؟ أجل إلى السفارة الأمريكية"، ها هو رشيد ذهب إلى الخلف وتحدث مع الأصلع وناقشه، ومرت عشر دقائق أخرى، ذهب الأصلع إلى رئيس العمليات وقال له: "سأسحب تسجيلي"، قال المسؤول: "إذا لم يكن هناك أحد معه بطاقة هوية وعنوان، فإنه لا يمكن أن تتم المظاهرة"، قال ريتشارد: "ها هي بطاقة هويتي"، جاء ظابط شرطة آخر قصير القامة، لدرجة أنه يبدو قزمًا بجوار رشيد، وسأل: "ما شعار المظاهرة؟"، علا صوت رشيد مناديًا من فوق الرؤوس: "نريد أن ننطلق"، أما القزم الذي سأل عن الشعار، فلم ير ولم يسمع شيئًا، وسأل القزم مرة أخرى: "ما هو الشعار؟"، "نريد أن ننطلق!"، "هل هذا هو الشعار؟" قال رشيد: "لا"، ثم صاح: "لا نريد أن ننتظر أكثر من ذلك!"، سأل القزم: "هل هذا هو الشعار؟"، قال رشيد: "لا"، القزم: "دون شعار لا يمكن تسجيل المظاهرة، ودون تسجيل لا يمكن البدء في غلق الطريق"، قال ريتشارد: "ألم يبدأ بعد الغلق؟"، فقال القزم: "لا، لا يجوز دون شعار"، ومرت عشر دقائق أخرى، قال

ريتشارد دون أن يفكر كثيرًا: "الشعار هو العالم ضيف على الأصدقاء"، وبعد أن نطق بالشعار خطر بباله أن هذا كان شعار المهرجان العالمي للشباب عام 1973، أو بطولة كأس العالم لكرة القدم في عام 2006؟ ثم جاء رئيس العمليات إلى ريتشارد وقال: "هل أنت من قام للتو بتسجيل المظاهرة؟"، قال ريتشارد: "نعم"، "ولكن لا يمكن أن تسيروا نحو السفارة الأمريكية، أعتقد أن هذا الأمر واضح بالنسبة لك؟"، سأل ريتشارد: "ولِمَ لا؟"، قال رئيس العمليات بشكل طبيعي: "منطقة محظورة"، وسأل زميله القزم: "ما هو الشعار الآن؟"، فقال القزم: "العالم ضيف على الأصدقاء"، قال رئيس العمليات: "حسنًا، سيستغرق الأمر على الأقل ثلاثين دقيقة، حتى يتم غلق طريق المسيرة"، سأل رشيد باللغة الإنجليزية: "ماذا يقول؟"، وقام ريتشارد بالترجمة قائلًا: "بعد خمس دقائق ستنطلق"، قال رشيد: "حسنًا"، ثم نادى على أتباعه الذين كان بعضهم في نقاش حاد مع الشرطة، في تلك الأثناء كان رئيس العمليات واقفًا على الجانب الآخر من الطريق إلى جانب سيارته ويتحدث في جهاز اللاسلكي، أخذ رشيد ينادي باللغة الإنجليزية: "سنبدأ! سنبدأ!"، فصاح رئيس العمليات مرة أخرى قائلًا: "لا لا يجوز هذا، عليك الانتظار"، وجاء رئيس العمليات مسرعًا، أما ريتشارد، الذي ترجم بشكل خاطئ حتى يهديء رشيد، فقد تبين له أن خدعته جاءت بأثر عكسي، صاح رئيس العمليات مرة أخرى: "لا يجوز هذا!"، ثم غادر المكان مرة أخرى، ثم بدأ رجال الشرطة يقومون بعمل

صفوف مستقيمة جميلة، لا يمكن أن يجتازها المتظاهرون، ولا تزال سيارات تمر من خلفهم على الطريق الذي كان قبل مئات السنين كوبري، صاح رشيد في وجه رئيس العمليات قائلًا باللغة الإنجليزية: "سيعاقبك الرب!"، أما رئيس العلميات الذي كان من الواضح ولحسن الحظ أنه لا يفهم اللغة الإنجليزية أخذ يقول: "لقد قلت لهم إن الطريق يجب أن تكون خالية أولًا"، كان يدور في ذهن ريتشارد أن الأمر كاد أن يكون معجزة إذ لم يفقد أحد الرجال الأفارقة الصبر، سيعاقبك الرب! ولكن ربما لا ترغب الشرطة -أيضًا- في أي معجزة، قالت عضوة مجلس الشعب إن رشيد مريض قلب حقًا وأنها قلقة عليه، وذهب ريتشارد إلى رشيد وقال: "لا تتحدث عن الرب يا رشيد، وإلا سيعتقدون أنك إرهابي"، ولكن رشيد لم يسمعه مطلقًا، وأخذ يصيح قائلًا لرجال الشرطة: "لسنا مجرمين!"، قال ريتشارد: "لقد أوشكت على الانطلاق"، ولكن مفرق ضربات البرق كان مشغولًا لدرجة أنه لم يسمعه مطلقًا وهو يقول باللغة الإنجليزية: "عليكم بتغيير القانون!"، فقالت عضوة مجلس الشعب: "إذا استمر ذلك طويلًا سننهار"، رأى ريتشارد أن أحد الأفارقة يرفع يده ويقول باللغة الإنجليزية للشرطي الذي أراد أن يدفعه للخلف: "لا تلمسني!"، ورأى ريتشارد كيف أن أحد رجال الشرطة من قوات احتواء التصعيد يستمع بود لأحد الأفارقة كما تعلم في تدريبات احتواء التصعيد رغم أن الرجل كان يسبه، ورأى ريتشارد كيف أن أحد المتعاطفين من الشباب يرفع لافتة صنعها بنفسه ومكتوب عليها:

"يجب أن يعيش المثليون والمثليات في كينيا مرفوعي الرأس"، وحتى هذا الوقت كان قد مرت ساعة ونصف الساعة بعد الموعد المخطط له، ثم لاحظت عضوة مجلس الشعب وكذلك ريتشارد كيف أن بعض الأفارقة يتدافعون أمام رشيد وبدأوا في هز قبضات أيديهم، مثل أبولو وتريستان وإيتمبا الطويل، الذين كانوا طيلة الوقت مسالمين للغاية، أخذوا في الصياح قائلين باللغة الإنجليزية: "نريد أن نبقى!"، أو: "لسنا مجرمين!"، أو: "أعطونا مكانًا!"، وبعد فترة وجيزة فهم ريتشارد وكذلك عضوة مجلس الشعب أن أصدقاء رشيد أرادوا على الأقل لبضع دقائق أن يحلوا محله، أخذوا يصيحون ويهزون قبضات أيديهم ويقولون إنه يجب أن يكون هناك قائد، حتى لا يخرج الاحتجاج عن السيطرة، في حين أن الشرطة واصلت تأجيل بدء المظاهرة، في تلك الأثناء تمكن رشيد من الارتياح لبضع دقائق خلف الخطوط، إنه صديق، صديق جيد، وهذا هو أفضل ما يكون في هذا العالم، بعد ساعتين ونصف الساعة من الموعد المعلن عنه بدأ التحرك أخيرًا، شعر ريتشارد -أستاذ اللغات القديمة المتقاعد والذي قام لأول مرة في حياته بتسجيل مظاهرة وأعطاها الشعار- بسعادة بالغة حينما رأى الرجال يسيرون بسلام والشرطة، التي منعتهم طويلًا، تسير معهم بصفوف مقاربة لتأمين الشارع، من يرى المسيرة من المارة يعتقد أن الشرطة واللاجئين متوافقون بشكل تام، رافق ريتشارد المسيرة لمئتي مترًا حتى ميدان موريتس ومنه ذهب ليستقل مترو الأنفاق ليذهب إلى بيته.

46

سمع في نشرة الأخبار المسائية أن مجموعة لاجئي ميدان أورانين الذين تم إيواؤهم في فريدريشسهاين قد احتلوا منذ الثامنة بالأمس الطابق العلوي من بيتهم اعتراضًا على قرار طردهم من برلين وأن بعضهم قد اعتلى السطح وهدد بالانتحار قفزًا، وقالوا إنهم أخلوا وأغلقوا باقي طوابق البيت.

عندما وصل ريتشارد في اليوم التالي إلى بيت اللاجئين في شبانداو لم يجد سوى رشيد في غرفته، كان راقدًا في فراشه ولكنه أشار لريتشارد بيده ليدخل: «كيف حالك؟»، «نعم، الآخرون في فريدريشسهاين ليدعموا الأصدقاء»، وقال إنه قد فاض به الكيل، ثم رفع كيس بلاستيكي شفاف مليء بعلب الأدوية.

سأله ريتشارد: أتعرف أولئك الرجال المعتصمين فوق السطح؟

فقال: بالتأكيد، كنا جميعًا معًا في ميدان أورانين، ليس لديهم ما يخسروه.

- كيف يمكن أن تسير الأمور؟

- لا أعرف، لقد حاولت ثلاث مرات في الأسابيع الثمانية

الماضية أن أحدث وزير الداخلية شخصيًا، من رجل لرجل، ثلاث مرات.

- وماذا حدث؟

كان في اجتماعات أو غير متواجد، حتى أننا طلبنا كتابيًا موعدًا، ولكنه لم يرد أبدًا

وفكر ريتشارد أن ترك مفرق ضربات البرق ينتظر من أهم دروس الدبلوماسية، أب مقتول وطفلان غرقا لا يمنحون لشهادة تخرج في علم الاقتصاد أو العلوم الاجتماعية قيمة، ومجموعة من اللاجئين لا يكونون شعبًا، وقائد يبحث عن مصالح من يمثلهم ليس برئيس دولة، الأمر العملي في القانون هو عدم وجود شخص قام بسنه وبالتالي لا يشعر أحد بالمسؤولية الشخصية عنه، عندما يريد سياسي اليوم تغيير شيء في القانون يمكنه أن يحاول ذلك، ولكن السياسي الذي لا يريد تغيير أي شيء فإنه ينجح أيضًا وربما حصل على بريق أكثر.

قال ريتشارد: ربما كان من الأفضل تنظيم فعالية للاعتراض أمس في شبانداو.

فقال رشيد: لقد فكرنا في ذلك، ولكن يوجد هنا الأطفال.

فقال ريتشارد: أفهم، ثم سكت طويلًا.

وفي فترة الصمت تلك انغلقت عينا رشيد ونام.

جلس ريتشارد بعض الوقت بجواره، كما كان يجلس قبل سنوات بجوار أمه حين كانت لا تزال تتنفس، ثم قام وخرج مغلقًا الباب بهدوء.

في طريق العودة اتصلت به أنّا وقالت: هل سمعت بالرجال الواقفين فوق السطح معترضين؟

فقال: نعم. ـ فقالت: أحد اللاجئين تبول من أعلى المبنى والجميع مغتاظون جدًّا لفعلته، هل سمعت بذلك؟

فأجاب بالنفي.

ما أجمل رائحة الثلج عندما يسقط في الشتاء، ثلج طازج يغطي أوراق الشجر الذابلة، منذ عشرين عامًا يفتح باب الحديقة عندما يعود إلى المنزل ويستنشق بعمق الهواء النقي، مر على تلك الحديقة عشرون شتاء، وفي كل مرة يكون الهواء عليلًا هكذا كان يفتح الباب ويغلقه وراءه.

كان ريتشارد يعرف أنه أحد الأشخاص القليلين في هذا العالم الذين يمكنهم اختيار الواقع الذي يريدون المشاركة فيه.

قرأ في الجريدة أنهم قطعوا الماء والكهرباء عن محتلي السطح بعد يوم واحد، رأى ريتشارد صورة رجل يقف فوق السطح فاتحًا ذراعيه ورجليه وكأنه خيال مآتة، كان السطح زلجًا بسبب الثلج والجليد وكان الموقف يبدو خطرًا، كما يقول التعليق تحت

الصورة، تساءل ريتشارد إذا كانت لسرعة سقوط شخص علاقة بانهيار سمعة دولة، لماذا يعد قفز لاجئ من فوق السطح أسوأ من تركه يموت ببطء في حياة بائسة؟ ربما لاحتمالية وجود مصور عند سقوطه ليلتقط صورة، أم أن الفضيحة تكمن في أن هؤلاء الرجال يودون اتخاذ قرار موتهم بأنفسهم بدلًا من أن يتركوا بلدًا، لا تريدهم على أي حال، تستمر في التحكم في حياتهم التي أصبحت مستحيلة؟ هل السؤال عن السلطة في تقرير المصير ما زال في الأساس سؤالًا عن السلطة ذاتها؟ هل الأكثر نبلًا أن تتحمل سهام المصير الغاضب ورماحه، أم أن تحمل سلاحك في وجه بحر من المتاعب، وتنهيها عبر المقاومة؟

كتبت إحدى الصحف الألمانية مقالًا مرحًا في الإنترنت عن اللاجئين المتواجدين على السطح، قرأ ريتشارد: في برلين توجد دائمًا أحداث مهمة، أين ينتهي الاعتراض ويبدأ الابتزاز؟ وللحظة فهم خطأ أن المقصود بالابتزاز هو أسلوب الشرطة التي حاولت بقطع الماء والكهرباء إجبار اللاجئين على مغادرة المبنى، ولكن اتضح له سريعًا أن الذين يخاطرون بحياتهم هم من يوصفون هنا بالمبتزين، أثنى قراء الصحيفة على المقال واشتكوا كلهم في تعليقاتهم من أن اللاجئين وحدهم من لهم حق الوقوف فوق السطح والتهديد بالانتحار وبالتبول من أعلى أيضًا.

إنه أول شخص يتبول من أعلى مبنى في ألمانيا!

فكر ريتشارد في كلمة «أول شخص»، أليس محقًا في ذلك بعد ثلاث سنوات من الهروب والانتظار.

هل رأيتم يومًا قادة «مشهد اللاجئين» وداعميهم يقومون بعمل منتظم ويمثلون قيمًا؟ أنا لم أر ذلك.

رأى ريتشارد أن منعهم من العمل واتهامهم في نفس الوقت بعدم العمل يمثل في حد ذاته فكرة وقحة.

كما وصف مقال تلك الجريدة المهمة ما سماه الجهاز المركزي لألمانيا الجديدة، ووصف حياة وعمل المتعاطفين الذين أقاموا معسكر تضامن أمام المبنى: إنهم يغنون ويرقصون ويتسولون، إن الرجال فوق السطح هم ربما ضحايا هؤلاء المتعاطفين، إنهم يستغلونهم لتحقيق أهدافهم السياسية، لكنهم يفتقدون للذكاء والرؤية كي يفهموا ذلك، تذكر ريتشارد الشاب الذي رآه في المظاهرة وكان يحمل لافتة: يحيا المثليون والمثليات القادمون من كينيا! وبالفعل ريتشارد، وكذلك القراء الآخرون لتلك الصحيفة الألمانية المهمة الذين يقرؤونها وهم جالسين في بيوتهم الدافئة على الإفطار وأمامهم التوست والشاي وعصير البرتقال والعسل والجبن، كانوا يرون فعلًا أن مستقبلًا قاتمًا يحيق بألمانيا إذا وصل هؤلاء الداعمون إلى تولي ديوان المستشار الألماني بمساعدة اللاجئين والشباب الذين يحركهم عنفوان الشباب والجهل السياسي ويقفون فوق الأسطح يبولون.

47

سعد ريتشارد بوصول رسالة من قارون قطعت عليه قراءة تلك التعليقات الكئيبة.

كتب النحيف: أهلا، كيف حالك؟

فرد عليه: بخير، وأنت؟

ثم فهم أن النحيف لديه موعد مقابلة في إدارة المنطقة.

فكتب ريتشارد: هل لديك شخص ليصطحبك إلى هناك؟

فرد قارون: No body.

لقد كتب فعلًا ليس لدي جسد بدلًا من nobody لا يوجد لدي أحد، وجعل ذلك ريتشارد يفكر دون قصد في الأموات الذين يقومون بعطلة، كثيرًا كان يفكر في أن كل الرجال الذين عرفهم هنا كان من الممكن أن يكونوا جثثًا هامدة في قاع البحر المتوسط أيضًا، كما كان يفكر في المقابل في أن كل الألمان الذين قُتلوا في أثناء الحكم النازي ما زالوا يسكنون كأشباح ألمانيا، كان يفكر في أن المختفين -أيضًا- وأولادهم وأولاد

أولادهم الذين لم يولدوا يسيرون بجواره في الشارع ويذهبون للعمل ولأصدقائهم ويجلسون دون أن يراهم أحد في المقاهي، ويتنزهون، ويتسوقون، ويزورون المتنزهات والمسارح، ذهب، يذهب، ذهابًا، كان يعتقد دائمًا -دون أن يدري سبب ذلك- أن الخيط الفاصل بين الأشخاص والأشباح رفيع جدًّا، ربما لأنه كان يمكن أن يضيع في غوغاء الحرب ويسقط إلى مملكة الموتى.

وعندما جلس بعدها بقليل مع قارون وحدهما في ردهة طويلة في إدارة المنطقة ينتظران أن ينادى عليهما إلى الغرفة 3086 سأل: كيف يتم شراء قطعة أرض في غانا؟

انتظر قارون حتى مرت موظفة خرجت من أحد الأبواب ترتدي حذاء عالي الكعبين وتحمل تحت ذراعها كومة من الملفات ثم قال: في القرية يعرف الجميع مالك قطعة الأرض وربما من كان يملكها قبل ذلك؛ لأن في القرية يعرف الجميع بعضه بعضًا منذ الميلاد، ويجب أن يعطي الملك موافقته على البيع.

- الملك؟

- نعم، ثم يحضرون ثلاث شهود ليشهدوا توقيع العقد، ويحكي هؤلاء الشهود لأبنائهم عندما يكبرون من هو مالك الأرض، وعندما يموت الوالدان يعرف الأبناء مالك الأرض.

- أي أن الشهادة تتوارث؟

- «نعم.

- «وكيف تعرفون مساحة الأرض الفعلية؟

- «إنهم يقولون ذلك وحسب: من تلك الشجرة مثلًا حتى تلك الصخرة أو البيت أو النهر، الشهود يحفظون ذلك.

فقال ريتشارد: سل إذا كان هناك قطعة أرض في قريتك بالمساحة المناسبة لعائلتك.

وفي تلك اللحظة انفتح باب الغرفة 3086 ونظر موظف منه ونادى: أنوبو، قارون؟

بعد يومين وصلت ريتشارد صورة قطعة أرض أرسلها صديق لقارون؛ الكثير من الخضرة، وأرض طينية هنا وهناك، وفي الخلفية بعض الأشجار، وفي المقدمة لافتة مكتوب عليها بالفحم: أرض للبيع، السعر: 12000 سيدي غاني، وتحته رقما هاتف، ولم يكن العقد القديم الذي أرسل صورة منه -أيضًا- أطول من ثلاثة أرباع صفحة تقريبًا مثل اتفاق الحكومة مع مجموعة ميدان أورانين، الحدود مشتركة مع أرض كوامي بواتنج والحسن كينجسلي وسارو مكامبو، هل توجد قطعة الأرض هذه فعلًا؟ أين تقع القرية أساسًا؟ وما هي قيمة السيدي؟

ثلاثة من الشهود على العقد القديم وقعوا عليه ببصمة أصابعهم التي غمسوها في حبر بنفسجي، تذكر ريتشارد عندما قرر

وزوجته بعد عدة سنوات في أعقاب سقوط السور أن يبيعا قطعة الأرض التي كانوا يؤجرونها طوال فترة ألمانيا الشرقية.

كان بعض جيرانهم منشغل بقضايا مع ما يسمى بالمالك القديم، أي الأشخاص الذين كانوا يملكون تلك الأراضي حتى هروب عائلاتهم من المنطقة التي احتلها الروس، ولكن التشريع في ألمانيا الموحدة كان -كما اتضح لمواطني ألمانيا الشرقية بسرعة- يبني على آخر وقت كان فيه الشرق خاضعًا للنظام الرأسمالي، أي عام 1945، وكان هذا واضحًا من منظور الملكية؛ لأن الفترة بين 1945 و1990 كانت تتسم بمحاولة فاشلة لتغيير علاقات الملكية، لذلك استعادوا سجلات الملكية من عام 1945 وبنوا على الملكيات المسجلة في نهاية الحرب، وأحيانًا عند الضرورة كانت تقام قضايا حول الملكيات في الوقت التالي.

في لغة الكمبيوتر توجد عملية مشابهة تسمى: الرجوع أو undo، وتلك الكلمة أدهشته منذ زار أول دورة لتعلم الكمبيوتر، undo وكأن المرء يمكنه أن يدير عجلة الزمان للخلف، وأن يجعل خبرات عاشها كأن لم تكن، وكأن المرء يمكنه أن يقرر ما يجب نسيانه وما لا يجب نسيانه، أو يبرمج ما له تبعات وما ليس له تبعات، لم يسمع ريتشارد وزوجته حتى ما يسمى بعام التحول 89 كلمة سجل العقارات من قبل؛ لأنه لحسن حظهم لم يكن مالك قطعة الأرض التي كانت لهما ممن هربوا إلى الغرب لا قبل ولا بعد بناء السور، بقي في الشرق وحسب، وكان سعيدًا لبيع قطعة

الأرض لمن يستأجرها منذ سنوات، وأنه سيمول خريف حياته بذلك المال في البلد الغريب الذي أصبح بلده، كان على ريتشارد وزوجته تقديم بيان بمفردات المرتب للحصول على قرض وكان عليهما فتح حساب ضمان، كما بحثا عن موثق عقاري للتأكد من صحة العقد، استغرق ذلك عدة أسابيع وحتى بعد نقل الملكية -كما يسمونها- كانت تصلهما فواتير كثيرة تتعلق بعملية الشراء، وكان عليهما سدادها أولًا حتى يصبح البيع ساريًا من الناحية القانونية،

والآن أصبح ريتشارد يستعد لشراء قطعة أرض لثاني مرة في حياته ولكن هذه المرة في غانا 10000 مترًا مربعًا في مقابل 3000 يورو في منطقة أشانتي الخصبة والغنية بالأمطار، وهذا الثمن يعد مقارنة بضواحي برلين هدية، كم سيستغرق الوقت حتى تنتقل ملكية مثل هذه الأرض إلى مالكها الجديد؟ وكما تمنى ريتشارد من قبل أن يوافق البنك على منحه القرض الذي طلبه كله، أصبح يتمنى الآن أن يوافق ملك غاني على البيع، تخيله ريتشارد كزعيم قبيلة يحمل رمحًا ويلف أساور من الريش حول قدميه، وكان يعرف -أيضًا- أن الملك إذا كان قويًا حقًا فإنه بالتأكيد يرتدي فانلة فريق بارشلونة.

وافق الملك، وهكذا ذهب ريتشارد إلى وسط المدينة بالمترو في يوم غائم من أيام برلين في منتصف شهر يناير وفي جيب معطفه 3000 يورو، أوراق من فئة المائة يورو، وكان قارون قد

أخبره بأن الدفع يجب أن يكون نقدًا، ثم سار مع قارون لمسافة في الشارع عبر الثلج الذي بدأ يذوب، كانت إشارة المشاة حمراء ثم تحولت إلى اللون الأخضر، أبواق سيارات، ثم ظهر متجر «يانصيب» وبعده متجر هواتف محمولة رخيصة وبعده مطعم «دونر» وبعد ناصيتين دق قارون باب متجر مغلق ومسدلة ستائره، انفتح الباب ودق جرسًا معلقًا، بالتأكيد يوجد هذا الجرس منذ كان هنا متجر جزار أو خباز، ثم عبرا عتبة الباب، ولكن ماذا يوجد بالداخل وأين الخارج هنا؟

كانت الغرفة ضبابية من الدخان حتى أن ريتشارد استطاع بصعوبة رؤية أي شيء، كانت توجد ضفائر معلقة في عصي في كل مكان، وفي أوعية خشبية رأى ثمارًا غريبة مكومة بعضها فوق بعض، بعضها له أشواك، وبعضها له قشرة شفافة، بعضها يشبه البيض، وأخرى تشبه اللحم، كانت الثمار موضوعة وكأنها مرصوصة حول مذبح، ولكن في منتصف الغرفة كانت تجلس إفريقية مبعثرة الشعر على كرسي ذي ثلاثة سيقان، وأمامها مشمع على الأرض به فتحة تخرج منها أبخرة، هل يوجد بالأسفل مخبأ القنابل الذي اكتشفوه؟ كان شباب وشابات يجلسون صامتين مستندين إلى الجدران الملصق عليها أقمشة ملونة يحركون الهواء بجريد نخل جاف كبير في اتجاه المرأة الجالسة، أم لعلهم كانوا يوزعون تلك الأبخرة في الغرفة حتى يمكن رؤية أي شيء؟ تحدث قارون مع أحد الرجال في حين كانت المرأة مبعثرة الشعر تجلس شبه مغمضة العينين وتتأرجح للأمام

والخلف، ثم ترجم قارون لريتشارد ما شرحه له الرجل للتو: يجب على ريتشارد إعطاء النقود للمرأة.

فسأله ريتشارد: وكيف؟

فقال له: هكذا وحسب، ضعها في حجرها.

أخرج ريتشارد المظروف الذي به النقود من جيب معطفه الداخلي ووضعه في حجرها، ودون أن تفتح عينيها أخذت المظروف كما هو دون أن تعد النقود وألقت به في تلك الفتحة.

فزع ريتشارد وقال: «النقود!»، وحاول التقاطها، ولكن قارون منعه وقال له: «لا توجد مشكلة».

- هل سأحصل على الأقل على إيصال؟

وعندها بدأت المرأة في الضحك حتى ظهرت أطراف أسنانها المذهبة، ولكنها أبقت عينيها شبه مغمضتين وهي تضحك، ولم تنظر إلى ريتشارد.

أخرج أحد الرجال علكة من جيبه ثم نزعها من لفافتها ووضعها في فمه وكتب على ظهر اللفافة رقم قصير ورقم طويل ثم أعطاها لقارون.

فسأل ريتشارد عن تلك الأرقام.

فقال قارون: كان ذلك كل شيء يمكننا الذهاب الآن.

إذن فقارون يعرف النظام هنا جيدًا، لم يكن للحظة ذلك اللاجئ وإنما رجل كأي رجل آخر، ثم دق الجرس مرة أخرى كما كان يدق في أيام ما بعد الحرب عندما كانت تغادر ربة منزل متجرًا بعد أن تتم عملية التسوق، دق الجرس الآن بعد أن اشترى ريتشارد قطعة أرض.

ثم سأله ريتشارد: والآن؟

- الآن سأتصل بأمي وأخبرها بالأرقام.

- ثم؟

- ثم تتصل أمي بالرقم الأول في تيبا وتخبرهم بأنها ستأتي لأخذ النقود.

- ثم؟

- ثم تسافر لمدة ساعة إلى ميم، ثم بسيارة أجرى مجمعة لمدة ساعة إلى تيبا، ربما تضطر للانتظار حتى يأتي عدد كافي من الركاب لسيارة الأجرة، أي ربما يستغرق الأمر ثلاث ساعات، ثم تحصل بالرقم الثاني على النقود في تيبا.

- ثم؟

- ثم تأخذ سيارة أجرة مجمعة من تيبا إلى ميم ومنها تسافر عائدة إلى القرية.

- تسافر وفي حقيبتها 3000 يورو عبر غانا؟

- نعم، لا يوجد بنك بالقرب منا هناك.

- حسنًا، وماذا بعد ذلك؟

- ثم تحضر شهودها الثلاثة وتخبر الرجل الذي يبيع قطعة الأرض، ثم يذهبون إلى أحد البيوت وتعطيه المال.

- ثم؟

- ثم يوقع كلاهما على العقد وتصبح الأرض ملكًا لنا.

جلس ريتشارد وقارون ثلاث ساعات في أحد المقاهي ينتظرون أن تجد امرأة عجوز في قرية في غانا شخصًا يقلها إلى ميم كي تبحث في ميم عن سيارة أجرة تنقلها إلى تيبا وأن تجد في تيبا المتجر الذي سيعطونها فيه 12000 سيدي غاني بعد أن تخبرهم بالرقم الذي يتكون من خمسة أعداد، إذن فالمرأة مبعثرة الشعر لم تلقِ بالنقود عبر الفتحة إلى مخبأ القنابل وإنما عبر أقصر طريق يمر بالقشرة الأرضية المنحنية يصل مباشرة إلى غانا، وتذكر ريتشارد مقالًا قرأ فيه عن تصور وجود الثقب الدودي، ومؤداه أن الدودة التي تثقب التفاحة تصل إلى الجانب الآخر منها في وقت أقصر من الدودة التي تدور حولها من الخارج.

- ماذا تريد أن تطلب؟

فقال قارون: لا أعرف، أنا لم أجلس من قبل في مقهى.

- لم تجلس أبدًا في مقهى؟

فقال قارون: لا! جلست مرة واحدة في مطعم في إيطاليا لأنه كان عليَّ أن أنتظر، فأحضروا لي قائمة الطعام، ولم أكن وقتها

أستطيع قراءتها، لذلك قمت ومشيت مرة أخرى.

في البداية كان المتجر في تيبا مغلقًا، لكن كان يوجد متجر آخر، ولكن لم يكن فيه أحد، ولكن شخص جاء، وسار كل شيء بنجاح، أعطى قارون لريتشارد الهاتف فقال: ألو! ـ فقالت امرأة عجوز في غانا: كيف حالك؟

قال قارون: هذه هي الجملة الوحيدة التي تعرفها أمي بالإنجليزية، إنها سعيدة جدًّا وأرادت أن تشكرك بنفسها.

وفي نفس المساء وصلت ريتشارد صورة لعقد شراء قطعة الأرض الجديد، مكتوب فيه أن قارون أصبح المالك الجديد لقطعة الأرض في غانا، وقعت الأم ببصمة إبهامها عقد شراء الأرض لابنها الأكبر، ومنذ كان ريتشارد يحمل النقود في جيب معطفه الداخلي في صباح ذلك اليوم وصولًا إلى اللحظة التي أصبح فيها صديقه قارون يمتلك قطعة أرض تؤمن لعائلته النجاة، لم يمر أكثر من أربع عشرة ساعة.

في الصباح أرسل قارون رسالة نصية قصيرة: «أهلا يا ريتشارد، أردت أن أسأل كيف حالك، يا ريتشارد؟ لا أعرف كيف يمكن أن أشكرك، الله وحده يعلم ما بقلبي، ولكن كل ما يمكن أن أقوله هو: يحرسك الله ويرعاك يا ريتشارد، أتمنى لك صباح جميل كل يوم، قارون».

وفكر ريتشارد في أن المرء لا يمكن أن يتمنى أكثر من صباح جميل كل يوم.

48

أخيرًا انطلق ريتشارد متوجّهًا إلى وسط المدينة لكي يشاهد ماذا يحدث في فريدريشسهاين، فمنذ أسبوع يحتلّ اللاجئون الطابق الأخير من النُّزُل والسطح أيضًا، وحتّى الآن لم يتم السماح لأي منظمة إغاثة بالدخول لإمداد أولئك الرجال بالطعام والشراب، هناك الكثير من المتعاطفين، أناس من ذوي البشرة البيضاء، وأيضًا من ذوي البشرة السوداء، من الشباب وكبار السنّ، والرجال والنساء، وعلى مدّ البصر لم يرَ ريتشارد في تلك اللحظة أحدًا يغنّي، أو آخر يرقص، أو ثالثًا يلقي كلمة يحاول من خلالها القيام بوساطة لحلّ الموقف، البعض يتبادل القفز مرّة على رجله اليُمنى، ومرة على رجله اليُسرى، ولكن ليس هذا لأنّهم يجدون متعة في ذلك، وإنّما من شدّة البرودة، تريستان، ويحيى، وموسى، وأبولو، وكذلك خليل، ومحمّد، وزعير، وطويل القامة إيتمبا، جميعهم يقف مباشرة عند خط الحدّ الفاصل لمنع الدّخول، وكانوا ملتفّين حول برميل أشعلوا بداخله نارًا لتدفئة أيديهم.

وعلى سطح النُّزُل لم يكن يُرى أحد، وكان رجال الشرطة يقفون أمام الحواجز التي يغلقون بها الشارع، في حين يسير المارّة في

الجزء الضيّق المتبقّي من رصيف الشارع وهم يهمهمون بكلمات اللعن والسباب التي لا يعرف أحد إن كانت موجّهة إلى اللاجئين، الذين يعتبرون مسئولين عن تلك الحالة من الغيظ والغضب، أم أنّها موجّهة إلى هذا الحضور الشرطي المبالغ فيه، وفي تلك الأثناء قال زعير: "نعم، شبكة الهاتف عادت ثانية على ما يرام"، ولكن بطاريات الهواتف المحمولة التي كانت بحوزة اللاجئين كانت جميعها خاوية منذ يوم أمس، وذلك لأنّه لا توجد كهرباء داخل المبنى حتّى يتمكنوا من شحنها، وهنا سأل أحدهم: "إذَن لا توجد لديكم أي وسيلة للتواصل مع هؤلاء الناس؟"، "لا".

بعد وقت قصير جدًّا لن يكون لديهم حتّى ما يشربون، حيث إن الماء مقطوع عنهم بالداخل، كانت تلك هي إجابة تريستان، بينما كان ريتشارد يفكّر في أنّ هذا الوضع يشبه كثيرًا الوضع على متن أحد المراكب التي أقلّت هؤلاء الرّجال من ليبيا إلى هنا، غير أنّه من غير الممكن أن يدلي أحدهم من داخل المبنى زجاجة بلاستيكية إلى الأسفل للحصول على الماء، حتى ولو كانت مياه بحر مالحة، ظلّ ريتشارد واقفًا لفترة عند ذلك البرميل، ولكنّه رأى بعد ذلك روفو.

كان روفو، قمر مدينة فيسمار، يجلس على أحد مقاعد الحدائق المبتلة، حيث لم يتم إزاحة الثلوج من عليها، حتّى روفو نفسه كان مكتسيًا بالثلوج التي تهطل من السماء، وظلّت بقايا الثلج عالقة بشعره ومعطفه، ولكونه يجلس في هدوء تامّ بدا وكأنّه

تمثال أثري.

- روفو؟ كيف حالك؟

حاول روفو أن يرفع رأسه لكي يرى ريتشارد، ولكنّ شيئًا ما أعاقه عن ذلك.

جلس ريتشارد أمامه القرفصاء، وبدأ ينفض عنه الثلج، ولكن روفو ظل يحملق أمامه، ويتحدث إلى نفسه بصوت منخفض، يصعب فهمه.

سأله ريتشارد: ماذا هناك؟ ماذا تريد أن تقول؟

رد روفو بالإيطالية: انتهى كل شيء، انتهى كل شيء.

ريتشارد: كلا يا روفو، كلا، لم ينتهِ كل شيء بعد، سترى، سيصبح كل شيء على ما يرام.

فقال روفو شيئًا بلغة غريبة لم يفهمها ريتشارد.

ريتشارد: روفو، هل تريد أن تأتي معي؟

ولكنه نظر أمامه في صمت.

فقال ريتشارد: هل تريد أن تقرأ الجزء الثاني من كتاب دانته؟

ظل ينظر أمامه في صمت.

ريتشارد: أطهو لك شيئًا، ونأكل سويًا.

فرد روفو بالإيطالية: نعم.

فقال ريتشارد: هل ترى؟ سيصبح كل شيء على ما يرام.

حاول ريتشارد أن يساعده على النهوض، وبدأ روفو يتحرك ببطء مثل رجل عجوزٍ، وكان يحرك قدمًا ثم يحرك الأخرى، ويتحرك من مكانه متكأً على ريتشارد، الذي يسنده في مشيه.

ثم قال ريتشارد مواسيًا روفو ليستكمل مشيه: لقد اقتربت المحطة.

جاهد روفو، لينظر أمامه، ولكنه عندما استوعب أنه لن يكون عليه ركوب سيارة ريتشارد، بل سيكون عليه أن يركب المترو، هز رأسه رافضًا، وتوقف عن المشي.

ثم قال ريتشارد: هل هذا كثير عليك؟ هل تفضل أن تبقى هنا؟

فقال روفو: نعم.

أعاد ريتشارد العجوز الشاب ذا الأربعة وعشرين عامًا إلى الأريكة التي كان يجلس عليها.

ثم قال ريتشارد: روفو، هل تأخذ أي أدوية أو عقاقير؟

فأدخل روفو يده في جيبه ببطء شديد وأخرجها حاملًا ورقة

مطوية على حبة دواء صفراء.

ريتشارد: ما هذا الدواء؟

روفو: لا أعرف.

ريتشارد: كيف لا تعرف هذا؟

ونظر أمامه في صمت.

ريتشارد: لن تأخذ هذا الدواء مرة أخرى يا روفو، أتفهم؟

روفو: نعم.

ريتشارد: سأمر عليك غدًا مبكرًا في الدار، وستريني العلبة الخاصة بهذا الدواء، هل اتفقنا؟

أومأ روفو بالموافقة.

ثم سأله ريتشارد: هل يهتم بك أصدقاؤك؟

روفو: نعم.

فذهب ريتشارد إلى الآخرين ليسألهم عن روفو، فقالوا إنهم لم يريدوا تركه وحيدًا في الدار، فحالته متردية للغاية.

ريتشارد: هل تعيدوه معكم؟

فردّوا بالإيطالية: بالطبع.

استمع روفو لنصيحة دكتور ريتشارد ولم يأخذ حبة الدواء الصفراء التي كان يحملها في جيب بنطاله، وفي اليوم التالي ظهر أكثر انتباهًا، واستطاع أن يحرك رأسه بطريقة أفضل، ورأى ريتشارد وحيّاه، ودوّن ريتشارد اسم الدواء من على العلبة؛ لأن النشرة الخاصة بالدواء لم تعد موجودة بالداخل.

قرأ ريتشارد في المنزل عن الأعراض الجانبية للدواء: اضطرابات في الصوت، انسداد في مجرى التنفس، صعوبات في النطق، صعوبات في البلع، كحة مصحوبة ببلغم، التهاب رئوي قد ينتج عن دخول بعض الطعام إلى مجرى التنفس.

لماذا جال في خاطر ريتشارد الآن مقطوعة "الكنتاتا الشعبية" لباخ؟ ربما لأن يوسف، الذي كان يريد أن يصبح مهندسًا، والذي أصابته لوثة عقلية، يقف أمام دار الإيواء ويصرخ بصوت عالٍ: "لدي ما يكفيني! يا إلهي، أريد أن يخلصني الله من قيود جسدي، يا إلهي، هل يكون وداعي هنا، كنت أدعوك بكل سعادة دنيتي، لدي ما يكفيني"، ثم استكمل ريتشارد قراءة الأعراض الجانبية: عدوى فيروسية، التهاب في الأذن، التهاب في العينين، التهاب في الأمعاء، التهاب في الجيوب الأنفية، التهاب في المثانة، التهابات تحت الجلد، إثارة غير طبيعية لكهرباء القلب، ويعود ليسمع يوسف: "النوم يداعب عينيها الذابلة، يسقط بنعومة عليها، أيتها الدنيا، لن أبقى هنا أكثر من ذلك، فأنا ليس لي نصيب فيك، تستطيع أن تتحمله الروح"، هبوط حاد في ضغط الدم عند

الوقوف، انخفاض في ضغط الدم، شعور بعدم الاتزان عند تغيير وضع الجسم، اضطراب في ضربات القلب، دوار، ضعف القوة، ضعف العضلات، آلام في العضلات، آلام في الأذن، آلام في الرقبة، سلوك غير طبيعي، "عليَّ أن أبني البؤس هنا، ولكن هناك، هناك سأرى السلام الجميل، الهدوء"، شكوى من آلام بالصدر، تهيج الجلد، اضطرابات في المشي، فقدان الشهية، فقدان الاتزان، اضطرابات في الكلام، شعور بالقشعريرة، شعور غير طبيعي، حساسية مفرطة تجاه الضوء، "يا إلهي، متى يأتي الخير: قريبًا!، حيث إنني سأذهب حيث السلام، في رمال الأرض الباردة، لأستقر في حجرك؟ لقد حان وقت الوداع، وداعًا أيتها الدنيا!"، شعور بالخدر في الوجه، واليدين، والرجلين، اضطراب في الكلام، سكتات دماغية، حركات لا إرادية للوجه، واليدين، والرجلين، طنين في الأذن، إغماء، فقدان الوعي، "أنا أتطلع لموتي، هل حضر أخيرًا، عندها فقط أكون قد تخلصت من كل العوز والحاجة، التي تكبلني على هذه الأرض".

ماذا كان يقول روفو عندما كان متجمدًا تحت الجليد: "لقد انتهى كل شيء".

تردد ريتشارد كثيرًا قبل أن يفعل ذلك، ولكنه في النهاية اتصل بيورج، ذي الشارب، زوج مونيكا، الطبيب النفسي، ليسأله عن هذا الدواء فقال له:

هذا الدواء لا نَصِفُه عادة إلا لكبار السن المصابين بالهلوسة أو فرط الحركة، الذين يهاجمون زملاءهم من النزلاء في دور المسنين، أو لا يعطونهم فرصة للراحة ليلًا.

فقال ريتشارد: ولكنه كان هادئًا دائمًا.

يورج: قد تكون عنده انتكاسات.

ريتشارد: ولكن هذا الدواء هو السم بعينه.

يورج: ولكنه لا يزال يأخذه، أليس كذلك؟

ريتشارد: أحيانًا.

يورج: ماذا؟ هل تريد القول، أنك أوقفت الدواء؟ ما بين يوم وليلة؟ هذه ليست بفكرة جيدة.

أخذ ريتشارد في شرح الموقف ليورج، الذي قال فجأة: آآآآه، إنه زنجي، الآن فهمت.

ريتشارد: ما الفارق.

يورج: هنا يصبح الوضع سهلًا للغاية: هؤلاء الرجال يؤمنون بوجود إله الطب! كل ما عليك عمله هو أن تقوم بالرقص حوله في دائرة مرتين أو ثلاث مرات، ويكون بهذا قد تم علاجه! ـ ثم بدأ يورج في الضحك بطريقة هستيرية بعد أن أتم كلمته.

تذكر ريتشارد كم مرة سافر مع يورج ومونيكا خلال العطلة؟

كانوا يسافرون في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا مقسمة دائمًا إلى المجر، ثم بعد ذلك إلى فرنسا وأسبانيا؟ كم مرة جلس إليهما ليحتسوا النبيذ سويًا، وكم مرة جلسوا لينتقدوا هذه الحكومة أو تلك، قاموا بجولات سويًا، أو ذهبوا لزيارة المتاحف؟ يستطيع الطبيب أن يكون في خدمة الإنسانية جمعاء، ولكنه في النهاية يقرر أن يخص بخدماته جماعة بعينها، فعلى سبيل المثال قام طبيب يدعى دكتور تالير، قبل مائتي عام في فيينا، وبإذن من الإمبراطور فرانس، بسلخ جلد أحد النيجيريين الذي يدعى سليمان بعد وفاته، الرجل الذي كان قد أنقذ أمير لوبكوفيتس في إحدى المعارك وفداه بروحه، زنجي اسمه سليمان، نزع عنه جلده، الرجل الذي ربى أمير ليشتنشتاين، الزنجي الذي يحمل اسم سليمان، نزع عنه جلده، قام بنزع الجلد عن الرجل الماسوني التابع لجماعة "الوفاق الحقيقي"، وهو الزنجي الذي يحمل اسم سليمان، قام بسلخ جلد أخي موزار وشيكاندر الماسونيين، والذي كان الضامن للعالم إيجناتس من بورن كي يقبلوا انضمامه لتلك الجماعة الماسونية، سلخ جلد رجل متزوج من فيينا متمكن من ست لغات، والذي تزوجت ابنته لاحقًا ببارون فويشترسليبين، والذي كان حفيده في ما بعد في القرن التاسع عشر معروفًا بنظمه للشعر، قام بسلخ جلد الرجل الذي كان يحمل اسم سليمان صاحب المكانة العليا في المجتمع النمساوي، والذي كان في وقت سابق مجرد طفل إفريقي، قام بسلخ جلد رجل زنجي يحمل اسم سليمان كان قد ظهر في بداية حياته في سوق الرقيق وتم

مقايضته مقابل حصان ثم تم بيعه بعدها في مسينا: خلاصة القول، سلخ جلد رجل كان عبدًا في الماضي ينتمي للطبقة الدنيا، وبعد أن سلخ الجلد قام بدباغته وفرده على قطعة من الخشب، رافضًا كل توسلات ابنته بأن يعطيها جلد والدها لتدفنه معه في قبره، وقاموا بعرضه في صندوق عرض في الدور الرابع في القاعة المخصصة للمعروضات الطبيعية لإسعاد الجمهور النمساوي بمشاهدته وقد تم حشوه مثل جلود الحيوانات، أما التنورة المصنوعة من الريش والتي كُتب تحت التمثال أنها تنتمي للهنود الحمر السكان الأصليين لأمريكا الجنوبية، بخلاف الحقيقة، فقد أعطت للتمثال مظهرًا لطيفًا.

فكر ريتشارد لبرهة في ما رآه في إحدى فترينات العرض داخل المتحف المصري بمصر، حيث شاهد الأثري هاينريش شليمان، مرتديًا رداء مصارعي الثيران أو زي منغولي مصنوع من جلد الخرفان والحرير، كان من الممكن وصف المصريين وقتها بالهمج لمثل هذا الأمر، أما في فيينا، فقد تم استخراج جثمان الرجل النبيل المتوحش من قاعة العرض، ليس من أجل دفنه، ولكن لكي يتم نقله إلى المستودع ليتم تخزينه هناك، حيث علته الأتربة وقارب على أن ينساه الجميع، حتى اندلعت النيران في رفاته أثناء الثورة الشعبية في عام 1848.

توجد طيور سوداء، فلماذا لا نقبل بوجود بشر سود؟ تلك الجملة المقتبسة من أوبرا "الناي السحري" التي لطالما استخدمها

ريتشارد في محاولة لشرح إمكانية تقبل الفروق بين مختلف ألوان البشرة، لذلك لم يدهشه بالمرة ما ثبت له من خلال مناقشة عادية حول أحد المرضى من النيجر، مَن هنا في ألمانيا يستطيع أن يقول أنه صديقه ومَن لا.

لا يحمل روفو بطاقة تأمين صحي صادرة من إيطاليا، لأن تصريحه قد انقضى، وكان مريضًا منذ عدة أيام، فلم يتمكن من السفر إلى إيطاليا لاستخراج التمديد الخاص به.

كما لا يملك روفو كذلك بطاقة تأمين صادرة من ألمانيا؛ لأنه لا يحق له أن يصبح لاجئًا فيها، ومن أجل أن يقوم مكتب الخدمة الاجتماعية باستصدار تصريح لعلاجه من الآلام المزمنة التي يعاني منها، عليه أولًا أن يقدم لهم طلبًا وأن يثبت أن شيئًا ما يؤلمه.

لم يسأل ريتشارد روفو عما إذا كان قد ذهب لمكتب الخدمة الاجتماعية وقدم طلبًا وإثباتًا على سوء حالته، بل قال: سوف أتحمل ثمن الكشف.

رد مساعد الطبيب في العيادة النفسية الواقعة على ناصية المعهد الذي كان يعمل به ريتشارد قديمًا: حسنًا.

فشكره ريتشارد.

سأل الطبيب روفو: هل تشعر بألم؟

وقام ريتشارد بالترجمة.

أومأ روفو.

- ما الذي يؤلمك على وجه التحديد؟

أشار روفو لرأسه، ووجنتيه، وأذنيه وفكه.

- هل تستطيع أن تفتح فمك باتساعه؟

- كلا.

- لم لا؟

أشار روفو بين فكيه إلى داخل فمه.

سأل الطبيب: هل تسمح لي؟ ـ وأدخل مرآة صغيرة للداخل، وعندما نظر بين أسنانه قال: هناك ثقب كبير في أحد الأسنان في الناحية اليمنى.

- ثقب في أحد الأسنان؟

- نعم ثقب في أحد الأسنان.

قضى روفو عطلة أعياد الميلاد بالكامل داخل مصحة للأمراض النفسية وأعطوه دواءً رأى ريتشارد أنه كاد أن يقضي على حياته ثم يتضح في النهاية: السبب في كل هذا كان فقط ثقبًا في أحد الأسنان.

كم مرة اتضح من خلال هذا الكشف الذي أجراه الطبيب للتو، أن كل شيء متعلق بطرح الأسئلة الصحيحة.

لم يكن روفو قد ذهب طيلة حياته إلى طبيب أسنان، من الممكن ألا يكون يعرف أن البشر قد اكتشفوا أطباء الأسنان، ولكنه أصبح يجلس داخل عيادة الأسنان، التي يُعالَج فيها ريتشارد، يجلس في طاعة شديدة على الكرسي المجهز لذلك، ولم تأخذ المسألة سوى بضع دقائق وكان الطبيب في أثنائها قد أنهى مهمته في حشو الثقب.

قال الطبيب: كان كل شخص يحضر إلى العيادة بثقب كهذا يعتقد أنه سيفقد صوابه بسبب تلك الآلام، فالآلام تكون مبرحة للدرجة التي يصعب على الشخص معها تحديد مكانها، وبالتالي تصبح مهمة التشخيص صعبة للغاية.

قال ريتشارد: كم عليَّ أن أدفع لك؟

رد الطبيب: فلتنسَ الأمر، كل شيء على ما يرام.

49

إلى أين ذهب أوزاروبو؟

ذهب، يذهب، ذهابًا.

حاول ريتشارد لمدة أسبوع أن يتصل هاتفيًا بأوزاروبو، وكانت الإجابة الدائمة على اتصالاته: هذا الرقم ربما يكون مغلقًا، وكذلك لم يستطع أي من الرجال أن يقول له أين يختفي أوزاروبو منذ الجمعة قبل الماضية، ولهذا اتصل ريتشارد به على الفور عندما بعث له برسالة يحييه فيها.

سأله ريتشارد: أين تسكن؟

- عند أحد الأصدقاء.

- أي صديق هذا؟

- صديق من ساحل العاج.

- ومن أين تعرفه؟.

- لقد تحدثنا سويًا في ميدان أورانين.

- آه، أفهم.

- لديه أوراق.

- حسنًا".

- هل لديك عمل من أجلي؟

فأجابه ريتشارد: كلا! ـ وكان ريتشارد قد عجز عن جعله يعمل حتى في جمع أوراق الأشجار شتاءً.

- أحتاج إلى عمل.

- أعلم هذا، ولكن هذا صعب الآن.

- حسنًا.

كان أوزاروبو قد حفظ الطريق من المبنى المشيد بالطوب الأحمر حتى منزل ريتشارد عن ظهر قلب، إلا أنه اضطر للانتقال لشبانداو في ما بعد، ثم حفظ الطريق مرة أخرى بالمترو من شبانداو إلى حيث يسكن ريتشارد، والآن انتقل للعيش مع صديقه القادم من ساحل العاج، كانا قد بدآ في تعلم السلم الموسيقي قبل عدة أشهر، وحينما بدآ في عزف مقطوعة "بلوز" على آلة الكونترباص اضطر للانتقال إلى شبانداو، ثم عادا مرة أخرى إلى السلم الموسيقي وراجعاه سويًا، قبل أن يبدآ في عزف مقطوعة "بلوز" على الكونترباص، حتى جاءت في بداية شهر يناير قائمة الترحيل الأولى وكان اسم أوزاروبو مدرجًا فيها، والآن سيضطرا للبدء مجددًا بالسلم الموسيقي وبمقطوعة سهلة من مقطوعات "البلوز" على الكونترباص.

يؤثر الزمن على البشر تأثيرًا كبيرًا، فهم ليسوا بآلات يمكن تشغيلها أو إيقافها، فالوقت الذي يصعب فيه على الإنسان أن يعرف كيف يمكن أن تصبح حياته حياةً، يغرق فيه الإنسان من أول رأسه حتى أخمص قدميه.

وصلت لريتشارد صباح اليوم دعوة لحضور سمينار علمي في مدينة فرانكفورت الواقعة على نهر الماين، ليلقي محاضرة حول "العقل باعتباره مادة نارية في رواية الفيلسوف الروماني القديم سينيكا (الرواق الإغريقي المعمّد)"، وعرف ريتشارد أنه تم اختياره لإلقاء المحاضرة فقط، لاعتذار محاضر آخر بشكل مفاجئ، وذلك لأن السمينار كان سينعقد بعد أسبوعين فقط، كان ريتشارد قد ألف كتابين حول الفيلسوف الروماني سينيكا عندما كان يعمل في المعهد، لهذا لم يكن صعبًا عليه أن يجهز تلك المحاضرة، على الرغم من هذا فقد وضع الخطاب جانبًا مؤقتًا، ونزل إلى الجسر لينظر إلى البحيرة.

كانت البحيرة في تلك الأثناء قد اكتست تمامًا بالجليد، ظهر الجليد على صفحة البحيرة مثل الزجاج الأسود، لأن الثلج لم يسقط منذ آخر مرة حدث فيها الصقيع، رأى ريتشارد بعض أعواد البوص المتجمدة وكذلك بعض الأوراق والطحالب التي من الممكن رؤيتها من فوق طبقة الجليد، وفي الأعماق، حيث لا تزال المياه سائلة، استطاع أن يشاهد سمكة تسبح في هدوء، كان في الأعوام السابقة يذهب في جولة مع ديتليف وسيلفيا فوق

البحيرة المجمدة، ولكن هذا العام لم يقترح أحدهما هذا الاقتراح، فقد يحاول الغريق، أن ينادي من تحت الجليد، وقد يرونه تحت أرجلهم وهو فاتحًا فمه في محاولة للتنفس، رافعًا يديه للأعلى باحثًا عن فتحة وسط الجليد، ولكن حين يذهبون لإحضار الفأس لمساعدته سيكون قد غرق من جديد.

سأل ريتشارد أوزاروبو: هل ترغب في الحضور مرة أخرى لتعزف على البيانو؟

- حسنًا.

- ربما غدًا؟

- لا توجد مشكلة.

وبعد أن أنهى ريتشارد محادثته التليفونية مع أوزاروبو، أرسل موافقته على إلقاء المحاضرة لفرانكفورت، وجلس يتخيل كيف سيجلس سويًا بعد أسبوعين مع زملائه السابقين في القاعة الكبرى، ويلقون المحاضرات، وينصت بعضهم لبعض، ويدخلون سويًا في مناقشات، وكيف سيجلس هو ليلقي محاضرته ويستمع له الآخرون ويناقشهم، ست محاضرات في اليوم الواحد، سيكون هو الثاني بين المحاضرين، وفي الاستراحة سيقدمون هناك أمام قاعة المحاضرة القهوة الساخنة المجهزة في ترامس كبيرة، وعصير البرتقال، والمياه المعدنية إلى جانب بعض البسكويت، وسأل نفسه: هل لا تزال هذه حياته؟ وهل كانت تلك حياته من قبل؟.

ففي الخمسة وعشرين عامًا الماضية، بعد الوحدة الألمانية، أصبح من سكان الغرب أصحاب المستوى الأعلى العالمين ببواطن الأمور، والآن على الأقل، أصبحوا يدعونه إلى إلقاء محاضرة في أي مؤتمر عندما يعتذر أحدهم، الخروج من هذا العالم يكون عادة أكثر هدوءًا من القدوم إليه، ولكن قريبًا ستكون إحدى هذه الدعوات هي آخر دعوة توجه له في حياته كعالم ولكن أي دعوة ستكون ومتى؟، لن يعرف ذلك إلا في حينه، عندما لا توجه إليه أي دعوات.

لا زال يعرف بعض الزملاء الذين سيلتقيهم في المؤتمر في فرانكفورت، وقد يكون من بين الحضور ذلك العالم المتخصص في "تاكيتوس" والذي كان قد قابلة في مؤتمر آخر في بداية العام وأدارا سويًا نقاشًا ممتعًا، ولكن في الوقت الذي سيجتمع فيه الآخرون من الحكماء، والملتوين، والطموحين، والخجولين، والمملين، والمتوجسين، والعابثين حول مائدة العشاء سيكون هو جالسًا في سعادة في القطار في طريق العودة إلى برلين، وفي الوقت الذي سيكون الآخرون نائمين في أسرتهم في حجراتهم ذات السرير الواحد في ذلك الفندق في مدينة فرانكفورت، سيكون هو ماشيًا في طريق عودته إلى منزله، قاطعًا طريقه بين الأشجار المظلمة، وفي اليوم الثاني للسمينار، عندما سيجلس زملاؤه مرتدين قمصانهم المكوية، سيكون هو واقفًا على شط البحيرة ينظر إليها.

سأل ريتشارد أوزابورو في اليوم التالي: من أين تعيش الآن؟

هز أوزاروبو كتفيه قائلًا: أقوم بالمساعدة في تغليف بعض الطرود.

- لدى مصلحة البريد؟
- كلا، طرود، يتم إرسالها إلى إفريقيا.
- لإحدى منظمات المعونة؟
- نعم، شيء كهذا.
- هل تحصل على نقود في المقابل؟
- 20 يورو في اليوم الواحد.
- كم ساعة تعمل؟
- اليوم كله.
- وكم يومًا في الأسبوع؟
- الأسبوع الماضي كنت مرة هناك، وربما يحتاجونني الأسبوع المقبل أو بعد المقبل مرة أخرى.
- آه، أفهم، الأمر كذلك إذن.
- عندما كنا نعيش في السابق في ميدان أورانين، كان يأتي أحدهم بين الحين والآخر ويطلبنا للعمل، أما الآن وقد تفرقنا فلن يجدنا أحد.

تذكر ريتشارد مقولة: "لقد أصبحنا مرئيين".

قال أوزاروبو: أريد أن أعود إلى إيطاليا في مايو القادم.

- إلى أين هناك؟

هز أوزاروبو كتفيه مرة أخرى.

- هل لديك عمل هناك؟

هز أوزاروبو كتفيه مرة أخرى.

كان هذا يعني أن أمامه مع أوزاروبو ستة أو ثمانية أسابيع على الأكثر في دروس البيانو قبل أن يرحل إلى إيطاليا، وهنا أدرك مرة أخرى ضغط الوقت الذي يقع تحته مجددًا، ربما يستطيع أن يعلم أوزاروبو في تلك الأثناء عزف بعض المقطوعات حتى يستطيع أن يكسب من عزفه على البيانو في الشارع بعض الأموال.

عندما صار ماركوس ابن ديتليف وماريون في الخامسة عشر من العمر، كان أبوه يختبره على العشاء في الجدول الدوري للعناصر، وحين أصبح في السادسة عشر حصل له على مكان للتدريب العملي لدى أحد المهندسين، كانت ماريون تُعد له الإفطار من حبوب الشوفان المخلوطة بالتفاح المبشور الطازج حتى يستطيع أن يركز بطريقة أفضل، والآن يعمل ماركوس في بناء الكباري في الصين.

أما أوزاروبو فقد رأى أمام عينيه مقتل أبيه وأصدقائه عندما صار في الخامسة عشر من عمره.

والآن يرى أن الدنيا لا تحتاجه منذ ثلاثة أعوام.

سأله ريتشارد: هل ما زلت تذكر السلم الموسيقي؟

أراد ريتشارد أن يقوم بإجراء تعديلات بسيطة على ما كان قد كتبه بالفعل في كتابيه السابقين عن سينيكا، ولكنه ما أن بدأ في تصفح بعض الأوراق في مخطوطة سينيكا "عن الهدوء النفسي" حتى بدأت الأفكار تهطل عليه تباعًا، وشعر بكم السعادة التي كان يشعر بها عندما كان يعود للعمل في مجاله، على الزملاء أن يروا كيف أنهم ودعوا عقلًا واعيًا وعاملًا، واستودعوه المعاش، إن كان العقل فعلًا هو مادة نارية، كما زعم دايوجينيس في البداية، فمن الممكن أن يتتبع المرء كيفية تناول المفكر لأفكار سابقيه على مدار مئات السنين، وكيف يطورها، ويحاول أن يضيف عليها من عنده لتظل على قيد الحياة، وقرأ ريتشارد في مخطوطة سينيكا: "عليك دائمًا أن تفكر في أن هذا الذي تدعوه عبدك، ينحدر من نفس الأصل الذي تنحدر منه، وأنه يسعد بالمشاركة في نفس السماء، وأنه يتنفس مثلك، ويحيا ويموت"، قال سينيكا نقلًا عن أفلاطونك: "لا يوجد ملك لا ينحدر من عبد، ولا عبد لا ينحدر من ملك، الزمن فقط هو ما أحدث كل هذا التداخل، والقدر هو الذي قلب الوضع أكثر من مرة"، ووجد عند أورفيد في نهاية كتابه

"التحولات" نفس الأفكار الموجودة عند إمبيدوكليس: "لا شيء يبقى على شكله، والطبيعة المحبة للتغيير تخلق أشكالًا جديدة من الأشكال الموجودة، وعلى الرغم من اتساع العالم لن يضيع شيء، صدقوني التغيير والتبديل يكون فقط في الشكل، النشأة والخلق تعني فقط أن البداية كانت مختلفة، والنهاية لن تكون -أيضًا- نفسها.

أما بالنسبة لريتشارد، وكذلك بالنسبة لأصدقائه ديتليف وسيلفيا، أو حتى أندرياس، القارئ الجيد لهولدرلين، فقد ظلت فكرة الحركة الدائمة، التي تؤدي إلى بعثرة كل الأنظمة، والعلاقات الإنسانية التي تتعرض كل يوم للتغير هي فكرة مُسَلم بها، قد يكون السبب في هذا طفولتهم التي عاشوها إبّان الحرب العالمية الثانية، وربما يعود هذا -أيضًا- إلى مراقبتهم انهيار النظام الشيوعي الذي قضوا في ظله معظم سنوات عمرهم، والذي انهار في غضون أسابيع قليلة.

هل يا ترى أدت الفترة الطويلة من السلام السائد، إلى اعتقاد الجيل الجديد من الساسة أننا قد وصلنا بهذا إلى نهاية التاريخ، أو إلى جعلهم يعتقدون أن ما كان في حالة تغير دائم في السابق من الممكن أن يتم تقييده ووضعه في وضع السكون؟ أم هل أدى البعد المكاني عن الحروب الدائرة في أماكن بعيدة من العالم إلى افتقار المغيبين للمعرفة، كما يعاني الآخرون من فقر الدم؟ هل قادنا السلام -الذي طالما تاقت له الإنسانية لعقود طويلة،

والذي تحقق فقط في بضع بقاع من الأرض- إلى جعلنا نخشى من اقتسامه مع طالبي اللجوء والمأوى، بل وإلى أن ندافع عنه بعدائية تجعلنا نشعر كأنما لو كنا نخوض حربًا ضدهم؟

50

ربما يمكن مقارنة طريق العقل بالطريق التي قطعها الرجال؟ سأل ريتشارد إيتمبا الذي كان يقف بجانبه ليدفئ يديه عند النار: «كيف ذهبت إلى ليبيا؟»، «عن طريق الحدود الجزائرية، مشيت ثلاثة أيام عبر صحراء صخرية، سقط البعض في الطريق ولم يستطع استكمال السير، وكنا نتركهم وراءنا ونستكمل السير، ماذا كنا سنفعل سوى ذلك؟ لم تكن بيدنا وسيلة لمساعدتهم، كنا نشعر بثِقل كل شيء فكنا نلقي بالقمصان، هكذا!»، وقام بحركة بذراعه ليشرح ذلك، «وكنا نلقي بالأحذية، هكذا!»، وقام بحركة ليوضح كيف تخلص من حذائه الوحيد وهو في وسط الصحراء الصخرية الحارة على الحدود الجزائرية الليبية، «كل شيء كان ثقيلًا وكنا نعجز عن حمله، يمشي المرء هناك ثلاثة أيام كاملة وكل ما يحتاجه وعاء ماء».

نظر ريتشارد إلى سطح البيت الذي لم يكن عليه في تلك اللحظة سوى رجلًا واحدًا يقف مستندًا إلى إحدى المداخن وينتظر، هل مشى ذلك الرجل -أيضًا- عبر الصحراء الصخرية القاحلة؟ قضى الرجال حتى ذلك الوقت ثلاثة عشر يومًا بالأعلى كي يعبِّروا عن إصرارهم على الحصول على ما وعدوهم به في الاتفاق: الدعم

والمساعدة في تحسين فرص حصولهم على عمل، وغير ذلك، نظر ريتشارد إلى الرجل الواقف فوق السطح، فوق المدينة، وفكر في الموتى أسفل البحر وتخيل فجأة الانتظار وكأنه «مشبك» يمسك بكل ما يحدث على وجه البسيطة.

وفكر ريتشارد في إمكانية مقارنة الذكرى بما مر به الرجال، ثم سأل أبولو: «كيف يدفنون الموتى في الصحراء؟»، كان ذلك هو نفس السؤال الذي لم يحصل على إجابة له عندما انطلق جرس الإنذار فجأة، «نقوم بإزاحة الرمال عند منتصف أحد الكثبان الرملية ونصنع بذلك حفرة نضع فيها الميت، ثم نصلي»، «ماذا تصلون؟»، أخذ أبولو ريتشارد إلى الجانب عند أحد المداخل ليحتميا من الريح والثلوج المتساقطة، ثم وضع يديه بعضهما على بعض وبدأ في تلاوة صلاة الموتى، كان تحت أقدامهما أحد ملاجئ موريسون، «ثم، ماذا بعد ذلك؟»، «ثم نعيد الرمال ونضعها فوق الميت»، «هل تقومون بوضع علامة ما فوق القبر؟»، «لا، ولكن المرء يعرفها للأبد».

ربما يعبر ما مر به الرجال عن شيء له علاقة بالقوة والضعف؟ ثم سأل خليل الذي كان يقلب النار بعصاه: «كيف كانت رحلتك البحرية؟»، فقال خليل: «كنت أخاف فقط من الماء لذا بقيت تحت سطح القارب، أحد أصدقائي بقي بالأعلى ومات لأن الشمس كانت محرقة، لقد مات عطشًا»، وكان رشيد ما زال يذكر ما حكاه رشيد عن قاربه أن الأشخاص الذين كانوا تحت سطح القارب لم تكن

لديهم أي فرصة في النجاة عندما انقلب القارب وامتلأ المكان على الفور بالماء، حسب ما حكاه له رشيد في ليلة عيد الميلاد، ثم رأى ريتشارد كيف يقوم رجال الشرطة بتبديل الدورية، ولذلك أصبحوا لعدة دقائق مائتي رجل بدلًا من مائة.

جلس ريتشارد في صباح اليوم التالي ليدخل الملاحظات التي جمعها عن البيت المُحتل في نسيج محاضرته، ولكنه علم في تلك اللحظة أن الحكومة قد أعلنت إلغاء الاتفاق الذي عقدته مع اللاجئين، لقد استعانوا برجل قانون من كونستانتس الواقعة على بحيرة بودينزيه، واكتشف أنه: للأسف، للأسف، يوجد توقيع ناقص على الورقة، كان ريتشارد يعرف أنه في تلك الأثناء قامت منظمات حقوق إنسان مختلفة بالاعتراض على قرار حكومة برلين ضد اللاجئين المعتصمين في الطابق العلوي من مأواهم، وكان يعرف أن احتجاجهم يتعلق بالتوصية التي قدمها ذلك المحامي القادم من بعيد، عندما لا يكون التعاقد ملزمًا فإن الرجوع عنه لا يبرر الاحتجاج على ذلك، مجرد مجموعة من الحروف في رسالة قادمة من كونستانتس ألغت ما كان ينتظر اللاجئون تحقيقه تحديدًا في تلك اللحظة التي كان من المفترض أن يتحقق فيها.

رأى ريتشارد بعد ذلك في التلفاز كيف حاول رشيد ومجموعة أخرى من اللاجئين أن يقيموا مرة أخرى كوخًا على الثلج في ميدان أورانين تعبيرًا عن رفضهم لذلك الخبر، وقد كان رد فعل طبيعي على ما يخصهم في الاتفاقية، ورأى كيف قامت الشرطة

بطردهم من المكان، وفكر ريتشارد في أن العنف الذي استخدمته الشرطة كان نتاجًا لزنى المحارم الذي ينتج عن علاقة القوانين بتفسيرها؛ أي أن سببه لم يكن سوى بعض الحبر على بعض الأوراق، وزادت تلك الأحداث من تشوق ريتشارد إلى الموعد مع محامي إيتمبا الذي كان محددًا له اليوم التالي.

51

قال البابا بنديكت في كلمة وداعه إن أوربا تقوم على ثلاثة أعمدة: الفلسفة الإغريقية والقانون الروماني والدين اليهودي المسيحي، كان محامي إيتمبا الطويل فخورًا بقانونه الروماني، عندما وقف لإحضار ملف إيتمبا رأى ريتشارد أنه يرتدي السترة الرجالية السوداء التي تبلغ الركبتين وتسمى «فراك»، كانت طيات تلك السترة، التي تبدو وكأنها جاءت من المتحف، قد أصبحت رمادية بعض الشيء، ولكنها كانت تتأرجح بليونة في الهواء الذي كان يصعب تحديد مصدره في ذلك المكتب المظلم الخانق.

قال المحامي وهو يضحك: «في ألمانيا يأكل المرء الورق»، ثم جلس وعدل وضع الأكمام التي يرتديها فوق السترة لحمايتها من عند المرفقين، ثم كرر مرة ثانية قولته: «في ألمانيا يأكل المرء الورق»، ولم يستطع كتم ضحكاته حتى اغرورقت عيناه من الضحك، ونظر إلى إيتمبا وريتشارد وهو يتوقع أن يضحكان، ولكن إيتمبا لم يضحك لأنه لم يفهم ما قاله محاميه؛ وتساءل ريتشارد إذا كان المحامي يقصد بذلك شيئًا له علاقة بما قاله إيتمبا لريتشارد، وهو جالس على كرسي قابل للطي في غرفة الانتظار بين الفيتناميين والرومانيين والأفارقة الآخرين، وكان

يقصد الملفات التي لا حصر لها في الدولاب خلف السكرتيرة: «لا يمكن أن يأكل المرء الورق»، ولكن كيف يمكن للمحامي أن يكون قد سمعه عبر الباب المزدوج الذي يؤدي إلى مكتبه؟، ثم قال: «أنا في الثانية والسبعين من عمري الآن»، وبدا فجأة مثل البومة، «اثنان وسبعون سنة!»، وأخذ يضحك وكأن ما يقوم به هناك ما هو إلا خدعة يخدع بها السلطات الحكومية، فمن المفترض أن يكون متقاعدًا منذ فترة طويلة ولكن بدلًا من ذلك فإنه يرفع قضايا ليعترض على أن مصلحة الشئون الاجتماعية تدفع لهذا اللاجئ أو ذاك 280 يورو بدلًا من 362، أو أنها تحتجز الأوراق الإيطالية الخاصة بأحدهم لإجباره على الرحيل، حيث يتم تسليم من يوافقون على الرحيل أوراقهم بعد أن يظهروا تذكرة السفر عند المحطة الحدودية.

ثم قال المحامي: «ليس من حق السلطات تمامًا القيام بذلك! هذه مستندات إيطالية!»، كما كان لا يعجبه تمامًا أن العاصمة برلين -على خلاف باقي الولايات الألمانية- لا تمنح عائلات روما وسينتي التي لديها أطفال صغار التأجيل المعتاد إلى ما بعد الشتاء، وإنما تقوم بترحيلهم إلى عشوائيات بلجراد حيث درجات الحرارة دون الصفر، هذا بالإضافة إلى أمور أخرى، إنهم يرسلون الأطفال مرة أخرى إلى هناك!، ثم كرر مرة أخرى: «الأطفال! «.

ثم أضاف: «الوحيد الذي يواسي العالم الكبير كله هو البابا الجديد، ليست مصادفة أن يكون اسمه فرانسيس: حيث توجد

الرحمة ويوجد الذكاء لا يكون الإسراف فيهما خطأ!»، ثم انتقل المحامي مباشرة من الحديث عن البابا فرنسيس إلى الحديث عن الرومان القدماء: Tunc tua res agitur paries cum proximus ardet! وشعر بسعادة بالغة عندما أومأ ريتشارد برأسه موافقًا على كلامه ثم ذكر الترجمة بصوت خفيض: «عندما يحترق بيت جارك فإن الأمر يعنيك أنت أيضًا».

كان إيتمبا الطويل يجلس في تلك الأثناء ساكنًا تمامًا لأنه لم يفهم كلمة مما قاله الرجلان المُسنان، لم يكن يعرف لمَ يضحكان، كان عليه فقط أن يجلس وينتظر إذا كان هناك ما يمكن عمله أو التفكير فيه في ما يتعلق بحالته، لاحظ ريتشارد أن إيتمبا يشعر بالقلق من كثرة الملفات الموجودة على الأرفف وعلى منضدة المكتب، ولذلك يجلس ساكنًا، كانت مئات الأوراق الملونة تتدلّى من أفواه الملفات وهي تشير إلى مئات من الحالات التي ستقرر مصائر الكثيرين.

كان إيتمبا يذكر أحيانًا بلغة ألمانية ركيكة أن لديه موعدًا في «الاجتماعية» ويقصد بذلك مصلحة الشؤون الاجتماعية، أو يقول إن لديه موعدًا لدى «الجوانب» وهو يعني «مصلحة الأجانب»، ولكن الأمر استغرق ريتشارد فترة طويلة حتى أدرك أن مجرد ذكر تلك المواعيد كان يعني بالنسبة لإيتمبا شعورًا كبيرًا بالرُعب.

إيتمبا، ذلك الرجل الذي لم تجرؤ أي دورية عسكرية على تفتيشه

على الحدود الليبية، الرجل الذي سار ثلاث أيام على قدميه عبر الصحراء الصخرية رغم شدة الحر، الرجل الذي طلب يوم وصوله إلى لامبيدوسا أن يعيدوه فورًا إلى إيطاليا، ولكن للأسف لم يكن مسموحًا للإيطاليين أن يفعلوا ذلك، إيتمبا ذو العين الزجاجية والـ190 سنتيمترًا يشعر بالرعب من بعض الحروف على ورقة رسمية يعلوها رسم بوابة براندنبورج، الذي يعلو الخطابات الرسمية في برلين، وفي أسفلها ختم النسر.

ولعله من الأفضل له أنه لم يفهم ما يُقال له:

«يمكن أن يؤدي تقديم معلومات غير صحيحة إلى رفض تصريح الإقامة المطلوب أو رفض تعليق الترحيل (التغاضي) أو الطرد.

وفقا للأحكام القانونية التي تحكم الخدمات المعتمدة، فإنك ملزم بالإبلاغ فورًا عن أي تغييرات في البيانات التي تعتبر حاسمة لمنح المساعدة.

وأود أن أشير إلى أن الشهادة المذكورة أعلاه لا تشكل تمديدًا لمدة المغادرة، وهذا يعني أنه إذا تحققت متطلبات الترحيل في أي وقت حتى قبل تاريخ الفحص المذكور أعلاه يمكن أن يتم ترحيلك، في حالة الامتناع عن المغادرة، يمكن طلب ظهورك شخصيًا في مكتب الأجانب وفقًا للفقرة 82 المادة 4 من قانون الإقامة، إذا لم تنفذ هذا الطلب دون سبب كاف، قد يتم إجبارك

على الحضور.»

وفي حين كان المحامي يتصفح الملف ويخط خطًا هنا أو هناك أو يلصق ورقة ملاحظات باللون الأصفر أو الأحمر أو الوردي عند هذا الموضع أو ذاك، وفي حين كان يملي بسرعة كبيرة في جهاز الدكتافون خطابات لمصالح حكومية مختلفة، كان ريتشارد وإيتمبا يجلسان بعضهما بجوار بعض ينتظران وحسب، وفجأة قال لهما المحامي: «الشيء الوحيد الذي يمكن أن يساعده هو وجود طفل ألماني!»، طفل ألماني! ألم يكن يرى أن الجالسين أمامه رجلان، وأن أحدهما متقدم في السن؟ ثم استمر في تصفح الملف استمر في الإملاء: «الزميل العزيز، أرجو الاهتمام، مع خالص الشكر».

عندما أوقف المحامي جهاز الدكتافون للحظات سأله ريتشارد: ولكن التغاضي مثلًا سيكون أمرًا جيدًا، أليس كذلك؟ لقد سمعت أن الرجال يمكنهم في تلك الحالة بعد الانتظار على الأقل لتسعة أشهر أن يبحثوا عن عمل، أليس كذلك؟.

كرر المحامي كلمات ريتشارد: بعد تسعة أشهر!

ثم انفجر في نوبة من الضحك.

فقال ريتشارد: لا، أنا أعني التغاضي.

فقال المحامي: أعرف، أعرف. ـ واستمر في تصفح الأوراق

دون أن يعطيهم إجابة.

فكرر ريتشارد: أعني أنه يمكنهم عندها البحث عن عمل.

فقال المحامي: نعم، البحث. ـ واستمر في التصفح.

فسأله ريتشارد: إذن؟

توقف المحامي فجأة عن تصفح الملف وقال: هل سمعت عن «قاعدة الأولوية»؟ ـ ونظر بجِدة للحظات عبر زجاج نظارته السميك إلى ريتشارد، وبدا فعلًا مثل البومة.

أجابه ريتشارد بلا.

فقال المحامي: تنص قاعدة الأولوية على أنه فقط في حال عدم وجود ألماني أو أوروبي يرغب في تولي وظيفة ما يمكن لسيد مثلًا مثل هذا السيد. ـ ثم نظر المحامي الذي يشبه البومة في الملف ـ السيد عوض أن تكون له فرصة في شغلها.

فقال ريتشارد: على أي حال، هذا أفضل من لا شيء.

- نعم، ولكن قبل أن يتقدم للحصول على مثل تلك الوظيفة يجب أن تمنحه مصلحة شؤون الأجانب تصريحًا لتلك الوظيفة تحديدًا.

فقال ريتشارد: بالتأكيد ستمنحه الموافقة في مثل هذه الحالة.

فقال المحامي: هذا ليس أكيدًا.

فسأله ريتشارد: ماذا يعني هذا؟

- إن مصلحة شؤون الأجانب ترسل طلب الحصول على العمل أولًا إلى وكالة العمل الألمانية للفحص، وعملية الفحص قد تستمر -لأسباب لا يعرفها أحد- فترة طويلة، وبعدما يصل رد وكالة العمل تبدأ مصلحة شؤون الأجانب من جانبها في فحص الطلب، يمكن ان تستغرق تلك الخطوات ثلاثة اشهر أو أربعة، ولا تأتي النتيجة إيجابية دائمًا.

- ولم لا؟

- عليك أن تسأل السيدات والسادة في مصلحة شؤون الأجانب.

كان إيتمبا الطويل يجلس صامتًا ينظر أمامه في حين كان الرجلان يتحدثان عن فرصه المستقبلية، فكر ريتشارد في أن إيتمبا ربما لا يرى كل أكوام الملفات الموجودة هناك نظرًا لأن لديه عين زجاجية.

ثم قال المحامي: وحتى لو وافقت المصلحة يجب أن تكون الوظيفة بعد كل تلك الإجراءات لا تزال شاغرة، هذا يتطلب وجود رب عمل صبور جدًّا.

فقال ريتشارد: أفهم.

لاحظ ريتشارد أن النوافذ الخشبية في مكتب المحامي قد تفتت بفعل الحرارة والرطوبة على مدار المائة عام الماضية، كانت الجدران التي تصل إلى 4.20 مترًا مصفرة، ولا يغطي الأرضية سوى المشمع، عندما اتصل ريتشارد ليسأل إذا كان بإمكانه دفع قسط إيتمبا الشهري البالغ 50 يورو لمدة شهرين مقدمًا قالت السكرتيرة: «لا، الأفضل أن تدفع قسطًا واحدًا»، كانت قيمة القسط الشهري 50 يورو، أي 450 يورو إجمالًا في تسعة أشهر، وهو الحد الأدنى لأتعاب محامي عن تولي ملف لاجئ حسب ما يمليه قانون أتعاب المحاماة، وكان من الواضح من حالة المكتب أن ذلك المحامي لم يكن يفكر كثيرًا في تغطية النفقات أو إحراز المكسب.

وحسب ما وعد ريتشارد رشيد الحداد سأل المحامي: ألا يوجد تصنيف مختلف للوظائف التي بها نقص؟

كان ريتشارد قد قرأ في الإنترنت عن وجود نقص فيها في ألمانيا وأنهم على استعداد لتوظيف من يعملون حدادين ممن لديهم وضعية التغاضي على الفور؟

فقال المحامي: نعم، ولكن في هذه الحالة تطلب مصلحة شؤون الأجانب من الشخص المعني أن يحاول الحصول على جواز سفر من بلده أو على الأقل شهادة ميلاد لإثبات هويته.

فسأل ريتشارد: وماذا إذن؟

- ربما يحصل على جواز سفره.

فسأل ريتشارد: وعندها ستسير الأمور على ما يرام، أليس كذلك؟

فقال المحامي: فقط إذا لم يكن هناك لعبة بوكر ثنائية.

سأله ريتشارد: وماذا تكون لعبة البوكر الثنائية؟ ـ وسمع كيف كان إيتمبا الضخم يطقطق أصابعه تحت المنضدة.

- أحيانًا تريد مثل تلك الدول تسهيلات سياسية من ألمانيا أو عقد اتفاقية تجارية، وأحيانًا أسلحة، في المقابل تلتزم تلك الدول باستعادة الأشخاص الذين يحتاجون جوازات سفر بلدهم الأصلي.

فقال ريتشارد: أي أن ألمانيا تسعد بالتخلص من العمالة المتخصصة بهذه الطريقة، هل أفهم ذلك بصورة صحيحة؟

فقال المحامي: يمكن أن نقول ذلك.

وعندها سأل إيتمبا أيضًا: ماذا يقول؟

أجابه ريتشارد: سأشرح لك لاحقًا.

ثم قال المحامي: عليك - أيضًا - ألا تنسى أن هؤلاء الرجال من ميدان أورانين لا يتمتعون حتى بوضعية التغاضي، وحتى إذا حصلوا عليها فهي لا تمثل وضعية إقامة.

فسأله ريتشارد: وماذا تمثل إذن؟

التغاضي يعني فقط تأجيل الترحيل!

ونطق المحامي تلك المسميات باستمتاع يشبه استمتاع يوسف وهو ينطق كلمة: «غاسل الصحون».

لاحظ ريتشارد الصداع الذي بدأ يصيبه ويسري من جبهته عبر سوالفه إلى مؤخرة رأسه بالتدريج، ولكن كان لا يزال لديه نقطة على قائمته:

«والفقرة 23؟» كان قد قرأ في الإنترنت أنه بإمكان دولة أو حكومة أو عمدة ولاية أن يوقف العمل بالقواعد الأوروبية إذا أرادوا قبول شخص يطلب اللجوء كإنسان، حتى لو كان ذلك في دولة غير مسؤولة عنه من الناحية القانونية.

لم يعجب ريتشارد من أن المحامي أجاب بكلمة واحدة: «إذن!».

فقال ريتشارد: أفهم. ـ وشعر فجأة أن تلك الزيارة عند المحامي تفوق طاقته.

ثم قال له المحامي بهدوء وكأنه يحدث مريضًا ليقنعه بتناول دواء مر: ألم تقرأ إعلان الحكومة؟

- أي إعلان؟

فقال المحامي: نشرته بالأمس جميع الصحف. ـ ثم تلاه عليه عن ظهر قلب:

ومن أجل اكتمال الصورة تجدر الإشارة -أيضًا- إلى أن منح تصريح إقامة وفقًا لأحكام الفقرة 23 (1) من قانون الإقامة لا يخدم مصالح جمهورية ألمانيا الاتحادية في ما يتعلق بالمشاركين في احتجاج ميدان أورانين.

فقال ريتشارد: لا، لم أقرأ ذلك.

ثم قال المحامي الذي يشبه البومة: انظر، كلما زادت درجة تقدم مجتمع حلت القوانين المكتوبة مكان الحس الإنساني السليم، إذا سمحت لنفسي يمكنني القول إنه حسب تقديري فإن ثلثا القوانين فقط هنا في ألمانيا مترسخة في الحياة الشعورية للشعب، أما الثلث الباقي فعبارة عن قوانين أصبحت ذات صيغة متطورة وخالصة حتى أن الأساس الشعوري لها لم يعد له تأثير، بل لم يعد عمليًا موجودًا تمامًا، قبل 2000 عام كان الجرمان أكثر شعب مضياف عرفه العالم، أنت تعرف بالتأكيد كتاب «جرمانيا» لتاسيتس، عن حسن ضيافة أسلافنا؟

فأومأ ريتشارد برأسه.

- تسمح لي بأن أذكرك بالفقرة؟

- تفضل.

قام المحامي وذهب إلى رف الكتب، وتأرجحت طيات سترته في الهواء مجهول المصدر في المكتب، وأخذ كتاب تاسيتس من الرف وفتح الكتاب عند موضع به ورقة تحدده.

لاحظ إيتمبا أن الحديث مع المحامي كان يقترب من نهايته فبدأ في جمع أوراقه بعناية ووضعها فوق بعضها، ثم أدخلها في الحافظة التي أحضرها خصيصًا لهذا الغرض، وأومأ له ريتشارد برأسه، وعندها بدأ المحامي في القراءة:

«إنها خطيئة عند الجرمان أن توصد باب بيتك في وجه إنسان، أيًا من كان؛ يجب أن يستقبله كل شخص بوجبة حسب قدراته الاقتصادية، فإذا نفد ما لديه، فإنه -ذلك الذي كان مضيفًا- يشير إلى بيت مضياف آخر ويذهب معه إلى هناك، ويدخلا دون دعوة الفناء التالي: ولا يكون الاستقبال أقل ضيافة من سابقه، في حق الضيافة لا يوجد فرق بين مَن تعرف ومَن لا تعرف، بين الضيف وبين مضيفه لا يوجد فرق بين ما لهذا وما لذاك».

ثم أغلق المحامي الكتاب وسأل ريتشارد: وماذا الآن؟

فأعاد ريتشارد السؤال مرة أخرى وهو يحدوه بصيص من الأمل: وماذا الآن؟

- الآن بعد 2000 عام يوجد لدينا عوضًا عن ذلك الفقرة 23 المادة 1 من قانون الإقامة.

وضع المحامي يده على صدره وانحنى وكأنه في عرض مسرحي، ثم فتح الباب وقال: «أتسمحان؟»، كي يشير لهما بأن المقابلة قد انتهت، كان ريتشارد يعرف أن هناك كثيرًا من الفيتناميين والرومانيين والأفارقة ينتظرون بالخارج.

عندما مر مع إيتمبا بمكان تعليق المعاطف والقبعات كان يوجد فيه فعلًا قبعة اسطوانية، مما بدد شكه في وجود شبه بين المحامي وبين البومة القادمة من القرن قبل قبل الماضي إلى القرن الحادي والعشرين الحديث، الذي يبدو رغم حداثته قديمًا لما يعُج فيه من تيارات من الأشخاص الذين بعد نجاتهم من بحر حقيقي قطعوه يغرقون هنا في أنهار وبحار من الملفات.

52

ثم أتى اليوم، الذي سافر فيه ريتشارد إلى مدينة فرانكفورت الواقعة على نهر الماين، وفي الصباح، في الوقت الذي كان فيه أوزاروبو يتدرب على عزف البيانو، قام ريتشارد بطباعة المحاضرة وتصحيحها وعرضها على أوزاروبو، على الرغم من أنه لن يتمكن بالطبع من قراءتها بالألمانية.

- هل هذا مقال سينشر في الجريدة؟
- كلا، إنها محاضرة سوف أقوم بإلقائها.
- هل سيأتي الناس لحضورها هنا؟.
- بل سأسافر أنا الليلة لفرانكفورت، فقد قاموا بدعوتي وسأقوم بإلقاء المحاضرة على مسامعهم.
- وبعدها؟
- سنقوم بمناقشتها.
- مفهوم.
- هل تعرف مدينة فرانكفورت الواقعة على نهر الماين؟
- كلا، لا أعرف سوى فورسبورج.

وهنا تذكر ريتشارد أن أوائل المهاجرين قد أتوا من فورسبورج قبل عامين لميدان أورانين، وحتى قبل أن يغادروا كانت عناوين الصحف تضج بمأساتهم التي أرادوا أن يلفتوا إليها أنظار العالم بأن قاموا بحياكة أفواههم في إشارة إلى التعدي الصارخ على حقوقهم، وبحركة لاإرادية قام بالنظر إلى أوزاروبو للتحقق من عدم وجود ندبات في وجهه؛ إلا أن فمه كان يبدو طبيعيًا.

قال ريتشارد: سأعود بعد غد.

فقال أوزاروبو: حسنًا.

- هل تحب أن نحتسي الشاي سويًا؟

- بالطبع.

وهكذا جلسا سويًا للمرة الأولى بالمطبخ لاحتساء الشاي.

وفي اليوم التالي وقف ريتشارد في قاعة اجتماعات بمدينة فرانكفورت الواقعة على نهر الماين وألقى محاضرة حول „العقل باعتباره مادة نارية في عمل ستويكرس سينسا" وذلك أمام حشد من كبار علماء اللغة، ولكنه لم يتناول في محاضرته العقل فقط، بل تحدث -أيضًا- عن الذكريات والسلطة والضعف، هو لا يعلم على وجه التحديد إن كانت تلك محاضرة كالتي اعتاد أن يلقيها قديمًا عندما كان لا يزال يعمل في المعهد، وفي الاستراحة قاموا بتقديم القهوة بالخارج إلى جانب بعض المشروبات الأخرى

كعصير البرتقال، والمياه المعدنية، وكذلك بعض المخبوزات.

تغيب المتخصص في تاكيتوس -المؤرخ الروماني- هذه المرة، ولكن عوَّض غيابه آخرون يعرفهم ريتشارد، قاموا بتحيته، والربت على كتفيه: „ها، ماذا تفعل الآن بعد التقاعد؟"، "آه، حضرتك لم تعد تعمل بالمعهد؟"، "كم مر من الوقت ولم نتقابل؟"، "سوف أنتقل الأسبوع المقبل إلى بوسطن..."، "فلان شخص مثير للاهتمام بشدة..."، "هل رأيت سيادتك"، "توجد ترجمة حديثة لـ..."، ولم يعلق أي منهم على محاضرته، لا يعلم ريتشارد إن كانت هذه إشارة حسنة أم سيئة، وفي وسط العلماء الحاضرين كانت توجد ثلاث سيدات، تلبس إحداهن حذاء ذا كعب عالٍ بشكل مبالغ فيه، ولكنه لم يتحدث إليها، فهي كغيرها من الحضور في تلك المؤتمرات: أذكياء، أغبياء، غريبو الأطوار، طموحون، خجولون، متشربون بالعلم أو عبثيون، وفي الوقت الذي كان الآخرون يعودون فيه إلى الفندق ليأخذوا قسطًا من الراحة، قبل أن يلتقوا مرة أخرى على العشاء، حمل هو حقيبته إلى محطة القطار، وفي نفس الوقت الذي كان فيه الآخرون يغطّون في النوم في غرفهم الفردية في ذلك الفندق في فرانكفورت، كان هو قد وجد سيارته في المرفأ الخاص بمحطة قطار برلين وانطلق في الظلام مارًّا على الأشجار في اتجاه بيته، وحين وصل إلى بيته كان الجو شديد البرودة بالداخل، هل ترك أحد النوافذ مفتوحة الآن في هذا الجو الشتوي؟

وفجأة، نظر حوله، فوجد أدراج مكتبه خارجة من مكانها بالكامل ومصفوفة فوق الأرض فوق بعضها طوليًا وعرضيًا، في حين تبعثرت الأوراق والصور في كل مكان، حتى العلبة الخشبية لذلك الصندوق الموسيقي القديم تحطمت خلال محاولة فتحها بالقوة، وتنقل ريتشارد من غرفة إلى أخرى، فوجد هنا نقود إنجليزية ملقاة على السجادة، في الوقت الذي ألقيت فيه حافظة النقود بجوارها، وهناك وجد الدولاب مفتوحًا على مصراعيه، وفي الدور العلوي وجد الحُليّ الخاصة بزوجته مبعثرة على أرضية غرفة النوم، وفي الحمام وجد الصندوق الذي كان يحتفظ فيه بعقاقيره وقد تم تفريغه في الحوض، وأخيرًا بعد أن هبط إلى الطابق الأرضي مرة أخرى عرف ريتشارد سبب البرودة الشديدة داخل المنزل وذلك حين دخل إلى غرفة الموسيقى فوجد زجاج النافذة وقد تم خلعه كليًا من مكانه، فقام بإغلاق غرفة الموسيقى خلفه، ونزل إلى القبو ومرَّ سريعًا بالطابق الأرضي ليتأكد أنه وحده بالمنزل، وفرح عندما وجد جهاز الكمبيوتر والتلفاز على الرغم من أنهما سَهْلا الحمل، ترك ريتشارد كل شيء في مكانه وصعد لغرفة نومه، وفي الفراش، وبعد أن أطفأ الأنوار، حاول أن يتخيل لوهلة شكل الغرف وهي مظلمة تمامًا ومضاءة فقط من خلال مصباح الجيب، في الأغلب ستظهر مثل المنظر الطبيعي شديد الغموض، الذي يشعرك الجزء غير المضاء فيه بالرهبة، حتى وإن كانت بضعة كراسي، أو كومة كتب، أو نبات زينة، أو حتى سترة معلقة فوق شماعة، ألم يقم مؤخرًا بالتجول داخل

منزله في الظلام؟

جاء رجلان في صباح اليوم التالي لرفع البصمات عن الأشياء التي من المحتم أن يكون السارق قد لمسها، "هل تشك سيادتك في أحدهم؟"، "كلا"، "على أي حال، سيادتك محظوظ، كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ من هذا بكثير"، "حقًا؟"، "نعم، في بعض الأحيان يقوم السارق بإفراغ جميع محتويات المكتبات والدواليب، الملابس، الكتب، كل شيء، في الأغلب هو لم يكن بحاجة للنقود الإنجليزية، وكذلك وجود جهاز الكمبيوتر"، "نعم"، قالها الشرطي الآخر، "من الواضح أن السرقة تمت باحترام"، سأل ريتشارد: "باحترام؟!"، "حسنًا، إلى حد ما، على سيادتك أن تنظر في الأيام القادمة جيدًا لتقف على الأشياء المفقودة، وها هي الاستمارة التي تحتاجها لشركة التأمين".

وبعد فترة، جاء القائمون على الإصلاحات، لإعادة تركيب زجاج النافذة الذي بقي سليمًا، "لا تخشَ شيئًا سيدي، هو الآن مثبت جيدًا، ويحقق الغرض"، فردَّ ريتشارد قائلًا: "أنا لا أخشى شيئًا".

اتصل ريتشارد بعد الظهيرة بديتلف وسيلفيا ليحكي لهما عما حدث له، فقال ديتلف: "ما حدث بالطبع غير لطيف، ولكن الجيد في الأمر، أنك لم تكن موجودًا في تلك الليلة، ما الذي تمت سرقته؟"، كان ريتشارد قد استطاع بالنظرة الأولى إلى الحلي الرخيص الذي جمعه من الأرضية أن يلاحظ اختفاء الخاتم

الخاص بوالدته، والذي يعد قطعة الحلي الوحيدة التي احتفظت بها أثناء رحلة الهروب من شليزين إلى برلين، وكان وهو طفل يمسك به في اتجاه الضوء فكانت الخطوط الحمراء والخضراء تشع خلال الحجر الأسود الجميل الذي كان يزينه، وفي حفل زفافه قامت أمه بإهداء الخاتم لكريستل باعتباره إرثًا عائليًا، إلا أنها لم ترتده قط، كانت تقول دائمًا أنه غير عملي ويعلق في كل شيء، واختفى كذلك السوار الذهبي الذي كان قد أحضره لزوجته في إحدى سفرياته لأوزبكستان، وخاتم، كان قد أهداه لها كراوزه طبيب الأسنان والذي كانت تربطه بها علاقة عاطفية، وكان به حجر من الزفير في المنتصف تحيط به مجموعة فصوص من الألماس.

توفي طبيب الأسنان كراوزه في نهاية العام الماضي.

والمظروف الذي يحتفظ فيه ريتشارد ببضع مئات، حتى لا يضطر إلى الذهاب مرات ومرات إلى البنك، كان لا يزال موجودًا، واضح أن السارق لم يتمكن من الوصول إليه فبقي في خزانة الملابس بين الجوارب.

رد ديتلف: "لماذا لا تمر علينا؟".

"هل كان أحدهم يعلم بغيابك عن المنزل في تلك الليلة؟" ـ فرد ريتشارد قائلًا: "نعم"، سألت سيلفيا: "أحد هؤلاء الأفارقة؟"، رد ريتشارد: "نعم"، قالت سيلفيا: "أيهم؟"، "عازف البيانو؟

سيكون هذا أمرًا مؤسفًا"، فرد ديتلف قائلًا: "لم يثبت أنه هو الفاعل، فهناك عدة سرقات في المنطقة، هل تعلم؟ قام اللصوص في العام الماضي بسرقة كل المعدات من المخزن عند الجيران، وخمن من كان الجاني؟ ابن أخو رالف"، رالف هو رئيس رابطة الصيادين، وأكدت سيلفيا كلام ديتلف قائلة: "نعم، حتى عند كلوديا، الصيدلانية، وقعت سرقة أخرى في أثناء سفرها خلال عطلة أعياد الميلاد الماضية"، كل هذا وريتشارد يستمع في صمت، يهز رأسه أحيانًا، وأحيانًا أخرى يقول نعم أو كلا، ثم شرب كأسين من الويسكي وعاد مرة ثانية إلى منزله.

قام ريتشارد في صباح اليوم التالي بالاتصال بأنّا، والتي لم يسمع أي أخبار عنها منذ بداية العام.

قالت له: سيلفيا حكت لي عما حدث، اسمعني جيدًا: كان متاحًا أمام علي أن يسرق كل شيء، حينما كان يسكن عندنا، كان في مقدوره حتى أن يقتلني أو يقتل أمي، ولكنه كان يرفض حتى أن أعطيه نقودًا أكثر من المتفق عليها.

- هل كنت على علاقة معه؟

فقالت أنّا ضاحكة: هو في الثالثة والعشرين.

كان ريتشارد قد نسي لوهلة أنه وأنّا في نفس السن، بل إنه قد نسي لوهلة عمره هو نفسه، هل انقضت فعلًا خمسون عامًا على آخر لقاء جمعه بأنّا على أرضية أحد البيوت الريفية وهي

عارية تمامًا وقد تبعثرت تسريحة شعرها، حتى أنها تساءلت: „هل أصبح الآن لدي عش طيور فوق رأسي؟”.

- عليك فقط أن تعرف إن كان الفاعل هو عازف البيانو.

- لطالما سألني عن عمل، أعتقد أنه لا يعرف أي طريق آخر للعيش.

- أتعتقد فعلًا أنه هو الفاعل؟ أتتهمه دون حتى أن تعطيه فرصة لأن يدافع عن نفسه، لا يجب أن تفعل هذا.

- ماذا عساي أن أفعل إذًا؟

- له إن كان هو من فعلها.

- وإن أقر؟

- لقد قلت إن السارق قام بسرقة خاتم والدتك.

- نعم.

- هذا أمر سيئ.

- نعم، ولكني لن أعرف على أي حال أين ستستقر هذه المجوهرات لاحقًا.

- ريتشارد تستطيع أن تدلي بتبريراتك في أي مكان آخر.

أدرك ريتشارد أن أنّا تحدثه وهي تغسل الأطباق، كعادتها دائمًا، وتخيلها وهي تضع التليفون بين أذنها وكتفها وهي تنفخ

بين الحين والآخر؛ لأنها لا تريد أن تزيح بيديها المبللتين خصلة الشعر التي تسقط بين الحين والآخر لتداعب وجهها الجميل، فتنفخها بفمها الجميل حتى لا تنزلق داخل فمها وهي تحادثه، يستطيع أن يسمع صوت نفخها كما يستطيع أن يسمع صوت المياه المتدفقة من الصنبور.

- إذا كان هو فعلًا، من سرق منك الخاتم، فعليك أن تصرخ فيه! قل له إنك تريد استعادة الخاتم! أشعره بوجود مشكلة كبيرة.

- ولكن لماذا؟

- لأنك يجب أن تأخذ حذرك منه، لو بررت له صنيعه لبقيت طيلة الوقت بمثابة الأوروبي الثري الذي لا يهتم.

هنا سأل ريتشارد نفسه: لماذا لم يخطر بباله ولا ببال أنّا منذ خمسين عامًا أن يتزوجا؟

وتساءل قائلًا: إذن يجب عليَّ إن كان هو الفاعل أن أحرر ضده محضرًا؟

„بالطبع لا"، قالتها أنّا بصبر كبير كما لو كانت تتحدث إلى طفل صغير غبي: هذا الأمر ليس له أدنى علاقة بالشرطة، الأهم أن يعرف أن ما يفعله معك مهم بالنسبة لك.

- أفهم.

ثم ساد الصمت للحظات قبل أن تقطعه أنّا قائلة: ريتشارد، هل لا زلت تسمعني؟

رد عليها ريتشارد قائلًا: قولي لي، لماذا لم نتزوج أنا وأنت؟

- أنت سكران؟

بعد أن أنهي ريتشارد محادثته مع أنّا، بعث برسالة نصية لأوزاروبو، كما كان يفعل دائمًا:

- هل نتقابل غدًا؟

رد عليه أوزاروبو: حسنًا.

- في الثانية ظهرًا؟
- حسنًا.

قام ريتشارد بإزالة جميع الآثار السوداء التي تركها رافعو البصمات، مرتديًا قفازات من المطاط، وأعاد كل شيء لمكانه الطبيعي، أعاد الأدراج لمكانها في المكتب، وأسدل الستائر في حجرة الموسيقي، حتى لا تظهر آثار ما حدث للنافذة.

وقضى باقي اليوم أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به، وكتب في المكان المخصص للبحث على الإنترنت كلمة واحدة، هي ما لاحت بخاطره في تلك اللحظة: „الاحتمال".

„الاحتمال”

هو تصنيف البيانات والأحكام وفقًا لدرجة اليقين، ومن الأهمية بمكان في هذا الشأن هو الاعتقاد في التنبؤات المسبقة.

„اليقين”

يحمل مصطلح اليقين في اللغة اليومية الدارجة في الأغلب معنى الحقيقة الفردية التي تتعلق بمعتقدات لها مبررات جيدة، والتي قد تتعلق على سبيل المثال بموضوعات طبيعية أو أخلاقية، بالإضافة إلى هذا تدور المناقشة عادة حول، أي من هذه المعطيات تلعب دورًا في تكوين اليقين الفردي لدى الأشخاص، يندرج تحت ذلك „الأدلة”، ومدى الثقة في „آراء الخبراء”، والمؤثرات الخارجية الأخرى مثل تكرار الحجج والبراهين المتاحة أو الأحاسيس الداخلية مثل „الاستقرار العاطفي”.

„قطة شرودينجر”

يتم حبس قطة داخل صندوق من الحديد، ويوضع معها عداد جايجر وكمية ضئيلة من مادة مشعة، كمية ضئيلة جدًّا لدرجة ندرة احتمالية تحلل ذرة واحدة منها خلال ساعة، مع وجود احتمالية أخرى لها نفس القوة ألا يتم تحلل أي ذرة خلال تلك الساعة أيضًا، فإن حدث وتحللت الذرة فإن عداد جايجر سوف يطرق مطرقة تكسر بدورها زجاجة تحتوي حامض الهدروسيانيك

الذي سيسيل ويقتل القطة في الحال، يتم مراقبة هذه التجربة لمدة ساعة كاملة، ويُعتقد أن القطة سوف تبقى حية ما دام لم يحدث تحلل لأي ذرة خلال تلك الأثناء، فالواقع يقول إنه في حالة تحلل أي ذرة تكون القطة قد ماتت.

„حالة القطة"

هكذا يتم وصف الحالتين المحتملتين في المفهوم الأشمل لميكانيكا الكم، فالحالتان مختلفتان كليًا ولكنهما تتشابهان مع الحالات المعتادة (فالقطة إما أن تكون ميتة أو غير ميتة)، وهو ما يطلق عليه مصطلح حالة القطة، وحتى يتم تجهيز الحالة من المهم أن يتم عزلها عن العوامل المحيطة.

„انتحار الكم"

يجلس أحد العلماء أمام مدفع يتم إطلاقه في الوقت الذي يقع فيه تحلل لأحد الذرات المشعة، ففي هذه الحالة يلقى العالم حتفه.

„خلود الكم".

وفقًا لتفسير العديد من العلماء يتم الإطلاق في عوالم موازية وفي مواعيد مختلفة، فتكون احتمالية أن يعيش العالِم أعلى من احتمالية وفاته، ففي جميع الأنظمة، لن يموت العالِم خلال التجربة لأن احتمالية وفاته لا تساوي صفرًا أبدًا ويكون حيًّا في أي كون آخر، فإذا افترضنا هذا، فإن العالِم في هذه الحالة يكون خالدًا.

وفي صباح اليوم التالي أتى أحد العمال من شركة النوافذ، لرفع مقاسات النافذة الجديدة، وفي الثانية انتظر ريتشارد أن يرن جرس الباب، وهو ما لم يحدث.

وفي الثانية والنصف نظر إلى هاتفه ووجد رسالة: „لن أتمكن من الحضور اليوم"، ولكن الرسالة كانت تبدو مختلفة هذه المرة فقد بدل أوزاروبو صورته الشخصية بصورة بألوان المياه ذات ألوان هادئة، تظهر فيها صورة السيد المسيح وهو يبارك أحد العصاة الراكع أمامه والذي يحني رأسه أمامه في خضوع، أم أن الشخص المنحني هو مجرد شخص يصلي؟

„لن أتمكن من الحضور اليوم".

وفي السابعة مساءً أتى أندرياس، القارئ الشغوف لمؤلفات هولدرلين، والذي حضر أخيرًا من رحلته العلاجية لزيارة ريتشارد، كان الاتفاق أن يشاهدوا فيلمًا سويًا ولكنهما جلسا في المطبخ وشربا الجعة.

قال ريتشارد: المشكلة أنك لا تستطيع أن تجزم أنه الفاعل.

رد عليه أندرياس قائلًا: هكذا تنمو الأشجار في الغابة، وعلى الرغم من سنها المتقدمة، فإن إحداها لا تعرف الأخرى.

- هل سمعت عن قطة شروندجر؟

- هل تقصد تلك القطة التي تم حبسها في مكان التعذيب؟

- نعم، بالضبط، بالنسبة لموتها فإن الاحتمالات حتى الآن تصل إلى 50 بالمائة، هل تعتقد أن السارق هو عازف البيانو الخاص بي؟

- لا أستطيع أن أجزم.

- كنت أجلس معه هنا قبل يومين نأكل، مثلما نجلس أنا وأنت الآن، كنا نشرب الشاي للمرة الأولى سويًا.

أومأ أندرياس برأسه، وشرب ريتشارد من زجاجته وكذلك أندرياس.

- شربنا الشاي سويًا، وكنت أعتقد أنها المرة الأولى، في حين كان يعتقد هو أنها المرة الأخيرة.

أومأ أندرياس برأسه.

استطرد ريتشارد قائلًا: ربما يكون هو، وربما لا يكون.

قال أندرياس: بدأت البارحة مرة أخرى في قيادة الدراجة للمرة الأولى منذ فترة طويلة، لم أكن -أيضًا- أعتقد أنني سأستطيع ذلك مرة أخرى.

أومأ ريتشارد قائلًا: كل شيء يذهب ويجيء ويذهب ويجيء، ولكن حتمًا سيأتي الوقت الذي يذهب فيه الشيء للأبد وبلا عودة،

الآن فقط فهمت لماذا يطلقون عليها „دالة الموجة”، والموت هو ما يطلقون عليه „انهيار دالة الموجة”.

رد أندرياس: „انهيار دالة الموجة”؟ قد يكون هولدرلين هو من أطلق هذا المصطلح.

قال ريتشارد: القطة ستعرف، إن كانت حية أو ميتة.

„من الممكن أن نفترض هذا، ولكن شرودينجر قال: إلى أن نفتح الصندوق يظل الافتراضان قائمين: أن تكون حية أو ميتة، هل تفهم هذا؟

ثم شرب أندرياس رشفة أخرى من الجعة.

وهنا تذكر ريتشارد صندوق الموسيقى الذي حطمه السارق، أيًا كان من هو، أثناء بحثه عن المال، وهل أصيب فعلًا بخيبة الأمل حين وجده خاويًا إلا من أسطوانة من الصفيح التي تحمل الترس الذي يدار بالزمبرك ليلعب القطعة الموسيقية المعروفة للدوق ريجوليتو: المرأة المتقلبة.

- الأشياء موجودة على أي حال، سواء فتحنا الصندوق أو لم نفتحه.

- هذا غير مؤكد، فكيف لك أنت تعرف إن كانت موجودة أم لا؟.

بدا على ريتشارد الآن أنه غير راضٍ بالمرة.

ثم استطرد قائلًا: أفهم.

وأتبع هذا برشفة جديدة من زجاجة الجعة التي أمامه، كانت زوجته في الآونة الأخيرة قبل وفاتها تشرب دائمًا نوعًا واحدًا من الشراب وهو الشانتريه؛ لأنه كان الأرخص.

قال أندرياس: في أثناء رحلتي العلاجية كنت أتنزه على البحر ولم يحدث ولا مرة „انهيار لدالة الموجة".

حاول ريتشارد أكثر من مرة مقابلة أوزاروبو، اقترح عليه في إحدى المرات أن يلتقيا في المقهى الذي كانا قد التقيا فيه للمرة الأولى وتحدثا سويًا، وافق أوزاروبو، وكالعادة ذهب ريتشارد وجلس هناك وحيدًا يحتسي كوبًا من النعناع المغلي لتصله الرسالة المعتادة: „آسف لن أستطيع الحضور اليوم"، ثم أتت النادلة لتأخذ الحساب: „2.80 يورو".

وفي المساء رأى أن أوزاروبو قد غير صورة صفحته على الإنترنت مرة أخرى إلى رسمة، يظهر فيها النبي دانيال في وكر الأسود، يقف النبي دانيال فيها ويداه مكبلتان أمام الأسود التي لا تجرؤ على أن تمسه بسوء، إذا كان الله معنا فمن ذا الذي يجرؤ على معاداتنا؟ (الرب راعٍ فلا يعوزني شيء).

وفي المحاولة الأخيرة كتب له ريتشارد: „إذا كنت تريد أن تقول

لي شيئًا فسأنتظرك غدًا في ميدان ألكسندر عند الساعة الثالثة".

وجاءه الرد المعتاد: „بالطبع، أراك غدًا".

ركب ريتشارد المترو واتجه إلى ميدان ألكسندر حيث من المفترض أن يلتقي أوزاروبو ولكن في الثالثة وخمس دقائق تلقى الرسالة المعتادة بلغة ألمانية رديئة مختلطة بالإنجليزية: „أنا بالمنزل الآن، فالثلج يتساقط".

كان الثلج يتساقط فعلًا، وقف ريتشارد حاملًا هاتفه المحمول تحت ساعة العالم الشهيرة الواقعة في ميدان ألكسندر بالعاصمة الألمانية برلين، تلك الساعة التي طالما التقى عندها بأصدقائه عندما كان شابًّا، ماجادان، دبي، هونولولو، ترى كم الساعة الآن في نيامي، عاصمة النيجر؟

استطاع أن يستجمع نفسه ويتجه نحو منزله محملًا بكمٍّ هائل من الغضب، وبمجرد أن جلس أمام شاشة جهاز الكمبيوتر المظلمة في منزله تذكر روح أوزاروبو التي انطلقت الآن، إلى مكان ما في هذا الكون حيث لا توجد قواعد، حيث لا يكترث أحد لأحد، ولكن -أيضًا- وبالتأكيد حيث يكون الإنسان وحيدًا، وفي نفس الوقت يبقى ريتشارد على الأرض مع أناس مثل مونيكا ويورج، ذي الشارب، وتخيل أسنانهما المسنونة مثل أسنان الأسود في صورة البروفايل الخاصة بأوزاروبو وهما يسخران منه قائلين: „لقد قلنا لك منذ البداية!"، بكى ريتشارد، كما لم يبكِ

منذ وفاة زوجته.

„أم أن أوزاروبو لم يكن هو الفاعل؟"

53

قال قارون، إن الأشباح اصطحبتهم فقط حتى سواحل إيطاليا، فهي لم تنتقل لأوربا، رأى قارون ثلاثة أحلام فور عودته إلى لامبيدوسا، ولم يحلم بعدها قط، طالبت الأشباح - أيضًا - بنصيبها عند المعبر، لهذا لم يكن من الأهمية بمكان أن يتم منع شخص فقد عقله من الإلقاء بنفسه في المياه، واستطرد قارون قائلًا، إن هناك معجزة حدثت مرة واحدة، فقد سقط رجل من المركب إلى المياه، إلا أن قائد المركب لم يكن لديه أي وقت يضيعه في العودة فما كان منه إلا أن أوقف محركات المركب فقط، وقام بعض الركاب بالنداء بصوتٍ عالٍ على الرجل الذي سقط، لربما يكون ما يزال على سطح المياه إلا أنه لم يكن له أي أثر، فعمَّت لحظة صمت، صحبها هدوء تام للبحر الذي بدت صفحته كالمرآة، وفجأة ظهر اثنان من الدلافين يسبحان بسرعة في اتجاه المركب ويحملان بينهما الرجل الذي كان مغشيًا عليه وأعاداه إلى المركب مرة أخرى، حتى تمكن الركاب من سحبه مرة أخرى إلى سطح المركب، وعاد الرجل لوعيه، كانت هذه معجزة بمعنى الكلمة، وبعد قليل، حدث عطل مفاجئ في محرك المركب، وعندها لم يكن هناك من له دراية بمحركات المراكب سوى هذا

الرجل الذي كان قد سقط منذ قليل في المياه وتم إنقاذه، وتمكن من إصلاح المحرك.

واستطرد قارون قائلًا: لولاه كنا جميعًا في عداد الموتى.

بدا الأمر وكأن قارون قد ظهر من العدم خلال الثلج الذي يتساقط بكثافة شديدة ليقف فجأة أمام نافذة غرفة المكتب الخاصة بريتشارد وطرق بخفة على باب الشرفة، وجلسا سويًا يحتسي كل منهما كوبًا من الليمون الساخن حول منضدة غرفة المعيشة.

قال ريتشاد: لقد كدت أنسى تمامًا، أرسل لي صديقك صورة لعائلتك.

بنفس الطريقة السابقة التي وصلت بها من قبل صور الأرض وعقود الشراء، وصلت بالأمس لهاتف ريتشارد صورة بها والدة قارون وأخواه الأصغر سنًا وأخته التي لا تزال في سن المراهقة، وقفت السيدتان مرتديتان ثوبين بألوان زاهية، ارتدت والدته ثوبًا طويلًا باللون البنفسجي الغامق، بدت فيها شديدة الجدية والرشاقة، والأخت لم تكن تنظر إلى الكاميرا، هل يا ترى بسبب الخجل؟ أم أن كبرياءها يمنعها؟.. أخت كهذه.. دار كل هذا بخلد ريتشارد، ثم سأل فجأة: „ما اسمها؟”، وأشار بسبابته إلى الفتاة الشابة. فرد قارون قائلًا: „سالا ماتو”.

وبعد مقارنة سريعة مع السيدتين فإن إخوة قارون الشباب بدا عليهم البؤس الشديد، فقد ارتدوا تيشيرتات وبنطلونات بها عدة ثقوب، والكتف الأيسر للأخ الأكبر يعلو عن مستوى الكتف الأيمن، ربما يكون لديه عيبًا خِلقيًا، أما الأخ الأصغر فقد ارتدى تيشيرتًا مكتوبًا عليه كلمة „كالاهاري"، ولأن صحراء كالاهاري تبعد كثيرًا عن المكان الذي تسكن فيه عائلة قارون، فهي تبعد تقريبًا نفس المسافة التي تبعدها برشلونة عن مينسك، فلهذا اعتقد ريتشارد أن هذا التيشيرت لم يشتره الأخ في إفريقيا بل جاءه عبر طريق طويل قد يكون عبر هانوفر، فرايبورج، أو برلين شارلوتنبورج، ظهرت في الصورة والدة قارون وأخواته تحت مظلة أحد المنازل الرمادية التي لها سور وبابان معلقان بشكل مائل، ولكن لا توجد أي نوافذ.

جلس قارون في غرفة المعيشة على الأريكة حاملًا الهاتف المحمول الخاص بريتشارد وحملق في الصورة، في الوقت الذي كانت تتساقط فيه الثلوج في الخارج، كان ريتشارد في تلك الأثناء يفكر في كرات الثلج الصناعية التي يجب هزُّها حتى يستطيع المرء الحصول على شكل هطول الجليد، حيث يتخفى الشتاء بداخلها.

قال قارون: لقد قمت بإصلاح هذا العامود الذي ترتكز عليه المظلة بنفسي، لا زلت أذكر هذا.

نظر ريتشارد للصورة مرة أخرى، حقًّا إنه يرى الآن أن العامود كان مكسورًا في مكان ما وتم إصلاحه بواسطة قضيب من الحديد، إنه إصلاح بدائي، ولكنه تم مؤخرًا، ومنذ ذلك الحين لم تعد عائلة قارون على مقربة منه، وأصبح يرى أن قربهم صار مستحيلًا تمامًا.

أشار قارون إلى العتبة، الواقعة تحت المظلة قائلًا: يوجد الكثير من المياه في الوقت الذي تتساقط فيه الأمطار، لهذا نحاول أن نرفع المنازل قليلًا، توجد ثلاث غرف بالمنزل، ولكن في وقت هطول الأمطار يصبح من الصعب السكن فيها كلها ما عدا غرفة واحدة لأن الغرفتين الأخريين دون سقف ولهذا تغرقان تمامًا، لم يتمكن أبي من إتمام بناء المنزل قبل وفاته.

فسأله ريتشارد: كيف كانت تُبنى البيوت في الماضي؟

- من الطمي؛ ولكن عندما تحدث به بعض الشقوق فإن الثعابين تدخل فيها ويصبح الأمر خطيرًا، وحتى عندما تحاول إصلاح تلك الشقوق فإن الإصلاح لا يدوم لفترة طويلة وتظهر مرة أخرى، أما الأسقف فقد كانت تصنع قديمًا من البوص أو جريد النخيل، ولكنها لم تكن آمنة كذلك فيكفي أن تقذف فوقها بعود ثقاب لتشتعل كلها.
- ما الذي يجعل أحدهم يلقي بعود ثقاب؟
- كان من الصعب أن نصل لحل لهذا اللغز.

- والآن هل أصبحت الأسقف تصنع من الطوب؟

- كلا، بل من الصاج، ولكنه خفيف جدًّا، فكنا نقف كلنا رابطين السقف بالحبال ومحاولين أن نثبته لكي لا يطير حينما تأتي الأعاصير الشديدة وقت هطول الأمطار، كنا نقف نحن الخمسة فعلًا سويًا لكي لا يطير السقف، وكنا نخشى دائمًا وقت الأعاصير، في الخارج؛ لأن كل شيء من حولك يطير، وفي الداخل؛ لأننا نخشى أن يطير السقف ويحملنا معه بعيدًا.

54

في أوائل شهر فبراير تلقّى كل الرجال من مجموعة ميدان أورانين، الموجودون في ألمانيا دون أن يقدموا طلبًا للجوء، خطابات من مصلحة شؤون الأجانب، فقد تم التحقق من ظروف كل حالة على حدة، واتضح - وهو ما كان معلومًا بالفعل في الخريف الماضي عندما تم إخلاء الميدان - أن إيطاليا وحدها مسؤولة عن الرجال الذين وصلوا إليها.

وبالتالي فإن علي القادم من تشاد، والذي كان يرعى والدة أنّا، يجب عليه أن يرحل.

وخليل، الذي لا يعرف أين توجد بقية عائلته، أم هل ما زالوا على قيد الحياة، عليه أن يرحل.

وزانى، الذي فقد إحدى عينيه، والذي كان يجمع المقالات التي تتحدث عن المذابح التي تقع في بلاده، عليه أن يرحل.

يوسف، القادم من مالي، والذي كان يعمل في غسيل الصحون، ويحلم بأن يصبح يومًا مهندسًا مرموقًا، عليه أن يرحل.

وهيرميس، صاحب الحذاء الذهبي، عليه أن يرحل.

عبد السلام، المغني صاحب النظرة الساحرة، عليه أن يرحل.

محمد، الذي كان يجعل بنطاله منزلقًا حتى منتصف مؤخرته، اتباعًا للموضة، عليه أن يرحل.

يايا، الذي قطع سلك الجرس، حتى يوقف تجربة الإنذار، عليه أن يرحل.

وكذلك روفو، الذي يوجد لديه حشو في أسنانه.

يجب أن يرحل أبولو، الذي كان يقطن في صحراء النيجر، في تلك المنطقة، التي تنقب فيها فرنسا عن اليورانيوم.

يجب أن يرحل تريستان.

وقارون يجب أن يرحل، ذلك النحيف.

ويجب أن يرحل - أيضًا - إيتمبا الطويل، الطاهي الماهر.

عندما طُلب من إيتمبا ترك غرفته، قام بقطع شرايين يده أمام الموظفين وتم نقله إلى المصحة النفسية.

كما يجب أن يرحل رشيد أيضًا.

وفي يوم الاثنين، الذي تلقى فيه الخطاب، قام بإلقاء البنزين على نفسه في ميدان أورانين وأراد إشعال النار في نفسه؛ فإلى أين يذهب شخص، لا يعرف أصلًا، إلى أي مكان يتجه؟

إلى أين يذهب شخص، لا يعرف أصلًا،

إلى أي مكان يتجه؟

منحت الكنيسة شقة مكونة من غرفة ونصف لسبعة رجال، تلك الشقة التي تركها أحد فاعلي الخير كوقف خيري للكنيسة، وضعت لهم في الغرفة الكبيرة سبع مراتب، والغرفة الأصغر كانت مخصصة لحقائب الظهر والحقائب الأخرى والأكياس، وقد نصحهم رجال الكنيسة بعدم رفع ستائر النوافذ؛ لأن الشقة تقع في الطابق الأرضي ولا أحد يعلم إن كان أحد المارة سيلقي نظرة إلى الداخل في أي وقت.

ونقلت الكنيسة خمسة عشر رجلًا إلى سطح أحد البواخر، التي تُستخدم صيفًا في الرحلات، في حين ترسو في الشتاء على شاطئ نهر الشبريه بمنطقة تريبتاو، وهناك حصل بعضهم على كبائن مزدوجة، في حين حصل آخرون على أسِرة من طابقين تبرع بها البعض ليناموا عليها في غرفة كبيرة مشتركة، كان يتم فيها الطهي والأكل أيضًا، وكانت التدفئة على متن باخرة سياحية كهذه شبه مستحيلة.

وتم السماح لأحد عشر رجلًا بالسكن في منزل كان يُستخدم

في حالات الطوارئ مملوك لإحدى المؤسسات الخيرية يقع في وسط برلين، وهو عبارة عن: غرفة كبيرة بها مطبخ ومنضدة طعام تراصت حولها المرتبة إلى جوار الأخرى.

وسُمح لاثني عشر آخرين باستغلال قاعة الاجتماعات الخاصة بالكنيسة في برلين كرويتسبرج.

وستة عشر رجلا تم تسكينهم في قاعة الاجتماعات الخاصة بالكنيسة في برلين أدلرسهوف، ولكن حتى شهر مارس فقط، هذا على أقصى تقدير.

وقام أعضاء الكنيسة وبعض القساوسة باستضافة 14 آخرين، تم نعت هؤلاء القساوسة والمساعدين بأقذع الألفاظ على شبكة الإنترنت.

وتمت استضافة 27 آخرين من قِبل أصدقائهم الأفارقة المقيمين بصورة شرعية في برلين.

وسُمح لرجل واحد بالمبيت داخل أحد المطاعم النيجيرية في برلين نويكولن.

وأحدهم على أريكة إحدى موظفات التأمينات.

وسُمح لآخر بالسكن في غرفة داخل شقة مشتركة خاصة بأحد الطلاب، كان يدرس في تلك الأثناء لمدة فصل دراسي في جامعة

كمبريدج.

وتم إيجاد مكان لشخص واحد في شقة مُخرج، كان يقوم آنذاك بجولة فنية.

عندما طُلب من بعض الناس مد يد العون لهؤلاء الرجال، كان الرد يأتي مختلفًا كل مرة، فأحدهم قال: „لقد سمعنا أن هؤلاء الناس يعانون من صدمات نفسية، فهل نثق في أنهم لن يحطموا أثاثنا؟".

وقال ثانٍ: „حتى لو مددنا لهم يد العون، فهذا لن يحل المشكلة".

أو: „حتى إذا وفرنا لهم المأوى فإن هذا لن يكون في مصلحتهم؛ لأن المنطقة هنا تعج بالنازيين".

أو: „حتى لو سمحنا لهم بالمبيت عندنا فمن أين سيكسبون لقمة عيشهم؟".

أو: „من الممكن أن نتعاون معكم بشكل مؤقت، ولكن تلك المشكلة لا يلوح لها حل على المدى القريب".

أو: „من الممكن أن أسمح لأحدهم بالعيش هنا، ولكن الأمر لا يستحق، فسيظل هناك الكثيرون غيره بلا مأوى".

قال سكان برلين، على لسان ممثلهم وزير الداخلية، نفس ما قالوه قبل عامين، حينما قدم هؤلاء الرجال من إيطاليا إلى

ألمانيا، ليعيشوا في الخيام التي أقاموها من أجل هذا الغرض في ميدان أورانين، وما أكدوا عليه كذلك قبل ستة أشهر، عندما أخلوا الميدان: „لماذا لا يتم تفعيل معاهدة دبلن الثانية، التي تحدد المسؤوليات؟" ـ وقالوا: „إن لنا الحرية في تفعيل المادة رقم 23، ولكن لأن لنا الحرية فإننا لا نقوم بتفعيلها".

تم استثناء اثني عشر رجلًا فقط من بين الحالات الأربعمائة وست وسبعين، وكان من بين تلك الحالات ثلاثة من أصدقاء ريتشارد؛ فقد حصل تريستان، بناء على توصية طبية من الطبيبة النفسية المعالجة له، على مهلة لمدة ستة أشهر، وبناء عليه كان له الحق في الحصول على مكان في مأوى، وكان بإمكانه أن يعُد نفسه من المحظوظين لأنهم أسكنوه في مأوى، وكان أول صاحب بشرة سمراء يسمح له بالبقاء في مأوى المشردين في برلين ليشتنبرج، والذي كان في السابق مدرسة، وذلك لأن أماكن إيواء اللاجئين نادرة جدًّا. كان عليه أن يعيش في نفس الغرفة مع اثنين من الألمان السِّكِّيرين وأن يقتسم دورة المياه مع ثلاثين آخرين. قال تريستان معلقًا على هذا الوضع بلغة إنجليزية سليمة: „هذا الوضع ليس سهلًا، هذا الوضع ليس سهلًا". كانت الغرفة مكونة من ثلاثة أسِرة، ومنضدة، وخزانة ملابس، وجهاز تلفاز. عندما ذهب ريتشارد لزيارته وجد ثلثي تلك المنضدة مليء بمخلفات الطعام، والزجاجات، وفتات الخبز، في حين بقي الثلث الأخير، وهو الجزء الخاص بتريستان، خاويًا تمامًا ونظيفًا لأقصى درجة، ربت أحد زملاء الغرفة على كتف تريستان قائلًا:

„إنه صديقي"، فرد عليه تريستان بالإنجليزية قائلًا: „نعم، نعم، إنه صديقي". وحكى تريستان لريتشارد أن المشكلة تكمن في الليل، حيث يبدؤون بالصراخ والشجار حتى مع بعضهم البعض. رأى ريتشارد في طريقه للخارج مائدة بجوار حارس العقار وضعت عليها شطائر تشتهر بها مدينة برلين، وذلك من أجل التسرية عن المشردين بمناسبة اقتراب الكرنفال، ولكن تريستان لا يعرف طعم تلك الشطائر فقد أشار إلى السكر الموضوع عليها وقال: „إنها مليئة بالسكر"، ثم ودع ريتشارد يومها قائلًا له كعادته: „اعتنِ بنفسك"، وعاد مرة أخرى إلى المأوى الذي سمح له بالبقاء فيه بعد الصدمة النفسية الشديدة التي كان قد تعرض لها، ذلك المأوى الذي يتقاسمه معه الكثير من الألمان من الفقراء والمشردين والمدمنين والمضطربين عقليًا.

أما إيتمبا الطويل فقد قضى بضعة أيام في المصحة النفسية، والتي كرر فيها أكثر من مرة رغبته في العودة إلى إفريقيا، وبناء على التقرير الطبي الذي كتبه الطبيب المسؤول عن علاجه فقد سُمح له بالبقاء لأربعة أسابيع أخرى، والتي قد يمكن تمديدهم لعدة مرات أخرى، وإن كان هذا غير مؤكد، وتم توزيعه ليكون من سكان المركب.

قال إيتمبا: „إنهم أناس غير طيبين"، قاصدًا الناس الذين يجب عليه أن يسكن معهم الآن، „كما أن المرحاض لا يعمل بطريقة صحيحة، فالرائحة لا تُطاق".

وبالنسبة لمفرق ضربات البرق فقد حصل على فترة سماح وصلت إلى ستة أشهر، وذلك بسبب مرض القلب الذي يعاني منه، هذا إلى جانب حالته النفسية، كما حصل - أيضًا - على غرفة في البيت التابع لنقابة العمال.

حمل ريتشارد، بمعاونة كل من ديتليف وسيلفيا، المنضدة الكبيرة المستديرة الموجودة في المكتبة ووضعوها جانبًا، وبهذا تمكن أربعة رجال من المبيت هناك فوق السجادة الحمراء الفارسية الكبيرة، أما في غرفة الموسيقى فقد استطاع أحدهم النوم تحت البيانو وآخر إلى جواره: مكانان آخران. ووجد ريتشارد كذلك مرتبتين هوائيتين في قبو بيته. وبالنسبة للرجال الآخرين فقد أعد لهم ريتشارد بعض الأغطية ووضع بعضها فوق بعض وناموا عليها وكان فيها حماية لهم من البرد القارص، ونام رجلان كذلك على أريكة غرفة المعيشة وآخر على كرسيين وضعهما ريتشارد بشكل متقابل، وحمل ريتشارد بمعاونة أبولو وإيتمبا سرير زوجته إلى حجرة الضيوف؛ ووفر بذلك ثلاثة أماكن أخرى.

أما سيلفيا وديتليف فقد قالا إن غرفة الضيوف لديهما يوجد به مدفأة صغيرة تعمل بالخشب، فإن لم يضايق الرجال أن يكون عليهم إبقاء النار دائمًا مشتعلة للتدفئة، فإنه ليس لديهما أي مانع من استضافة ثلاثة رجال هناك، وكان هذا مناسبًا تمامًا للاعبي البلياردو الثلاثة.

أما طليقة ديتليف والتي تمتلك متجرًا لبيع جميع أنواع الشاي في مدينة بوتسدام التي تقع على مقربة من برلين فقد قالت إن متجرها يكون مغلقًا ليلًا، وليس لديها أدنى مانع من أن ينام أحدهم في الغرفة الخلفية للمتجر، ولكن في النهار سيكون عليه ألا يدخل ويخرج كثيرًا؛ إلا أن زوجها قال لها: „لكنك قد تخسرين تجارتك إن فعلتِ هذا"، فردت عليه طليقة ديتليف قائلة: „كان إخفاء الناس في الماضي يُعاقَب عليه بالإعدام، وعلى الرغم من ذلك كان هناك من يفعل هذا"، فرد زوجها قائلًا: „عندك حق كالعادة"، وبهذا وجد هيرميس، صاحب الحذاء الذهبي مكانًا في محل الشاي ببوتسدام.

وكان من الطبيعي أن يسكن علي عند أنّا، فقد قالت أنّا: „إنه يشعر عندنا بأنه في بيته، حتى أنه إذا أحضر معه صديقه يوسف فلن تكون هناك مشكلة في ذلك".

وحتى أندرياس، قارئ هولدرلين الشغوف فقد قال: „للأسف لا أمتلك مكانًا لإيواء أحدهم في غرفتي، ولكني أستطيع تقديم جهاز الكمبيوتر الخاص بي ليستخدمه أحدهم نهارًا".

أما توماس، أستاذ الاقتصاد، فقد قال: „بإمكان ثلاثة أفراد أن يسكنوا في شقتنا الصغيرة، ذات الغرفة الواحدة، في برينتسنلاور بيرج، فنحن لا نستخدم تلك الشقة نهائيًا، سوف أخبر زوجتي لاحقًا".

أما عالم الآثار، الذي حصل على وظيفة أستاذ زائر بإحدى الجامعات في مصر، ولن يعود قبل مايو القادم، فقد قال لريتشارد إن مفتاح شقته موجود لدى الجيران.

أما ماري، صديقته الشابة، ذات العشرين ربيعًا، فقد عرضت أن ينام أحدهم لديهم في الشقة المشتركة على الأريكة الموجودة بالمطبخ.

وبالطبع لم يخطر على بال أحد أن يسأل مونيكا ويورج، ذا الشارب.

وبهذه الطريقة حصل مائة وسبعة وأربعون من أصل أربعمائة وست وسبعين على مكان للمبيت.

أما مصير الثلاثمائة وتسعة وعشرين الآخرين فظل غير معروف بالنسبة لريتشارد.

كانت الكنيسة تعطي لكل رجل من القاطنين في أماكن الإيواء التي خصصتها لهم خمسة يورو يوميًا، وذلك من أموال التبرعات، ولكن هذه الأموال لم تكن لتكفي بالطبع للسفر إلى إيطاليا حين انتهت فترة السماح الممنوحة لهم. وقد حسبها ريتشارد، فقد كان يريد أن يفعل مثلما تفعل الكنيسة، إلا أنه وجد أنه سيحتاج شهريًا لألف وثمانمائة يورو ليتمكن من فِعل هذا.

فكر ريتشارد في أن يلحقهم ببعض الأعمال البسيطة لكي

يحصلوا على مقابل مادي يعينهم على معيشتهم، مثل أن يقوم أحدهم بمساعدة إحدى صديقاته في أعمال التنظيف بمنزلها، أو يقوم آخر بطلاء بعض الجدران، أو يساعد ثالث الجارة العجوز ويزيح الجليد عن مدخل منزلها، أو يساعد رابع في تقطيع الأخشاب، ولكن ريتشارد اصطدم بالإجابة الموحدة: „دون أوراق؟ للأسف لا نستطيع أن نفعل ذلك".

فكر أندرياس أن يقوم بالتعاون مع طليقة ديتليف بتنظيم أمسية أسبوعية لعرض الأفلام في محل الشاي الخاص بها ببوتسدام، على أن يُقَدَم بعد نهاية العرض بعض الطعام الإفريقي، حتى يتم من خلال ذلك جمع تبرعات طواعية، إلا أن المشاهدين الذين شاهدوا الأفلام، ثم أكلوا الطعام ومعه مشروب غازي أو زجاجة جعة أو كأس من النبيذ، لم يدفعوا في الأغلب سوى خمسة يورو، فإن كان عدد المشاهدين قد بلغ نحو خمسة عشر، فإن الإجمالي يصبح خمسة وسبعون يورو في الليلة، وبعد خصم ثمن شراء المشروبات، والأرز، والكسكسي، والخضراوات، ولحم الأبقار والغنم، لم يكن يتبقى لإيتمبا ومعاونيه سوى خمسة عشر يورو لكل منهم.

ساعد توماس ريتشارد في فتح حساب بنكي لجمع التبرعات، ولكنه حذره من الوقوع تحت طائلة قانون غسيل الأموال، الذي يحتم عليه إثبات ما ينفق فيه تلك الأموال، ولكن ريتشارد أكد معرفته بهذا الأمر. كما قام ريتشارد بعمل بعض الدعاية في دائرة

معارفه، وأخبرهم بأنه أصبح لديه حساب لجمع التبرعات ولكن الإجابة المعتادة كانت تأتي: „فعلًا، هذا مثير للاهتمام، ولكن هل تصدر إيصالات بالتبرعات”، وكان ريتشارد يرد بالنفي، لذلك كان قليلون فقط هم من يقوموا بعمل التحويلات للحساب؛ وكان سبب عزوف الآخرين هو أن التبرعات دون إيصال لا يتم خصمها من الضرائب التي يدفعونها للدولة. كانت توجد بالطبع بعض الحالات الفردية، وما يأتي كان على الأقل أفضل من لا شيء.

والشيء الوحيد الذي كان مدفوعًا من الحكومة لهؤلاء الرجال، الذين لم يكن وجودهم مسموحًا به أصلًا، كان دورات اللغة الألمانية، وكانت الدورات قد بدأت قبل خمسة أشهر حينما تم إيجاد ملجأ لهم في دار المسنين: ذهب، يذهب، ذهابًا.

وقبل أربعة أشهر انتقلوا إلى شبانداو، ولم يتمكنوا من حضور الكثير من المحاضرات بسبب مقابلات دراسة الحالة التي كانت تتم وقتها، ثم بدؤوا مرة أخرى: ذهب، يذهب، ذهابًا.

وقبل شهر، حين صعد الأصدقاء إلى سطح المنزل وجلسوا أمام بعض النيران التي أشعلوها للتدفئة، بدلًا من أن يذهبوا لتلقي محاضرة اللغة، كان عليهم أن يبدؤوا من البداية مرة أخرى: ذهاب، يذهب، ذهب.

ولم يعد يذهب إلى محاضرات اللغة مرتين أسبوعيًا سوى قليل منهم ليبدؤوا كل مرة من جديد: ذهب، يذهب، ذهابًا.

جلس روفو على مكتب ريتشارد أمام الكشكول الخاص به وقال: أنا نذهب.

فنظر إليه ريتشارد من فوق كتفه وقال مصححًا: أنا أذهب.

فرد روفو: أنا نذهب.

كلا، بل أنا أذهب.

فقال روفو: أريد أن أحطم قيود الأفعال الألمانية.

وفكر ريتشارد في أن فعل أحطم، فعل جميل فعلًا.

استضاف ريتشارد روفو في مكتبه، كما استضاف معه - أيضًا - عبد السلام المغني، الذي كان سعيدًا بتمكنه من ترك المطعم النيجيري أخيرًا والحصول على مكان لدى ريتشارد، وحصل يايا - أيضًا - عند ريتشارد على مكان، فلم يعد يخشى من انطلاق صوت صافرات الإنذار، وكذلك صديقه موسى، صاحب الوشم الأزرق على وجهه.

أما غرفة الضيوف فسكنها: خليل، الذي لا زال لا يعلم إن كان أهله على قيد الحياة، وصديقه محمد، الذي يحب أن يخفض بنطاله، وإيتمبا الطويل، الذي أحضره ريتشارد من ملجأ المركب ذي الرائحة القذرة، وعيَّنه طاهيًا للجميع.

ونام كل من أبولو وقارون في غرفة الموسيقى، في حين نام

تريستان على الأريكة في غرفة المعيشة إلى جانب زعير الذي كان يسكن مع رشيد على المركب، وارتدى من أجل الانتقال لدى ريتشارد أفضل قمصانه.

وبعد مفاوضات طويلة مع مكتب الشؤون الاجتماعية، تم الاعتراف ببيت ريتشارد كملجأ، مما مكَّن تريستان من الانتقال إليه وترك ملجأ المشردين الذي كان يسكنه، وأخيرًا كان زانى ينام على الكرسيين المتقابلين في غرفة المعيشة، وكان كثيرًا ما ينظر في حافظة أوراقه، متذكرًا المذابح التي تقع في وطنه.

وكان الأفارقة - في وقت فراغهم من الأعمال المؤقتة التي كانوا يقومون بها بين الحين والآخر أو عندما لم يكونوا في اجتماعات - ينامون لفترات طويلة، وحتى عندما يستيقظون، كانوا يبقون على مراتبهم، أو كانوا ينعسون ثانية، أو يلهون قليلًا على هواتفهم، أو يشاهدون فيلمًا على الإنترنت على أحد أجهزة الكمبيوتر القديمة التي أعطاها لهم ريتشارد، وفي أحيان أخرى يصلُّون، أو يذهبون إلى المدينة، حيث يلتقون أصدقائهم، وعندما كان أصدقاؤهم يسألونهم عن أحوالهم، كان إيتمبا يقول: „جيد نسبيًا"، وفي بعض الأحيان كان خليل ومحمد يصطحبان ريتشارد معهما إلى الملهى الليلي، الذي ترقص فيه سيدات في الستين من العمر، وهن ترتدين ملابس قصيرة، مع شباب إفريقي في العشرين من أعمارهم، واصطحب قارون ريتشارد ذات مرة إلى جنازة أحد سكان برلين من أصول غانية، واضطر وقتها قارون، باعتباره

لاجئ ولا ينتمي للعائلة من الجلوس في الصف الأخير.

علق قارون على هذا قائلًا: يبدو أن الناس التي شبت هنا، تنسى سريعًا ثقافتها وتقاليدها، السلوك الجيد.

أما ما كان غير ذلك؟ فقد كان الجميع يجتمع في مطبخ ريتشارد ليلًا، عندما كان الطعام الذي أعده إيتمبا يوضع على المائدة.

شكر إيتمبا ريتشارد على إعطائه مبلغ خمسين يورو أسبوعيًا لتوفير الطعام.

وكان ريتشارد في البداية يأخذ طبقه منفردًا ومعه سكينًا وشوكة، في حين كان الآخرون يقفون حول مائدة الطعام ليأكلوا مباشرة من الإناء الذي وضع فيه إيتمبا الطعام، أما مؤخرًا فقد أصبح ريتشارد يأكل مثلهم من إناء الطعام مباشرة، فيأخذ بيده بعضًا من الأرز، أو عجينة البطاطا ليسقطها في القدر الآخر الممتلئ بالحساء أو الخضروات التي أحيانًا ما يكون معها بعض قطع اللحم أو السمك، والتي لا يختلف طعمها كثيرًا عن اللحم الذي كانت أمه تعده، بل ربما كان يتفوق عليه في الطعم، وعندما كان يتبقى شيء من الحساء في النهاية كان يأخذه بيده ويرفعه إلى فمه، هل تخيل يوما أنه سيحتسي الحساء بيده؟

كان عبد السلام يقوم في بعض الأحيان بالجلوس في الشرفة ليغني بعض الأغاني وكان يستمع إليه عادة بعض الحضور، كان

يمكن أن تصدح في إحدى ليالي برلين الساحرة على سبيل المثال أغنية مثل:

أمي، آه يا أمي، لقد قام ابنك برحلة مخيفة...

لقد وصلت للشاطئ الآخر...

الظلام يلفني من كل جانب...

لا أحد يعرف ما كان عليَّ أن أتحمله وسط هذا الظلام...

المهمة، غير المكتوب لها النجاح، هي عار...

كيف لي أن أعود هكذا، خالي الوفاض؟

عندما تفشل، فلن يكون لك ولد يحمل اسمك أبدًا...

فالأفضل أن يموت المرء...

على أن يلحقه العار للأبد...

أرواح أسلافنا،

آلهة أسلافنا، احرسوا

إخواننا في الغربة، اهدوهم رحلة عودة سعيدة...

من يعيش في أوربا يفهم أوجاعها.

55

بدأت الأيام الدافئة أخيرًا، وحان وقت إزالة آثار الخريف والشتاء المنصرمين، لم يحتفل ريتشارد بعيد ميلاده منذ وفاة زوجته، ولكنه قرر أن يحتفل هذه المرة، فذهب للمتجر الإفريقي الواقع في منطقة فيدينج، وابتاع قطعًا من اللحم البتلو والمقانق المصنعة من لحم الغنم، وقرر أن يصنع بنفسه سلاطة البطاطس، فقد تعلم منذ فترة كيف يقوم بتقطيع البصل قطعًا صغيرة دون عناء، وقف إيتمبا ليقوم بالطهي وساعده تريستان ويايا، وكان الآخرون قد قاموا بشراء الكسكسي والخبز وجوال كبير من الأرز في الصباح، وكان من ضمن المدعوين: رشيد بالطبع، وأندرياس ـ قارئ هولدرلين الشغوف ـ، وتوماس ـ الخبير الاقتصادي ـ، وماري ـ صديقة بيتر - الذي لم يزل وقتها في القاهرة للأسف فلم يتمكن من الحضور، وكان من ضمن المدعوين بالطبع ماريون ـ طليقة ديتليف - مع هيرمس، وأنّا وبصحبتها علي ويوسف، وديتليف وسيلفيا ولاعبي البلياردو الثلاثة الذين يسكنون لديهما، كان ريتشارد يريد السؤال عن رقم تليفون مدرسة اللغة الإثيوبية الجنسية، إلا أنه استحى أن يسأل عنه.

الغريب أن أوزاروبو قد أرسل برسالة فجأة منذ عدة أيام قال

فيها: "مرحبًا، كيف حالك؟"، وكانت صورة البروفايل لديه هذه المرة عبارة عن مائدة طعام موجودة بالمطبخ محاطة بأربعة كراسي خاوية.

هل كان ينوي السفر إلى إيطاليا، قبل أن يكشف الحقيقة لريتشارد؟

رد عليه ريتشارد سريعًا: „بخير، كيف حالك أنت؟"، وجاءه رد مقتضب: „أنا بخير"، كانت تلك الإجابة تحتمل أكثر من معنى.

فكر ريتشارد: هل ستختفي بعض الآثار بهذه السهولة؟

نظر ريتشارد إلى البحيرة أمامه، وهنا تذكر أن أحد الأشخاص قد لقي حتفه في الصيف الماضي داخل تلك البحيرة، ودار بخلده إن كان منظر البحيرة سيظل يرتبط في ذهنه بالموت، ستظل البحيرة دائمًا هي تلك البحيرة التي لقي فيها أحدهم حتفه، ولكنها ستظل كذلك بحيرة جميلة: تلك البحيرة التي يغطيها الضباب في الصباح، والتي يسبح في مياهها زوج من الإوز يتبعه بعض من فراخه الصغار في فصل الربيع، تلك البحيرة التي يزاحم فيها البوص الجديد السيقان القديمة، بحيرة يطير اليعسوب على شاطئيها، والتي ترسي في قاعها الرملي بعض القواقع، بحيرة بها أعشاب تنساب بينها الأسماك في رشاقة، كما لو كانت في الغابة، بحيرة تشع بريقًا تحت ضوء الشمس، وتمتلئ بالسواد في وقت الأعاصير، وتتجمد في الشتاء لتصبح كالصفحة البيضاء،

وقد تتساقط عليها الثلوج في الشتاء فقط دون أن تتجمد، ربما يقوم ريتشارد بالسباحة فيها في الصيف القادم، ولكن من المؤكد أنه سيجلس سعيدًا على الشاطئ، كما كان يفعل طيلة العشرين عامًا الماضية، لينظر إلى مياهها، قال رشيد لريتشارد في إحدى مناقشاتهما، أن تذكر الحياة السعيدة التي كان يحياها مع عائلته لا يواسيه؛ لأن تلك الذكرى مرتبطة دائمًا بكونه فقدها، وهذا هو الأمر الواقع، كان رشيد يود أن يقطع ذكرياته ويفصلها عن الواقع، اقطع، اقطع، الحياة التي يوجد بها حاضر خاوٍ، ولا يستطيع الإنسان تحملها؛ لأن المستقبل فيها لا يريد أن يتضح، هي حياة شديدة الصعوبة بالطبع، كل هذا دار بخلد ريتشارد؛ لأنها هنا تصبح حياة بلا شاطئ.

قام ريتشارد بوضع غطاء فوق سلاطة البطاطس التي قام بإعدادها وحملها للخارج.

ولكن كانت هناك الكثير من التجهيزات التي يجب إتمامها، قبل أن يبدأ الضيوف في الوصول؛ قام موسى بقص الحشائش، وقام محمد وخليل بجمع أوراق الأشجار المتساقطة، وكنس قارون الشرفة، ووضع روفو بمعاونة عبد السلام الأريكة الثقيلة الخاصة بالحديقة في مكانها على الجسر، وقام ريتشارد -في الوقت الذي كان واضعًا فيه سلاطة البطاطس بالخارج لتبرد- بمساعدة أبولو بإحضار أثاث الحديقة من المرفأ، وكان يجب تنظيفه من آثار بيوت العنكبوت وأوراق الأشجار التي كانت ما تزال عالقة

عليه منذ الصيف الماضي، وأزالوا عنه -أيضًا- أكياس التخزين ونظموه ووضعوه في أماكنه، وقام ريتشارد كذلك بغرس المشاعل -التي وجدها في ركن ناء من المخزن والتي كان قد اشترها مع زوجته، ولم يقم باستعمالها بعد وفاتها- في أرض الحديقة، أما مياه الحديقة فقد تم فتحها لأول مرة هذا العام، حتى يتمكنوا من إطفاء نيران المشواة -في حالة تطلب الأمر ذلك- ولكن يا ترى أين الروابط الخاصة بخرطوم المياه؟ والعربة التي تحمل الخرطوم فقدت كذلك إحدى صواميلها، أما المشواة فيجب تنظيفها جيدًا بالفرشاة المعدنية لإزالة الصدأ عنها، كما يجب إنزال الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين وأكياس القمامة إلى مكان الشواء، وتم وضع المشروبات لتبريدها في البحيرة التي أصبحت خالية من الثلج قبل عدة أيام فقط، هل يوجد ما يكفي من مناشف للطعام؟ هل يوجد ما يكفي من الكاتشب والشموع؟ الخبز، والبطاطس المقلية والمقبلات المملحة، الفاكهة؟ قام قارون بتنظيف الجسر، وقام ريتشارد بتعبئة الفوانيس بالكحول ووضعها على المناضد، وبدأ الضيوف في الحضور، وهنا بدؤوا في إشعال المشواة، والبدء في الشواء، كان على ريتشارد أن يقول بين الحين والآخر: „نعم هذا اللحم حلال"، لأنه يعرف جيدًا: „حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وما أهلَّ لغيْرِ الله بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ".

بدأ الجميع في الأكل والشرب، وقاموا بتوزيع مناشف الطعام والأكواب، قام اثنان بلعب كرة الريشة، وآخرون لعبوا البولينج،

دار هنا نقاش حول إن كان الأفارقة لا يحتسون المشروبات الكحولية، وهناك نقاش حول الخوف من السباحة، ونقاش ثالث حول ما يتم الاحتفال به فعلًا في عيد الفصح أو عيد العنصرة، وعند الغروب قام ريتشارد بإشعال فوانيس الكحول، في حين صاح رشيد قائلًا: „هذا مثل ما نفعله في إفريقيا"، ثم قام برفع أحد الفوانيس وهزه بفخر، بعدها صاحت أنّا ـ المصورة -: „هيا نأخذ صورة جماعية! قبل أن يعم الظلام الدامس!"، هنا بادر رشيد بجلوس القرفصاء أمام أشجار الصنوبر، واجتمع الآخرون حوله مسرعين مكونين دائرة، في حين أمسك مفرق ضربات البرق بفانوس على هيئة مركب كان قد اشتراه من أحد أسواق مستلزمات المنازل في ألمانيا بيده في فخر، لينير به الوجوه السوداء والبيضاء من حوله وهو يشعر وكأنه في بيته وقال: „كما لو كنا في كادونا البعيدة"، ولم يشعر ريتشارد منذ بدأ الحفل بغياب سيلفيا سوى الآن فقط، عندما كان يتأكد من وجود الجميع في الصورة الجماعية، ترى أين هي؟ وديتليف؟ إنه حتى لم يبتسم للصورة.

بعد الصورة جلس الجميع مرة أخرى حول النار التي كانت على وشك الانطفاء، قال أحدهم: „لا زلت أشعر ببعض البرودة ليلًا"، ورد آخر: „سأعيرك سترتي"، وسأل ثالث: „هل تبقى شيء من النبيذ؟"، وقال رابع: „سأقوم بوضع بعض الأخشاب في النار".

قام ريتشارد بالجلوس إلى ديتليف بعد الصورة الجماعية،

وسأله وسط تلك النقاشات الدائرة بصوت منخفض: ماذا حدث لسيلفيا؟

نظر ديتليف لذلك الذي يقوم بوضع المزيد من الأخشاب على النار لتشتعل قائلًا: لقد كانت في الكشف الدوري لها اليوم. ـ ثم ماذا حدث؟ ـ قاموا باحتجازها فورًا، الوضع يبدو سيئًا.

وعلى الرغم من أنه كان يهمس بكلامه وباللغة الألمانية، إلا أن الصمت التام عمَّ بعدما تكلم، وكأن الجميع يعلمون أنه نطق توًّا بأصعب جملة تحدد مصير إنسان.

فقال ريتشارد بصوت عالٍ: ماذا تقول؟

رد رشيد متسائلًا: ماذا هناك؟

- زوجته تعاني من مرض شديد الخطورة.

فقال رشيد لديتليف: آسف من أجلك...

رد ديتليف وهو يعبث بالنار التي أمامه: شكرًا.

وبدأ الجميع في ذكرياتهم حول السيدات التي عرفوهن في حياتهم:

فتذكر أحدهم تلك المرأة التي كانت تُقبِل عينيه.

وتذكر آخر كيف كان يأخذ امرأة في أحضانه.

ويتذكر ثالث كيف كانت إحداهن تعبث بيدها في شعره.

وآخر كيف كانت رائحة نفسها محببة له، عندما كانت تقترب منه.

وتذكر أحدهم كيف كانت تعبث إحداهن بلسانها في أذنه.

وآخر تذكر كيف كان جسم امرأته يبرق عندما كانت تجلس إليه.

وتذكر آخر ملمس شفاه امرأته.

وآخر، كيف كانت تبدو وهي نائمة.

وكيف كانت تتعلق بيده في شغف.

وكيف كانت تبتسم أخرى في حب.

فكر الجميع لوهلة في النساء اللاتي أحبوهن في يوم من الأيام.

قال قارون: عندما كنت في إيطاليا، اتصلت بالفتاة التي كنت أحبها في غانا والتي لم يسمح لي آنذاك الزواج بها، مرتين، ولكنني تخلصت من رقم هاتفها بعدها.

وقال رشيد: كنت أود أن يكون لي طفل، قبل أن أموت.

وحكى تريستان أنه قابل سيدة ألمانية في إحدى عربات المترو

في يوم من الأيام وتعرف عليها، واتفقا على أن يتقابلا مرة أخرى، وذهبا في جولة سويًا وتحدثا كثيرًا، واتفقا أن يتقابلا مرة ثانية، وذهبا في جولة سويًا وتحدثا كثيرًا، وفي المرة الثالثة سألته عما إذا كان يريد أن يقيم علاقة معها، إلا أنه قال أنه غير مستعد لذلك في الوقت الحالي، ولكن من الممكن لاحقًا، „كنت قد فقدت صوابي على الأرجح، وبالطبع لم تأتِ هي في المقابلة الرابعة"، فقال تريستان: الأمر ليس سهلًا.

قال خليل: لو أردنا أن نتحدث بجدية، فإننا ليس لدينا أي فرصة هنا، لقد رأيت هذا بنفسي في أصدقائي من حولي، كانت الصديقات دائمًا ما تضع نهاية للقصة في وقت ما، أو لا يوافق الأهل، أو أنها تصادق أحد الألمان في النهاية.

قال إيتمبا: نعم هذا هو الوضع، لا أحد يقع في حب لاجئ.

ردت ماري: لا أحد يحب لاجئ؟ أنا لا أعتقد أن هذا صحيح.

جلس ديتليف منحنيًا، ممسكًا بكأس من النبيذ في يده، وهو ينصت لما يقوله الآخرون عن الحب.

قال أبولو: لدي صديقة، لكني لا أريد الزواج منها.

فسألته ماري قائلة: ولم لا؟

فقال: لو تزوجت الآن سيدة ألمانية ستظن أني أتزوجها فقط

من أجل الحصول على أوراق الإقامة.

فقالت ماري: هل فعلًا لن تتزوج من السيدة التي تحبك وتحبها من أجل هذا فقط؟ إنك لا تريد أن يظن أحد أنك تزوجتها فقط من أجل الحصول على أوراق الإقامة؟

رد أبولو بالموافقة قائلًا: نعم.

تذكر ريتشارد ما جال بخاطره عندما زار ميدان أورانين للمرة الأولى، أن الحدود لا تقف كعائق مادي فقط ولكن - أيضًا - كعائق فكري، والعوَز قد يؤجل حتى أبسط الأشياء أو يلغيها تمامًا؛ وتبقى الكرامة، هي الشيء الوحيد الذي يحاول اللاجئ المحافظة عليه ليلًا ونهارًا.

ثم قال ريتشارد متسائلًا: وحتى إن تزوجتها من أجل الحصول على الأوراق، ماذا يضيرك في هذا؟

واستعاد في ذهنه ما قاله القاضي آنذاك: „طفل ألماني، طفل ألماني هو الحل الوحيد، الذي يمكن أن ينقذ هذا الموقف".

رد أبولو: يجب أن يكون هناك ترتيب لهذا الأمر، ففي البداية يجب أن أحصل على عمل، ثم أحصل على سكن، بعد ذلك أستطيع أن أتزوج وأنجب.

قال تريستان: من الممكن أن تحمل السيدة من أي رجل، ولكن

إذا كان هذا الرجل غير صالح، فإن الطفل سيبقى معها، وإن كنت رجلًا، فعليك أن تجد سيدة صالحة لتتزوجها، سيدة تستطيع أن تُكمل حياتك معها إذا حصلت منها على طفل، ولكن أنَّى لي أن أجد تلك السيدة الصالحة؟

فرد ريتشارد مازحًا: من المحتمل وأنت ترقص. ـ وكان يفكر في الرحلة التي اصطحبه فيها إلى الحانة التي كانت ترقص فيها السيدات الستينيات وهن ترتدين الملابس القصيرة.

قال تريستان: أنا لا أذهب لأي حانات.

•ريتشارد: أبدًا؟

تريستان: أبدًا.

قال رشيد الذي ذهب في غفوة قصيرة في أثناء الحديث ثم استيقظ مجددًا عندما أصبح الحديث مثيرًا مرة أخرى: تبحث الأمهات في نيجيريا لأبنائهن عن زوجات، فهن يعرفن أي السيدات صالحات، ولكن هنا؟ أنا لا أعرف كيف أحدث سيدة أصلًا، لن أفعل هذا مطلقًا.

سأل ديتليف ريتشارد سؤالًا مباغتًا بعد مضي خمس سنوات على رحيل كريستل: هل لا زلت تفكر كثيرًا في كريستل؟ ـ وكان الصديقان لم يتطرقا إلى الحديث حول تلك المسائل من قبل.

فقال ريتشارد: بالطبع كثيرًا.

فسأله ديتليف: وماذا تتذكر حين تذكرها؟

فقال ريتشارد: كيف كانت تقف هناك وهي تُدخن، كيف كانت تعقد شعرها عاليًا في الأيام الحارة، أتذكر قدميها.

ديتليف: هل تفتقدها؟

ريتشارد: كنت أظن في الماضي أنني لن أفتقدها حين ترحل.

وحاول ريتشارد، أن يتذكر تلك الأوقات، التي كان يعتقد فيها أنه لن يفتقد كريستل.

ثم قال: أنت تعلم بالطبع، تلك الليالي التي كانت تتشاجر معي فيها، دون أدنى سب".

سأل تريستان: لماذا كانت تتشاجر معك؟

ريتشارد: كانت تشرب كثيرًا، وكان هذا يؤثر على سلوكها كثيرًا وخاصة ليلًا.

سأل إيتمبا: ولكن لماذا كانت تشرب؟

فأجابه ريتشارد: أعتقد...، نعم أعتقد لأنها كانت غير سعيدة.

إيتمبا: ولِمَ لمْ تكن سعيدة؟

فرد توماس وهو ينفث دخان سيجارته: لقد تم حل الأوركسترا التي كانت تعزف فيها.

وأضافت أنّا: وريتشارد كانت له عشيقة.

ثم قالت ماريون: وكانت تريد أن تصبح أمًّا.

فسألها ريتشارد مندهشًا: هل قالت لكِ هذا؟

ردت ماريون: نعم.

فسأله زعير - الذي تذكر الحديث الماضي في شبانداو - قائلًا: ولكنك قلت أن هذا كان قرارًا مشتركًا.

قال ريتشارد: كانت حاملًا في إحدى المرات، إلا أن هذا كان مبكرًا جدًّا بالنسبة لي، كنت لا زلت أدرس، فأقنعتها بأن تتخلص من الجنين.

قال زعير: أفهم.

ريتشارد: لم أكن أريده في هذا الوقت.

زعير: أفهم.

فقال ريتشارد: ولكن هذا كان لا يزال غير قانوني في ذلك الوقت، وذهبنا لإحدى السيدات، وتخلصت من الجنين على مائدة

مطبخ لدى تلك السيدة، وكنت أنتظرها بالأسفل في ساحة المنزل.

لا يزال ريتشارد يتذكر جيدًا تلك الساحة الخلفية للمنزل التي انتظر فيها، تذكر درجة الحرارة التي قاربت الثلاثين، والظل الساخن الذي كان يقف فيه إلى جوار سلال القمامة التي تحمل أغطية من الصفيح المتعرج.

ثم قال ريتشارد: عندما خرجت كادت أن تقع، قمت بمساعدتها، وشعرت لأول مرة أن وزنها ثقيل، طال الوقت علينا حتى وصلنا إلى محطة المترو، وعندما جلسنا في المترو لاحظت للمرة الأولى كيف كان الدم يسيل على ساقيها، شَعُرت في تلك اللحظة بالخجل من أجلها، كان عليَّ أن أعتني بها، ولكن كان هذا الأمر ثقيلًا جدًّا على نفسي.

كان ريتشارد يهز رأسه، كما لو كان هو نفسه لا يصدق ما يقوله.

ثم قال علي: لماذا شعرت بالخجل من أجل زوجتك؟

ريتشارد: أعتقد، أنني كنت أشعر بالخوف في هذا الوقت.

علي: مِمَّ كنت تشعر بالخوف؟

ريتشارد: من أن تموت، لقد كنت أكرهها في تلك اللحظة، لاحتمالية موتها.

ديتليف: أستطيع أن أفهم هذا.

ريتشارد: في هذا الوقت، اتضح لي، أن ما أتحمله هو مجرد سطح رقيق يخفي تحته ما لا يمكنني تحمله.

سأل خليل: مثل البحر.

فقال ريتشارد: نعم، بالضبط مثل البحر.

كلمة شكر من المؤلفة

أتوجه بالشكر العميق لتمكني من إجراء الكثير من الأحاديث الجيدة مع:

إبراهيم إدريسو بابا نجيدا

صالح باشا

يايا فاتي

أودو هارونا

ناصر خالد

آدم كونيه

ساني أشيرو، محمد فاتاو، أفودو يايا، بشير زاخاريا.

كما أتوجه بخالص شكري للدعم والمساعدة والعمل المشترك لكل من:

كاتارينا بيلينج

إنجريد أنيه كاديه

كورنيليا لاوفر

مالفه ليبمان وسونجو ماريون وفيكتور فولفجانج فينجنروت.

وأتوجه بالشكر - أيضًا - لإتاحة الوقت والمكان للكتابة للأستاذ الدكتور باول ميشائيل لوتسيلر، الذي أدين له بجزيل الشكر، وأيضًا لكريستين، نيلس وباسكال هيلبيج.

كما أتوجه بالشكر لكل من جمعية أكيندا المشهرة، وتاينا جرتنر، وليا زيلتان - جرونر، وهانس جورج أودنتال، وبيرنفارد أوستروب، للسماح بالاطلاع على البيانات، وتقديم النصح والمشورة والمعلومات.

كما أشكر فيولا فورستر من لوهه، فراوكة جوتبرلت - كونج، بدراي، وفليكس هانسن، ومريم قيصر، ود. إيفا كراوسه، وساندرا ميسال، ود. ريزنبرج، ورواينر سبرزنسي، وتابيا شميلتزر، ويوله زايدل، ورينيه تيديتكه، وروي فيجاند، من أجل المساعدة الدءوبة.

كما أتوجه بالشكر - أيضًا - على النصح والإلهام والإرشاد لوالدي جون إربينبيك.

وأخيرًا أتوجه لزوجي العزيز فولفجانج بوزيك، قارئي الأول، والذي ساعدني كثيرًا باهتمامه، ونقده، وانفتاحه، وكذلك دعمه وتشجيعه الدائم لي لكي أنجز تأليف هذا الكتاب.

جيني إيربينبيك

وطن محمول

ترجمة: صلاح هلال

رواية

وضع على قطعة الخبز الأولى شرائح الجُبن، وعلى الثانية اللانشون، كان يخجل أحيانًا من أنه يتناول طعام العشاء وهو يشاهد في التلفاز أشخاصًا ماتوا رميًا بالرصاص، أو جثث ضحايا زلزال أو سقوط طائرات، هنا حذاء شخص راح ضحية عملية انتحارية، وهناك جثث ضحايا وباء بعد أن وضعوها في أكياس ورصوها بعضها بجوار بعض في قبر جماعيّ، ظل حتى اليوم يشعر بالخجل، ويستمر في الأكل، كما كان يفعل دائمًا، لقد فهم منذ طفولته معنى الأزمة، ولكن لا داعي لأن يدفعه اليوم شخصٌ يائس قرر الإضراب عن الطعام إلى أن يموت هو أيضًا جوعًا، هذا ما كان يُحدث به نفسه، وإن فعل فلن ينفع ذلك -أيضًا- الشخص المُضرِبَ عن الطعام

جيني إيربينبيك ●●

كاتبة ألمانية من مواليد عام 1967، كتبت المسرح والقصة والرواية والمقال.
فازت أعمالها بعدة جوائز وترجمت أعمالها إلى أكثر من 18 لغة، وصدر لها من قبل عن دار صفصافة العمل القصصي "أشياء تختفي".

Design by: Alaa Elnewehy


ISBN 978-977-821-056-9
9 789778 210569